

تاريخ فلسطين

تأليف

عمر الصالح البرغوثي و خليل طوطح

تقديم وفهارس

الدكتور محمد نزيه محمد عزب

الطبعة الثانية



دار المعارف

تصميم الغلاف : شريفة أبو سيف

الناشر: دار المعارف ١١١٩ كورنيش النيل القاهرة ج. م. ع.
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

التقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل خلق البشر الصادق الأمين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن اتبع الهدى أما بعد :
فيقول المؤرخ إسكندر عزيز عن فلسطين وصهيون : معتمداً على ما ورد فى الكتب السماوية :

آدم أول من آمن بإله واحد له ملك السماوات والأرض ، خلقه سبحانه من صلصال ، وسواه فى أدق تكوين وأجمل تصوير ، ونفخ فيه من روحه .. وأوسع له من رزقه .. ثم أخلفه سلالة من الأخيار أوصلوا الإيمان إلى سيدنا نوح ..

جاء الطوفان .. ثم مضى عهده .. فعاد البشر إلى سابق عهدهم من الميل عن التقوى إلى الهوى ، وعن الدين والإيمان بالله إلى الكفر والإشراك وعبادة الكواكب والأوثان ، فجاء إبراهيم ولم يكن أقل ورعاً وتقوى وإيماناً من نوح .. لام قومه على عبادة الكواكب والأوثان فنقموا عليه وأرادوا به كيئداً ..

﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ (٥)

﴿ الْأَرْضِ الَّتِي بَنَ كُنَّا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٦)

﴿ فَتَأْمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ

النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ

لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٢٧)

(١) سورة الأنبياء، الآيتان ٧٠ - ٧١ .

(٢) سورة العنكبوت الآيتان ٢٦ - ٢٧ .

تفرعت ذرية سيدنا إبراهيم فى إسحق وإسماعيل، وتشتت سلالتاهما فى أنحاء الأرض، وقد تدرجت سلالة إسحق إلى المسيح عيسى :

﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۚ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ٤٨ ﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ ٥١ ﴾^(١)

وتدرجت سلالة إسماعيل إلى النبی سيدنا محمد ﷺ :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ١٢٧ ﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ١٢٨ ﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١٢٩ ﴾^(٢)

(١) سورة آل عمران الآيات ٤٨ - ٥٠

(٢) سورة البقرة الآيات ١٢٧ - ١٢٩

ترك سيدنا ابراهيم - بوحى من ربه - أرض أور ما بين النهرين - مسقط رأسه ورأس أبيه ، قاصداً الأرض المباركة التى أعطاه الله بها عهداً لسكناه وسكنى أبنائه وسلالة أبنائه - ما بين الجزيرة وأرض كنعان :

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (١)

استوطنها بعد أن جاب البادية وزرع القفار، ورزقه الله فيها إسماعيل واسحق :
﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (٢)

ولقد أنجب إبراهيم إسماعيل من هاجر، وأنجب إسحق من سارا وقال لربه :
﴿ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ (٣)
رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضَلَّلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَافِرٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤)

أقام بنو إسرائيل سلالة إسحق بادئ ذى بدء فى أرض فلسطين حاليين على أملها، ثم نزحوا إلى أرض مصر إثر يوسف الصديق :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوَتِهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ أَنَا لَأَكُونَنَّ مِنَ الْمُدْخِلِينَ ﴾ (٥)

(١) سورة ابراهيم الآية ٣٧.

(٢) سورة ابراهيم الآية ٣٩

(٣) سورة ابراهيم الآيتان ٣٥ - ٣٦

(٤) سورة يوسف الآية ٩٩

نزحوا إليها واستوطنوها جيلاً بعد جيل، تمتعوا في رحبها، وتمتعوا بخصبها ولكنهم لم يندمجوا في أهلها، ثم ضاقت بهم أرضها، فضموا رحلهم، وشدوا رحالهم، وموسى على رأسهم، وقد جابوا القفار، وتاهوا فيها أربعين حولاً، حتى انتهوا إلى نهر الأردن، إزاء أرض جدتهم الأعمام إبراهيم..

وبعد أن هجروها أربعين ومائتي سنة عادوا إليها على زعم أنها مازالت أرضهم، وكثيراً ما تركوها بعد ذلك ثم عادوا إليها، وقد أصبحت بمضى الأجيال ومرور الآجال أرض غيرهم ممن أقاموا بها واستوطنوها جيلاً بعد جيل من بعدهم.. دخلوا الأرض واغتصبوا الديار واستوطنوها بالسيف والنار.. وقد أتوا بأهلها من الإرباب ما تقشعر منه الأبدان، وتشيب منه نواصي الولدان، مما يتلونه في كتبهم بفخر وإيمان..

«سقط السور وأخذوا المدينة.. وأحرقوها بالنار مع كل ما بها.. قال الرب ليشوع لا تخف ولا ترتعد، خذ معك رجال الحرب واصعد إلى عاي.. فتفعل بها وبملكها ما فعلت بأريحا وملكها، غير أن غنيمتها وبهائمها تنهبونها لأنفسكم.. دخل بنوا إسرائيل المدينة وأحرقوها بالنار كقول الرب ولما انتهوا من قتل جميع أهل عاي أسقطوهم جميعاً بحد السيف حتى فنوا، فكان جميع الذين سقطوا في ذلك اليوم من رجال ونساء اثني عشر ألفاً.. جميع أهل عاي.. وأما البهائم وغنيمة تلك المدينة فنهبها بنو إسرائيل لأنفسهم.. وأحرق عاي وجعلها تلاً أبدياً خراباً، وعلق ملك عاي على الخشبة حتى المساء.. وعند غروب الشمس أنزل الجثة وطرحها عند باب المدينة.. ولما سمع جميع الملوك ما حل بعاي اجتمعوا لمحاربة يشوع.. ولما انتهى يشوع وبنو إسرائيل من ضربهم ضربة عظيمة حتى فنوا قال يشوع لقواده «تقدموا وضعوا أرجلكم على أعناقهم ثم ضربهم وعلقهم على الخشب ثم أنزلهم وطرحهم في المغارة.. وأخذ يشوع... مقيدة وضربها بحد السيف مع ملكها..

ثم اجتاز إلى عجلون وضربها بحد السيف.. ثم إلى حبرون وضربها بحد السيف مع ملكها.. ثم إلى ديبير وضربها بحد السيف.. ثم إلى حاصور وأحرقها بالنار.. ثم أبادهم.. ولم يبق نسمة.. ثم شرع بنو إسرائيل في قسمة الأرض..

(*) هناك نقص في الأصل.

« وحارب بنو يهوذا أورشليم وأخذوها وضربوها بحد السيف وأشعلوا المدينة بالنار.. وضربوا.. وضربوا.. وضربوا بحد السيف.. وكمن اييمالك فى الحقل ونظر وإذا الشعب يخرج من مدينة.. فقام عليهم وضربهم وحارب المدينة كل ذلك اليوم وأخذها.. وقتل الشعب الذى بها.. وهدمها ووضع أغصان الشجر على العرج وأحرق عليهم العرج بالنار.. فمات جميع أهل البرج نحو ألف رجل وامرأة..

« وضرب الرب بنيامين أمام إسرائيل.. وأهلك بنو إسرائيل من بنيامين فى ذلك اليوم خمسة وعشرين ألفاً.. ثم.. ثم.. ثم.. إلى أن جاء المسيح عيسى رسولاً إلى بنى إسرائيل.. فكانت الكلمة سيفه.. وكان هو من الكلمة.. أتاهم.. وقتل بلسانه.. وانتصر بلسانه.. وهدى بلسانه.. وقهر بلسانه.. وكانت وصيته فى القتال.. « الحق والحب » .

جاء المسيح عيسى إلى بنى إسرائيل فقال: ﴿مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِئُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَقَامَتِ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾^(١).

ثم رحل جُل من كفروا به عن أرض فلسطين إلى أنحاء الأرض متشتتين يبتغون الرزق وجمع المال.. كما ابتغوا قديماً فى أرض مصر جمع الأقوات والغلال، وقد استوطنوا شتى الأقطار والأمصار.. مندمجين وغير مندمجين.. وهم ما زالوا طامعين فى أرض فلسطين مدعين أن الله أعطاها عهداً لإسحق ويعقوب، ولأبناء إسحق ويعقوب، ولسلالة إسحق ويعقوب، إلى أيد الأبد.. إذ ورد فى توراتهم: «وقال الرب لإسحق اسكن هذه الأرض أنت وسلالتك وسأكون معك».. «ستتضاعف ذريتك فتفوق نجوم السماء عدداً».. وقال الرب ليعقوب: «أنا الرب إله إبراهيم وإسحق - هذه الأرض التى تتوسدها - أرض بتل أى بيت الله.. هى لك ولذريتك».. ولكنى أحسبهم قد أغفلوا أن عهد إسحق هذا ورد فيه: « وأقطع لك بها - أى الأرض - العهد الذى قطعت له لجدك إبراهيم من قبل وهو أن الأرض جميعها ما بين أنهر الأردن والفرات ومصر موطن لإبراهيم ولأبناء إبراهيم ولذرياتهم أجمعين.

« قال الرب لإبراهيم اخرج من أرض أور - بلادك وبلاد قومك - واذهب إلى حيث أوحيك.. » .. « فرحل إبراهيم ومعه لوط ابن أخيه وسارا وزوجه إلى أرض كنعان، قال له الرب: «هذه الأرض ميراث ذريتك.

ثم انتقل إبراهيم غرب بتل - أى بيت الله - ولما وجد الأرض مجدبة قصد إلى أرض مصر - ثم عاد مصر ثرياً، ونزل ما بين بتل وعامى.. وقد افترق عنه لوط ونزل فى وادى الأردن.. أما إبراهيم فقال له الرب: ارفع عينيك وانظر شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً فهذه الأرض التى تراها جميعا ستكون لذريتك من بعدك.. وستكون ذريتك كتراب الأرض لا تعد ولا تحصى..

« انظر إلى السماء وخبر عن عد نجومها، كذلك سيكون عد ذريتك من بعد.. » .. « ثم وضعت له هاجر المصرية إسماعيل بعد أن حزنتم وابتأستم ويئست فقال لها ملاك الرب: « لا تحزنى فإن الله سيهبك من إبراهيم ولدا اسمه إسماعيل - أى يارب اسمع لى - لأن الرب سمع لك صوت أحزانك. وسيكون ابنك هذا جباراً قوياً، وسيقيم مع أخوته.. وسيضاعف الرب فى سلالته بحيث لا تعد ولا تحصى.. »

« وبعد أن أنجب إبراهيم إسماعيل ظهر له الرب وقال له: «سيكون اسمك من اليوم إبراهيم - أى أب شعب كبير - وسيأتى منك أمم.. » .. «أنا الرب الذى أخرجك من أور لترث ذريتك هذه الأرض، وسأعطيك وأعطيهم أرض كنعان إلى أبد الأبد.. وستكون أبا لأمم تترى.. وسيأتى ملوك من سلالتك.»

« ثم أنجب إبراهيم إسحق من سارا فقال له الرب: «وسأقطع لأبنك إسحق عهداً ولذريته من بعد.. وأما إسماعيل فقد باركته وسينجب ذرية كبيرة وسيكون راس أمة عظيمة.. وسيأتى منها اثنا عشر ملكاً» ..

وقد ورد فى التوراة أن إسماعيل كان بعد بلوغه الثلاثين من عمره قد عاد إلى كنف أبيه إبراهيم كما ورد أن عيشو بن إسحق وشقيق يعقوب تزوج من بنات إسماعيل وأن أبناء إبراهيم إخوة إسماعيل وإسحق من غير هاجر وسارا - أمثال

زمران ومديان ويقطان - قد تكاثرت ذريتهم وتشتت أسرهم فى أنحاء الأرضين شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً - وفى أرض كنعان وفى غير أرض كنعان ما بين نهر مصر المبارك ونهر الأردن حتى نهر الفرات العظيم.

والآن وبعد مئات ومئات السنين يقول بعض اليهود من الصهيونيين: إن بلاد الله الواسعة قد ضاقت بهم وضاقوا بها.. فأصبحت جيلاً بعد جيل لا تطيقهم ولا يطيقونها.. وما ذلك إلا لأنهم لا يندمجون.. بل لا يريدون أن يندمجوا.. اضطهدهم الألمان فى بلادهم وفى غير بلادهم.. ثم حاربهم غير الألمان، وحاروا فى أمرهم.. وقد عجزوا عن أن يجدوا لهم موطناً قومياً فيه يصمدون وإليه يستكثنون، كما عجزوا عن أن يجدوا حتى الآن سبيلاً لأن ينزلوهم جميعاً فى صهيون.. لأن صهيون أصبحت موطن أبناء أبيهم إسحق الذين انفصلوا عنهم من حوالى ألفى سنة إذ آمن أكثرهم بيسى.. ثم آمن أكثرهم بمحمد ﷺ، كما أصبحت موطن أبناء عمهم إسماعيل الذين أسلموا من بعدهم ومن قبلهم.

وقد أصبح أهل فلسطين الآن يتناجون: « ماذا جنينا حتى ينزح إلينا هذا الخليط الصهيونى الأجنبى الذى تركنا وهاجر وغاب قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل، فأصبحت له مواطن تترى فى مشارق الأرض ومغاربها، وإذا ما توالد وتكاثر أتاناً ظلماً وعدواناً ليغصب أرضنا، وينتزع أوقاتنا، ويستحل أراضينا، ودورنا».

وغير أهل فلسطين يقولون: «ونحن ماذا جنينا حتى تبقى تلك الفئة الصهيونية الثائرة بين أظهرنا وهى لا تريد أن تندمج فينا ما حييت وما حيينا» لا دينها ديننا، ولا دمها دمنا، ولا ذريتها ذريتنا.. تزاحمنا مساكننا وتنافسنا أراضنا، وتنتزع من أفواها أوقاتنا وتكس فى خزائنها أموالنا.. ثم هى تزعجنا وتشاغبنا لنجدد لها عهد أرضها.. وقد أصبحت الأرض موطن سلالة الجد الأكبر إبراهيم - عرب وغير عرب - نصارى ويهود ومسلمين.. ذرية إسحق وإسماعيل ولوط ويقطان ومديان وزمران، ممن لم ينزحوا عن الأرض بل استقروا بها قرناً بعد قرن.. فأصبحت بطبيعة الحال موطناً قومياً لهم دون سواهم..

قلق الصهيونيون فى بلاد الله قاطبة، وأقلقوا أهل البلاد قاطبة، فهم لن يسعدوا - على زعمهم - إلا فى فلسطينهم، وهم لن يستريحوا إلا على طينهم، وهم لن يأنسوا إلا لتل أبيبهم. وهم لن يهدأ لهم بال ولن يهنأ لهم حال حتى يأتيتهم كبير منهم - شرتوك أو ابن جريون - يلهمه ربه - كما ألهم موسى ربه - أن يعود بهم إلى فلسطينهم، وحتى يخلف كبيرهم هذا أبيمالك آخر يضرم النار فى الديار ويرك الآثار.. وحتى يخلف كبيرهم هذا يشوع جديداً يضرب السيف فى الرقاب، وينزل على أهل الأرض أقصى العقاب.

« أى رجال صهيون من سلالة يهوذا وإسحق ويعقوب! أتاكم عيسى فيكم ومنكم نبياً، فانشققتم فئتين - منكم من تبعه وآمن به فأصبحوا نصارى ولم يفتنوا لا هم ولا سلالاتهم يهوداً منكم - لا من ملتكم ولا من أمتكم - إن صح تسميتكم أمة - وقد كانوا أصلاً منكم - ذرية ودما. ومنكم من نفر ولم يؤمن به - وقد هاجر جلهم وأنتم منهم وتشتت شملهم فى أنحاء العالمين جيلاً بعد جيل وبقي بعضهم فاندمج فى المسلمين والنصارى من سلالة إسماعيل وإسحق، فأصبحوا جميعاً فلسطينيين - طعام هؤلاء حل لهؤلاء، وقد رفع عنهم الحرج أن يسكنوا وأن يأكلوا سوياً، فأصبح من فرضهم الوطنى أن يدفعوا عنهم وعن أرضهم شرادمتكم الأجنبية الطامعة الجبارة، تأتيتهم من مشارق الأرض ومغاربها، تجر الجور فى أذيالها، وتحمل الجوع فى أحشائها - لتطفى عليهم وتوقع الرعب فى قلوبهم والخراب فى ديارهم».

«ما بالكم تنهافتون على أرض غيركم تغتصبونها ظلماً وعدواناً لتتنشئوا فيها دولة جبارة مدججة بالسلاح من دينكم بعد أن أصبح دينكم عالمياً لا قومياً كما أصبح الدين المسيحى وكما أصبح الدين الإسلامى دينين عالميين» .

ولقد أصبحتم عنصراً عاملاً فى أمم الأرض جميعاً تستقلون خيراتها، وتكتسبون ثرواتها، فما بالكم لا تندمجون فى تلك الأمم وقد عشتم بين ظهرانيهم آجالاً وقروناً وأجيالاً.. وما بالكم تطمعون فى أرض لم تعد بعد أرضكم. بعد أن تركتموها آجالاً وقروناً وأجيالاً، وما أجراكم! تطمعون فى هذا الشطر الصغير

تنزّعون من أمله أقواتهم وأرزاقهم لتصبحوا دولة جبارة. لا شوكة في قلب الأمم العربية فحسب - بل خنجرا يسهل دما، سبق أن استلثتموه في عهد آشور والأكاسرة والفراعنة والروم، وكيف يكون ذلك وقد قال نبي فيكم: «أى أبناء أورشليم التى قتلت الأنبياء ورجمت الرسل كم وددت أن أجمعكم سوياً كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها، ولكنكم لم تجتمعوا.. وأصبحت دياركم منكم قاعاً صفصفاً.. وسوف لن ترونى حتى يأتىكم من يقول لكم: «تبارك الذى جاءكم من قبل الله ربكم».. ولكنه لن يأتىكم.. وإن أتاكم.. فسوف لن تقبلوه».

وقد قال لكم نبيكم المسيح عيسى الذى جاءكم منكم ولكم نبياً، فنبذتموه: «سيؤخذ منكم ملك ويعطى لأمة حسنت أعمالها».

ما أجراكم على الله وعلى أنبيائه! - بعد أن اضطهدتموهم وكذبتموهم ورجمتموهم وعذبتموهم - تطلبون العود لأرض نبي بعثه الله منكم فأنكرتموه، فحكم على دياركم أن تكون قاعاً صفصفاً فتشتتم فى مشارق الأرض ومغاربها، وغضب الله يتبعكم.. لا لن يقبل قبر نبيكم هذا ولا مسجد نبيكم ذاك أن يكونا فى عقر دولتكم المزعومة، وقد أصبح هذا المسجد وذاك القبر آمينين فى عقر ديار من آمنوا بها دونكم، وقد أصبحتا لأمم المسلمين والنصارى مقدسين محرمين.

وأنتم أى عرب فلسطين.. ضحوا بمالكم فى سبيل صون أرضكم من تلك الشراذمة الغاشمة ولو صبغت بزكى دمائكم.. وما قد هبت الدول العربية إخوتكم - للأخذ بناصركم وإقصاء أعدائكم وأعدائهم عنكم وعنهم..

ولكننى أوصيكم خيراً بمن تخلف بين ظهرانيكم يهوداً من سلالة إسحق جيلاً بعد جيل فهم ما زالوا مثلكم أبناء جدكم الأكبر إبراهيم، اجعلوا منكم ومنهم أمة فلسطينية واحدة طيبة متحابية، وقد جمعكم أصلاً جد واحد عظيم هو سيدنا إبراهيم تنزعج روحه وتضطرب رفاقته إذا ما رآكم وإياهم تتطاحنون وتتقاتلون، وقد ورد فى توراتهم أنه عندما توفاه ربه أغمض جفونه راضياً على عينين قريتين بين ولديه - جدكم إسماعيل، وجدهم إسحق - عن جنبه..

والسلام..

والحمد لله رب العالمين ..

ويضيف الأستاذ جفرى بطرس غالى فى كتابه « فلسطين » عن الصهيونية وفلسطين فيقول :

أصل الدعوة الصهيونية

رحل اليهود عن فلسطين من ألقى سنة، هرباً من اضطهادهم فى فلسطين على أيدي غزاتها الرومان.

واستقر كل فريق من اليهود فى البلد الذى قصد إليه، أو انتهى إليه مطافه، وحاول جهده أن يندمج فى أهل البلد، يتكلم لغتهم، ويعتاد عاداتهم، ويطالب بما لهم من حقوق وبما عليهم من واجبات.

وكان اليهود فى القرون الوسطى يعاملون، فى معظم البلاد الأوروبية، معاملة مجحفة ظالمة، فكان يجب عليهم أن يسكنوا أحياء خاصة بهم. وأن يحملوا شارات تميزهم. وكانوا ممنوعين من تولي المناصب العامة أو مزاوله بعض المهن والحرف.

إلا أن هذه القيود زالت تدريجياً. وفى العهد الحديث أصبح لا أثر لها، فى أوروبا أو أمريكا، فى الأوضاع الرسمية.

إلا أن انيهود-وهم فى جميع بلاد الدنيا أقلية-مافتنوا يشكون من أنهم يشعرون-فى الواقع، وفى بعض الحالات- بتمييز خفى فيه بعض الإجحاف بهم.

ويذكرون، على الأخص، القضية الشهيرة التى قامت فى فرنسا فى أواخر الجيل الماضى، وهى قضية الضابط اليهودى « دريفوس » الذى اتهم بالتجسس لأعداء بلاده وخيانة وطنه. وانتهت قضيته إلى تبرئته، بعد أن مرت القضية بمراحل استغرقت من الوقت سنوات وانقسم فيها الجمهور الفرنسى فريقين: أحدهما يعلن صراحة كراهيته لليهود، ويدعو إلى اعتبارهم غرباء عن البلد الذى

استوطنوه، ويرى الفريق الآخر أن اليهود مواطنون أوفياء، لا يختلفون عن سواهم إلا من حيث عقيدتهم الدينية. ولا شأن للدولة في العقائد.

وانتهز صحفي نمسوى يهودى، يدعى « تيودور هيرتزل »، هذه المناسبة - وكان فى بلاده صحفياً خاملاً - فأخذ يعلن أن لا أمل لليهود فى أن يظلوا أقليات فى البلاد التى استوطنوها، ودعا، بادئ ذى بدء، إلى أن يهاجر اليهود إلى « أوغندا » البريطانية، فيحولوها إلى بلد يهودى.

إلا أن هيرتزل وجد أن معظم البؤساء من اليهود يشعرون بأن العودة يجب أن تكون إلى فلسطين، لأن فلسطين هى أرض الميعاد المذكورة فى كتبهم المقدسة. فاندفع هيرتزل مع التيار. وطالب بالعودة إلى فلسطين. أى إلى صهيون، ودعيت حركته بالصهيونية.

على أن معظم اليهود قبلوا الدعوة بأذان صماء.

وفى سنة ١٩١٤ م ، بلغ العدد الإجمالى لليهود الصهيونيين الذين يرغبون فى الهجرة إلى فلسطين - التى كانت تابعة وقتئذ لتركيا - ١٢ ألف مهاجر فقط. وكان عدد اليهود فى هذا العهد فى فلسطين كلها سبعين ألفاً، يقابله من الفلسطينيين العرب، المسلمين والمسيحيين ستمائة ألف.

ولما طالت الحرب العالمية الأولى، أرادت بريطانيا العظمى أن تستميل إليها اليهود فى العالم أجمع ، وبصفة خاصة اليهود فى أمريكا وفى ألمانيا وفى بلاد الأعداء، على ما سنعود إليه فيما بعد، فأصدرت تصريحاً عرف بتصريح بلفور.

ومعلوم أن تصريح بلفور جاء فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ فى صورة كتاب صدر من المستر بلفور باسم الحكومة الملكية البريطانية، إلى اللورد روتشيلد، بصفته من زعماء الصهيونيين. وهذا التصريح فى حد ذاته، لا يعيننا فى الواقع كثيراً. لأن كتاباً يصدر من وزير بريطانى إلى أحد الأفراد البريطانيين لا يربط إلا الحكومة البريطانية ولا يمكن أن يكون له، من الوجهة القانونية الدولية، أية قيمة.

أما السند ذو الخطر الدولى الحقيقى فى قضية فلسطين فهو ما اصطلح على تسميته بصك الانتداب. وهو قرار أصدره مجلس عصبة الأمم فى ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٢، ولم يدخل فى دور التنفيذ إلا فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٢٣. وقد صدر تطبيقاً للمادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم. والقرار يتضمن مقدمة مطولة، تتلوها ثمان وعشرون مادة، تفصل واجبات الدولة التى عهد إليها، باسم عصبة الأمم، بأن تتولى، مؤقتاً، إدارة فلسطين، مندوبة عن العصبة.

وقد جاء فى الحثيتين الثانية والثالثة من المقدمة، ما يأتى ترجمته الحرفية، وهو فى قضية فلسطين بيت القصيد :

« لما كانت الدول المتحالفة الكبرى قد اتفقت كذلك على أن تكون الدولة المنتدبة (أى بريطانيا العظمى) مسئولة عن تنفيذ التصريح الذى أصدرته حكومتها صاحب الجلالة البريطانية فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧م، والذى اعتمدته الدول المذكورة، فى مصلحة إنشاء منزل قومى للشعب اليهودى فى فلسطين، على أن يكون مفهوماً بوضوح ألا يؤتى شئ قد يلحق ضرراً بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية الموجودة الآن فى فلسطين أو بالحقوق والأوضاع السياسية التى يتمتع بها اليهود فى أية دولة أخرى .

« ولما كان هذا التصريح يتم الاعتراف بالرابطة التاريخية بين الشعب اليهودى وبين فلسطين، وبدواعى إعادة تشييد منزلهم القومى فى هذا البلد. . . » .

هذا النص -الذى تقيدنا فى ترجمته بأن نلتزم حرفيته، لأننا فى مجال يحسب فيه لكل حرف حسابه-، هو أساس النكبة التى نكبت بها فلسطين العربية.

وقد يكون - على ما نرى شخصياً - فى العودة إليه دون سواء مفتاح الفرج.

البدع الثلاث

وفى هذا النص بدع ثلاث، لم يسبق لبعضها مثيل فى عالم العلاقات الدولية :

أولاً : ذكر ما سمي « بالشعب اليهودى » .

ثانياً : ذكر ما سمي « بالمنزل القومى » .

ثالثاً : ذكر ما سمي « بالرابطة التاريخية » بين شعب وبلد.

الشعب اليهودى

أما عن « الشعب اليهودى » فالاعتراف بوجوده هو تمهيد للنظريات العنصرية التى مجدها الاشتراكية النازية وبنّت عليها سياستها فى كراهية الألمان لليهود كراهية رسمية ، واضطهادهم وإبادتهم أو ترحيلهم عن البلاد عنوة.

والسؤال الأول الذى يتبادر إلى الأذهان هو: هل يكون اليهود، فى شتى دول العالم، ما يصح أن يسمى، من الوجهة العلمية البحتة، « شعباً » له مميزاته التكنولوجية الخاصة، التى تختلف عن سمات عموم الشعب الذى يعيش كل فريق من اليهود فى أوساطه، منذ مئات السنين؟

والواقع أن المدى الذى بلغته العلوم فى مادة أصول الشعوب ومميزاتها، لا يزال يدع مجالاً فسيحاً للجدل وتضارب الآراء.

ويكفى أن نضرب مثلاً واضحاً للمصاعب التى يلاقونها، فى الوقت الحاضر، فى الولايات المتحدة الأمريكية، للتمييز بين « البيض » و « السود » ، عندما يختلط دم الاثنين اختلاطاً متواصلاً، فقد نشرت مجلة « تايم » الأمريكية الكبرى، فى ١٢ أغسطس ١٩٤٦ م ، بحثاً يفيد أن هناك، فى الولايات المتحدة، قراب ثمانية ملايين من البيض، يجرى فى عروقهم دم أسود، وهناك فى كل سنة ما يربو على العشرين ألف مواطن ينتقلون خلصة من تعداد السود إلى تعداد البيض. وهذا كله من جرّاء الاختلاط الجنسّى بين البيض والسود الذى يجعل التمييز فى السلالة عسيراً، فى كثير من الأحيان.

فإذا كان الأمريكيون لم يهتدوا إلى حدّ فاصل بين البيض والسود، فكيف يريد البعض أن يقول بأن اليهود الذين يعيشون فى الأوساط الأوروبية والأميركية

والشرقية منذ مئات السنين، وهم لا يختلفون عن سائر أفراد الشعب فى اللون أو فى المأكل أو فى المسكن أو فى العادات والأخلاق أو فى اللغة، وكثيرون منهم يتزوجون بالمسيحيين وغيرهم، تمكنوا مع ذلك بالاحتفاظ، على مر الأجيال ووفرة الاختلاط، بطابعهم التكنولوجى الذاتى الذى يسمح لعالم، يقدس العلم لذاته، أن يقول بأنهم لا يزالون يكوّنون « شعباً » ؟ ؟

وقد كان العلماء اليهود أول من فند النظريات العنصرية. وأثبت أنه لا يوجد، من الوجهة العلمية البحتة، ما يصح أن يسمى بالعنصر اليهودى، وهذا عندما أرادوا أن يدفعوا عنهم خطر التمييز العنصرى الذى هدّد هتلر به كيانه فى أوروبا الوسطى.

روابط الشعب اليهودى

ومن الأسئلة المحرجة التى توجه إلى دعاة الصهيونية - وهم يعملون جهدهم على التهرب منها، فيجب أن يعمل العرب جهدهم على تكرار توجيهها فى كل مناسبة - هى تعريف الرابطة التى يدّعون أنها تربط بين الصهيونيين الذين يقولون إن تصريح بلفور صدر لمصلحتهم، وإن لهم حقوقاً دولية فى الهجرة إلى فلسطين. فما نوع هذه الرابطة؟

فلو استباننا لنا هذه الرابطة، لوضحت مميزات هذا « الشعب اليهودى » المزعوم.

لا يمكن أن يقال بأن الرابطة دينية - لأن الدين عقيدة وإيمان - وكثيرون من الصهيونيين، فى فلسطين وفى العالم، يجاهرون بأنه لا عقيدة ولا إيمان لهم. وإنما هم من الملحدين، المائلين عن العقائد، الطاعنين فى الأديان. وفضلاً عن ذلك، فالقانون الدولى لا يعرف الأديان. إنما يعرف الجنسيات والتبعية القومية.

لذلك، لما قيل للرئيس ترومان: إنه ينبغي له أن يعمل على أن تفتح أبواب الولايات المتحدة للمهاجرين اليهود، لأن هذه النتيجة المنطقية العملية لعطفه

السياسى عليهم، قال الرئيس: إنه لا يصح للقوانين أن تنتظر لأديان المهاجرين، وإنما تنتظر لمواطنهم فحسب.

فلا يصح مثلاً لقوانين الهجرة، فى الولايات المتحدة، أن ينص فيها على أنه يقبل عدد كذا من المهاجرين « اليهود »، وإنما ينص فيها على قبول عدد معين من المهاجرين اليوغوسلافيين أو البولنديين أو الأوروبيين عمومًا.

فالتمييز القانونى بين المهاجرين إنما يكون على أساس جنسياتهم، وليس على أساس دينهم، فالأديان فى نظر الدولة كلها سواء.

هذا ما قاله الرئيس ترومان. والحق معه .

وهو يؤيد ما نقترح على العرب أن يذهبوا إليه فى دعايتهم - من أن الرابطة بين الصهيونيين ليست رابطة « دينية » - فأى فرد يستطيع اليوم أن يعتقد الدين اليهودى، عن عقيدة يراها، فهل تحوله فى العقيدة يدمجه فى الشعب اليهودى، ويجعل له الحق الدولى فى أن يطالب بالهجرة إلى فلسطين ؟

ولو كانت الرابطة دينية، لوجب أن ينص على ألا يقبل فى فلسطين إلا اليهودى المؤمن، فإذا ضعف إيمانه، تلاشت جنسيته، وتبخر حقه فى البقاء فى فلسطين.

وهى أيضاً ليست بالرابطة العنصرية، فقد أثبت علماء اليهود ذاتهم كما سبق أن ذكرناه - فى محاولتهم دحض المزاعم النازية عن وجود عنصر آرى، وعنصر يهودى - أن الكثيرين من يهود أوروبا لا تجرى فى عروقهم قطرة من دم اليهود الذين أرحلهم الغزاة الرومان عن فلسطين من ألفى سنة، وأن اليهودى البولندى واليهودى الصينى واليهودى الحبشى لا تجمع بينهم أية رابطة عنصرية، تقوم على أساس علمى جدى.

وكذلك لا تربطهم التقاليد المشتركة، فبعض اليهود إباحيون، وبعضهم محافظون، وبعضهم متطرفون فى النزعات العصرية. وغيرهم من أنصار الرجعية، ومنهم الشيوعى، ومنهم المحافظ، ومنهم الثورى.

فلا سبيل إلى استنباط مميزات من التقاليد والعرف، يصح أن تعتبر رابطة بين اليهود، إذا ما انعدمت الرابطتان الدينية والعنصرية، كما أسلفنا.

فأية رابطة يمكن إذن لدعاة الصهيونية أن يقولوا بوجودها بين قومهم، تجمع شملهم وتجعل من أشتاتهم بناءً مرصوفاً؟

لقد انتهى مفكرو اليهود، بعد الجهد، إلى أن قالوا: إنه لا يربط اليهود بعضهم ببعض إلا كراهية غيرهم لهم !!

ونحن نقول، بلسان العرب، إن هذه الكراهية - التي انتهى الصهيونيون إلى أنها الرابطة الوحيدة التي توثق عراهم، وتجعل منهم جماعة - لا وجود لها أصلاً في كثير من البلاد، ما لم تكن نتيجة لتصرفات اليهود ذاتهم، وعلى الأخص الصهيونيين منهم.

ولقد أفضى سعادة عبد الرحمن عزام باشا، بصفة كونه الأمين العام للجامعة العربية، بتصريح في لندن أذاعته « روتر » في ١٢ سبتمبر سنة ١٩٤٦م - بمناسبة انعقاد مؤتمر فلسطين، ننقل منه الفقرات الآتية، وهي في الواقع تعبر عن شعور أغلبية العرب نحو اليهود، وقد تشبعنا منها في بحثنا هذا:

« إن العرب لا يضمرون الحقد لليهود، ونحن لا نرغب بحال من الأحوال في توسيع نطاق روح العداة للعنصر السامي، بل نأمل ألا تخلق الاضطرابات السياسية في فلسطين فروقاً مصطنعة بين شعب عظيم كالعرب وشعب عظيم آخر كالشعب اليهودي ».

« لقد كنا دائماً أصدقاء تربطنا بهم روابط السلام منذ قرون، وفي اعتقادنا أن في وسعنا أن نبرهن للعالم أن اليهود والعرب يستطيعون العيش معاً في سعادة، ولهذا فقد جئنا هنا لمعالجة هذه المشكلة دون أي عداة نحو الجانب الآخر » .

وإننا لنؤيد الأمين العام فيما ذهب إليه من أنه لا حقد ولا عداة في الشرق نحو اليهود.

وإنما نخالفه كل المخالفة فى ذكره «للشعب اليهودى».

فمن رأينا أن العرب والأوروبيين إنما يجب أن يعرفوا فى كل البلاد «مواطنين يهود». ولا يعرفون، أبداً . حيث كان، «شعباً يهودياً» .

ومن الجوهري، فى رأينا المتواضع، أن تنسق سياسة العرب فى قضية فلسطين على القول بأن اليهود أفراد من المواطنين، لهم دينهم ولنا ديننا - وأن هؤلاء الأفراد إنما يكونون أقلية دينية تستحق الحماية المحلية، ولا يكونون بحال من الأحوال، لا فى الشرق ولا فى غيره، «شعباً» له حقوقه الدولية، ووجوده الذاتى، وزعماء ووكالات وما تدعيه من امتيازات.

فكما أنه لا يوجد فى بريطانيا العظمى شعب بروتستانتى وشعب انجليكانى وشعب كاثوليكي وشعب ملحد وشعب يهودى، وإنما يوجد شعب بريطانى. لكل من أفرادهم أن يتبع الدين الذى يعتقد به فى قرارة نفسه، وهو فيه منه إلى ربه، وكذلك لا يوجد فى مصر شعب مسلم وشعب قبطى وشعب يهودى، وإنما يوجد شعب واحد هو الشعب المصرى، يتساوى أفرادهم فى الحقوق والواجبات، وهكذا فى كل من البلاد المتمدينة. فإن النظرة القائلة بأن هناك «شعباً يهودياً» يقوم قاسماً مشتركاً فى كل من بلاد العالم، لهى نظرية هدامة للأسس القومية. نسافة للروح الوطنية نتيجتها المنطقية الحتمية تكون - مع شديد الأسف وبالع الخسارة - أن يعتبر المواطنون اليهود، فى كل من بلاد العالم، غرباء عنه. دخلاء فيه. ما داموا يصرون على القول بأنهم أفراد «لشعب» غير شعب البلد الذى ولدوا فيه، واستقروا فيه بعد آبائهم وأجدادهم فاستوطنوه.

فالبلاد لا تعرف من أبنائها إلا من ينتمى لها دون سواها.

وتأبى لأى من أبنائها أن يكون له، وقت ما يشاء، أن يعلن أنه صهيونى، فتفتح له أبواب بلد فلسطين، وينزع رداء قوميته الأولى ليصبح فلسطينياً، ولا يبقى فى بلد مولده وموطنه إلا إذا فضل ذلك على الرحيل إلى فلسطين بمحض اختياره.

إزدواج الأوطان

إن النظرية القائلة بوجود « شعب يهودى » له فى فلسطين وطن أو منزل قومى، لهى نظرية ابتدعها الصهيونيون. وهى تزعم من أساسها مبادئ القانون الدولى العام والخاص، القائلة بأن لكل امرئ وطناً واحداً، لا ثانى له.

والمواطنون اليهود، فى كل بلد، المخلصون حقاً لبلدهم، الموالون لمصالحه دون سواها، الشاعرون بقوميتهم فيه شعوراً صادقاً، هؤلاء اليهود هم الذين يجب أن تلجأ إليهم فلسطين العربية، فى دعايتها الدولية لحمايتها من خطر «المنزل القومى» الذى وعد بلفور بإنشائه لهم فى فلسطين.

فهذا المنزل، لو أتيح له أن يقوم، لا بد أن يصبح - مجرد وجوده - خطراً على اليهود، على قدر ما هو خطر على العرب.

فالمواطنون اليهود يجب أن يكونوا، فى وطنهم، ألد أعداء الصهيونية الدولية والمنزل القومى.

فمصالحتهم الحيوية تقتضى منهم ذلك.

حذار من التمييز العنصرى

لقد مات هتلر. وقطعت فروع النظريات التى زرعها، إنما الجذوع لاتزال قائمة. والجذور لا تزال تمتد فى تربة قد تصبح خصبة إذا ارتوت من منطق الظروف.

فالجذوع والجذور لا تقتل إلا بمر الزمن. ولا سيما جذوع النظريات العنصرية.

ولما كانت حقوق اليهود فى الهجرة إلى فلسطين طبقاً لوعده بلفور وللقرار الصادر فى ٢٤ يولية سنة ١٩٢٢م من مجلس عصبة الأمم - أساسها المذكور صراحة فى الوثيقتين إنما هو وجود «شعب يهودى» وأن هذا الأساس، إذا صح وجوده، لكان أقوى الدعائم التى تقوم عليها دعاوى التمييز العنصرى المجحف باليهود فى العالم أجمع - فيجب أن تبرز هذه المسألة فى الدعاية الدولية التى

يقترح على الأمم الشرقية أن تنظمها لنجدة فلسطين ، طبقاً للخطة التي سنعرضها فيما يلي :

فالمواطنون اليهود - فى كل بلد - يجب أن يقنعوا بأن قضية فلسطين العربية هى قضيتهم. ومنع الهجرة إلى فلسطين يوطد مركزهم هم فى موطنهم. والقضاء على «المنزل القومى» اليهودى يترتب عليه ، مباشرة ومنطقياً ، تثبيت أقدامهم حيث هم ، وحماية مصالحهم حيث تقوم فعلاً الآن ، والحيلولة دون كراهيتهم واضطهادهم فى البلد الذى استوطنوه ، وأصبحوا فيه من أبنائه المخلصين الأوفياء.

نكرر إذن أن من مصلحة اليهود فى جميع بلاد الدنيا أن يعملوا غاية جهدهم لتعتبر اليهودية رابطة « طائفية » روحية ، لا رابطة « شعبية » سياسية .

ومن يقل بعكس ذلك ، يفتح الأبواب من جديد ، فى الغد القريب أو البعيد ، للنظريات العنصرية المجحفة باليهود ، تلك النظريات التى تمكنت الديمقراطية من التغلب عليها. إلا أنها قد تعود ذات يوم ، فى البلاد الديمقراطية ذاتها ، وتكون أشد فتكاً بالمواطنين اليهود ، وأبلغ فى القضاء على مصالحهم المشروعة فى البلاد كافة - لو استمر اليهود على تغذية هذه النظريات بتضامنهم الدولى ، ومطالبتهم المستمرة بأن تصبح فلسطين منزلاً قومياً لشعبهم المختار.

فإلى اليهود البريطانيين والأمريكيين والفرنسيين والمصريين ، وغيرهم ، يجب أن يوجه الشرق دعايته الدولية على أساس ما قدمنا من اعتبارات.

فمنهم جاء الخطر على فلسطين العربية.

ومنهم قد يجىء الخلاص لفلسطين العربية.

والأ ، إذا استمروا على القول بأنهم شعب دولى له طابعه الخاص ، وإن فلسطين منزلهم القومى ، لهم فيها حقوق أزلية ، لأعملوا بأيديهم معاول الهدم فى كياناتهم المحلى . وكانوا فى النهاية من الخاسرين.

بدعة المنزل القومى

والنظرية المبتدعة الثانية التى جاء لنا بها بلفور فى وعده، ومجلس عصبية الأمم فى قراره، هى نظرية « المنزل القومى » .

فللمجتمع الدولى قوانين ومواثيق ومعاهدات واصطلاحات .

نعرف فيها الأمم، والدول، والحكومات، والشعوب .

نعرف لكل منها معناها ومعناها .

أما المنزل القومى -- ومن الخطأ الشائع أن يترجم بأنه « الوطن القومى » إذ إنه قد سُمى فى الأصل الإنجليزى National Home وسمى فى الأصل الفرنسى Foyer national - فلم نر له أثرًا فيما سبق من المؤلفات والمعاهدات والوثائق، ولا فى الأسفار الفقهية، وقد تصفحنا الكثير منها، لعلنا نهتدى فيها إلى أصل قانونى لهذا الاصطلاح الغربى .

ولما كانت العبرة فى هذه الشؤون إنما هى بالتطبيق، فقد أثبت التطبيق فى فلسطين، منذ سنة ١٩١٧ إلى الآن، أن الأوضاع الدولية والمحلية لا تستسيغ هذا التعبير ولا تهضمه .

فلا العرب ولا اليهود أدركوا إلى اليوم ما المقصود من إنشاء « منزل قومى » لليهود فى فلسطين .

ومن لم يدرك القصد يضل السبيل .

فالباب الثانى الذى نقترح ولوجه - دخوله - فى الدعاية الدولية لقضية فلسطين فى الوقت الحاضر، هو إبراز كل ما يجافى الأوضاع السياسية الدولية والمحلية المألوفة فى بدعة « المنزل القومى » .

وربما كان خير الوسائل لإبراز الغرابة والاستنكار فى ذلك هو افتراض إيجاد « منازل قومية » لشعوب غير الطائفة اليهودية فى بلد غير فلسطين، مثل إيجاد منزل قومى للأرمن، ومنزل قومى للبولنديين المشتتين، ومنازل قومية للاجئين السياسيين فى شتى بلاد العالم .

وكلما أكثرنا فى دعايتنا - على الوجه الذى سنبينه فيما بعد - من ضرب الأمثلة المحلية ، أبرزنا ما فى نظرية « المنازل القومية » من غرابة لا تستسيغها الأوضاع الدولية أصلاً ، فى غير فلسطين ، فلا يستساغ ، بالقياس ، إيجادها فى فلسطين ذاتها .

بدعة الروابط التاريخية

والبدعة الثالثة التى أتى بها القرار الذى أصدره مجلس عصبة الأمم فى ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٢م هى الإقرار بوجود « رابطة تاريخية » بين الشعب اليهودى وبين فلسطين ، تدعو إلى إعادة تشييد منزلهم القومى فى هذا البلد . ونورد فيما يلى العبارة الواردة فى النص الإنجليزى لقرار المجلس :

“ Whereas recognition has thereby been given to the **historical connection** of the Jewish people with Palestine and to the grounds for reconstituting their **National Home** in that country.

ولما كانت هذه الفقرة الموجزة تتضمن البدع الدولية الثلاث التى كانت السبب المباشر فى نكبة فلسطين ، وكنا ، كما أسلفنا ، فى مجال لكل حرف فيه معناه ومراه . نورد فيما يلى النص الفرنسى الرسمى للقرار المذكور :

Considerant que cette déclaration complete la reconnaissance des **liens historiques** du peuple juif avec la Palestine et des raisons de la reconstitution de son **foyer national** en ce pays..”

هذه البدعة الثالثة - ألا وهى بدعة « الروابط التاريخية » - لا تقل خطورة عن السابقتين ، وإذا توسعنا فيها ، هدمنا من أساسه الاستقرار الدولى القائم الآن .

فشعوب الأرض كثيرة الرحيل ، وهناك علم ، قائم بذاته ، لا غرض له إلا تتبع توارىخ رحيل الشعوب ، وتيارات الهجرة على مر الأجيال ، من بلد إلى بلد .

ويقولون اليوم إن أعظم مدينة إيرلندية هى نيويورك . وأعظم مدينة يونانية هى نيويورك ، وأعظم مدينة إيطالية هى نيويورك أيضاً . ولا شك فى أن سلالة المهاجرين اليونانيين والإيطاليين والبولنديين والهولانديين يبلغ عددها أضعاف

عدد أهل هذه البلاد المستقرين فيها حالياً. كما أن سلالة اليهود فى العالم يبلغ عددها بلا جدال أضعاف أضعاف عدد الأجداد اليهود الذين أرحلهم الرومان عن فلسطين منذ ألفى سنة.

إلا أن المهاجرين، مهما تكن بلادهم الأصلية، قطعوا بينهم وبينها، عند رحيلهم عنها، كل الروابط السياسية التى كانت تربطهم بأوطان مولدهم.

وفى البلاد التى قصدوا إليها تجنسوا بجنسيتها، وتكلموا بلغتها، واندمجوا فى مجتمعتها، وتزاوجوا من أبنائها، حتى ضاعت معالمهم الذاتية فأصبحوا فى مصاف غيرهم من المواطنين، وكلهم على قدم سواء.

هذا ما فعله المهاجرون الأسبانيون والإيطاليون واليونانيون والإيرلنديون والاسكندنافيون والبريطانيون والهولنديون الذين منهم تكونت أغلب الأمم الأمريكية.

كذلك بالذات فعل الفلبسطينيون اليهود فى جميع بلاد العالم.

والفرق الوحيد الذى نراه من الوجهة الدولية بين المهاجرين اليهود وبين المهاجرين غير اليهود، أن اليهود رحلوا عن فلسطين من ألفى سنة بينما أن المهاجرين غير اليهود رحلوا عن بلادهم فى خلال المائتى السنة الماضية.

فإذا قلنا إنه يصح، من الوجهة الدولية، للشعب اليهودى المستوطن فى أوروبا وغيرها، أن يعود إلى فلسطين التى رحل عنها من ألفى سنة استناداً إلى الروابط التاريخية بين الشعب وبلد رحيله، كان لنا أن نقول أيضاً إنه يصح لكل من أفراد الشعب الإيطالى المستوطن فى أمريكا، من مائة سنة، أن يعود إلى إيطاليا رغم أنف سكان إيطاليا الحاليين. وكذلك للشعب الإيرلندى فى أمريكا أن يعود إلى أيرلندا. وللشعب اللبناى فى البرازيل أن يعود إلى لبنان. وللشعب اليونانى أن يعود إلى اليونان سواء أرضى بذلك السكان الحاليون لهذه البلاد أم أبوا. وكل ذلك تطبيقاً للمبدأ المبتدع القائل بوجود رابطة، تدوم إلى أبد الآبدين، بين البلد الذى هاجر منه المهاجرون وبين سلالة هؤلاء المهاجرين.

هذا التوسع المنطقي فى التطبيق يفصح غرابة المبدأ المبتدع، فى خدمة الصهيونية، من وجود رابطة تاريخية بين « الشعب اليهودى » وبين أرض فلسطين - تلك الرابطة المزعومة التى كانت فى مقدمة عوامل نكبة فلسطين.

فالباب الثالث الذى نقترح ولوجه فى الدعوة الدولية لقضية فلسطين، هو باب استنكار وجود روابط دائمة بين الشعوب، والأراضى التى رحلت عنها. والتدليل على أن الأخذ بهذا المبدأ فيه القضاء على الاستقرار الدولى فى العالم أجمع.

فما يسرى على فلسطين يجب عدلاً أن يسرى على غير فلسطين، إذا ما اتحدت الأركان والعوامل. ولن يشعر الرأى العام فى العالم - وعليه كما أسلفنا كل الاعتماد - بالظلم الذى تتضمنه حالة خاصة.

إلا إذا عممت المبادئ، ذاتها التى طبقت فى الحالة التى يضرب المثل بها تعميماً يترتب عليه مساس واضح بالمصالح المحلية الشتى.

الفكرة الصهيونية تجسمت فى سنة ١٨٥٥م

سبق أن ذكرنا أن الصهيونية لم تدخل فى حيز الوجود إلا فى منتصف القرن الماضى - أى بعد رحيل اليهود عن فلسطين بثمانية عشر قرناً، عندما بدأ الصحفى النمساوى « هرتزل » بالدعوة إليها.

وفى سنة ١٨٥٥م، اشترى سير موزيس مونتيقيوره أول ضيعة فى فلسطين، بجوار يافا، ليستغلها مهاجرون يهود، يريدون أن يعودوا إلى أرض الميعاد.

وفى سنة ١٨٩٧م تألفت أول هيئة صهيونية فى العالم.

وفى سنة ١٩٠٠م كون البارون إدموند دى روتشيلد « الجمعية اليهودية الاستعمارية ».

وكل هذه المجهودات لم تفلح إلا فى أن جعلت اثنى عشر ألفاً من اليهود يهاجرون إلى فلسطين، وهذا من سنة ١٨٥٥م إلى سنة ١٩١٧م فانضموا إلى اليهود الفلسطينيين الأصليين، بحيث أصبح العدد الإجمالى لليهود يقارب، فى فلسطين كلها، فى أواخر الحرب العالمية الأولى ثمانين ألفاً.

الظروف التي صدر فيها تصريح بلفور

وفي ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧م صدر وعد بلفور كما قلنا. وجاء مكملاً لسلسلة من الجهود المضنية التي بذلتها بريطانيا العظمى لجعل الجالية اليهودية الأميركية، صاحبة الصول والنفوذ في الولايات المتحدة، تضغط على حكومة الولايات لحملها على الاشتراك في حرب سنة ١٩١٤م - ١٩١٨م إلى جانب الحلفاء، بدلاً من أن تستمر في عزلتها والتزامها الحياد.

ولقد برر المستر لويد جورج هذا التصرف في خطاب له بمجلس العموم البريطاني، في ١٩ يونيو سنة ١٩٣٦م، فقال: « كان يهمنا جداً أن نحصل على معونة مشروعة يمكن الحصول عليها. وقد خرجنا من الاستعلامات التي بلغتنا من كل جهة في العالم، بأنه كان حيويًا بالنسبة لنا أن نحصل على تعضيد الطائفة اليهودية لقضيتنا ».

بذلت بريطانيا إذن ما بذلته من وعد إلى اليهود ليعضدوها في الحرب العالمية الأولى.

وكانت تأمل أن يعضدها - إلى جانب اليهود المقيمين في بلاد الحلفاء - اليهود المقيمون في بلاد الأعداء ذاتها كاليهود الألمان والنمسيويين والمجريين والبلغاريين وغيرهم، على أمل أن يصبحوا في بلادهم ما اصطُح على تسميته - فيما بعد - بالطابور الخامس.

ولما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها فتحت أبواب فلسطين على مصراعيها أمام المهاجرين الصهيونيين.

وإذا بهؤلاء يحجمون عن الهجرة إلى بلاد أجدادهم الأبعدين. ويؤثرون البقاء حيث استوطنوا، هم وآباؤهم، وأجدادهم. حتى إن كبار الصهيونيين أعيتهم الدعاية، في أوساط اليهود، للرحيل إلى فلسطين. واضطروا إلى أن يبذلوا الأموال الطائلة لإقناع بضعة ألوف من اليهود، أغلبهم من المعدمين المتعطلين، إلى أن يقصدوا إلى فلسطين. حيث كفلت لهم، من المساعدات المالية والاقتصادية والسياسية، أبعد ما أثيراً وأوسعها مدى.

ومع كل ذلك ففي العشر سنوات الأولى من عهد الانتداب البريطانى الرسمى على فلسطين - أى من سنة ١٩٢٢م إلى سنة ١٩٣٢م - لم يزد العدد الإجمالى لليهود فى فلسطين، إلا من ثلاثة وثمانين ألفاً إلى مائة وثمانين ألفاً. أى كانت الزيادة، فى المتوسط، عشرة آلاف يهودى فى السنة بما فى ذلك الزيادة الطبيعية بالتناسل فيما بين اليهود. وفى نفس الفترة الزمنية، زاد - بالتناسل - عدد العرب المسلمين فى فلسطين مائة وتسعين ألفاً، أى ما يقرب ضعف زيادة اليهود.

اضطهاد اليهود فى أوروبا الوسطى

ظل إذن اليهود ، فى أوروبا، يجافون فكرة الرحيل عن البلاد التى استقروا فيها من أجيال، للتقصد إلى فلسطين ، تلبية للدعوة الصهيونية، إلى أن أصبحت حياتهم فى موطنهم لا تطاق، على ما نعرضه فيما يأتى :

وليس هذا فى ألمانيا فحسب، بل وفى النمسا وفى تشيكوسلوفاكيا وفى بولندا وفى إيطاليا وفى فرنسا وفى هولندا وفى بلغاريا وفى المجر وفى يوغوسلافيا، وفى بلاد أخرى عديدة.

أما فى ألمانيا، فقد بدأت محاربة اليهود العلنية الرسمية فى أبريل سنة ١٩٣٣م، حيث منع اليهود من مزاولة المهن والفنون. ثم صدرت فى سنة ١٩٣٥م القوانين المعروفة بقوانين « نورمبرج » التى حرمت اليهود فى ألمانيا من جميع حقوقهم المدنية، وأجبرتهم على أن تصبغ أعمالهم وصناعاتهم بالصبغة «الآرية». وفى سنة ١٩٣٧م كان مائة وسبعون ألفاً من اليهود الألمان قد اضطروا إلى الرحيل عن ألمانيا، يهيمون على وجوههم، باحثين عن بلد قد يفتح لبعضهم أبوابه.

أما فى النمسا، فيكفى أن نذكر أن عدد اليهود الذين كانوا ينتحرون يومياً فى فيينا بلغ متوسطه اليومى، فى سنة ١٩٣٧م، خمسمائة انتحار فى اليوم الواحد. وكانت الجمهورية النمساوية يبلغ مجموع سكانها ستة ملايين، منهم نصف مليون من اليهود، أباد الألمان ثلثهم، فى الشهور القليلة التى تلت اكتساحهم النمسا.

وفى تشيكوسلوفاكيا، حيث كان السكان عددهم الإجمالى ١٤ مليوناً منهم نصف مليون يهودى، كان اضطهاد اليهود شديداً منذ معاهدات الصلح فى سنة ١٩١٩م. فقد صدرت قوانين تمنع اليهود من مزاوله أغلب المهن، إلى أن تمكن الرئيس « بنيش » من إلغائها. إلا أن أزمة ميونيخ، وتغليب كلمة ألمانيا فيها، ترتب عليها، فى سبتمبر سنة ١٩٣٨م صدور قوانين جديدة لاضطهاد اليهود، وشددت أحكام هذه القوانين بعد خمسة أشهر. فزال عن الوجود عشر عدد اليهود فى تشيكوسلوفاكيا.

أما فى بولندا، فكان عدد السكان واحداً وثلاثين مليوناً، عشرين من اليهود- وكانت فى «فارسوفيا» وغيرها من المدن البولونية أحياء كاملة لا يسكنها إلا اليهود المحافظون - وكانت كراهية اليهود سائدة فى البلاد من قديم الأزمان. وبلغ اضطهادهم مبلغاً لا يتصوره العقل، عندما اجتاحت الجيوش الألمانية الأراضى البولونية فى سنة ١٩٣٩م ثم فى سنة ١٩٤١م.

وصدر فى إيطاليا « المانيفستو الآرى » فى يوليو سنة ١٩٣٨م وأقره المجلس الفاشستى الأعلى فى أكتوبر، وابتدأت إيطاليا فى اضطهاد اليهود على النمط النازى. إلا أن اليهود كان عددهم قليلا فى إيطاليا، ولم يتحمس الإيطاليون فى اضطهادهم.

وفى فرنسا بدأ اضطهاد اليهود رسمياً منذ عقد الهدنة مع ألمانيا فى ٢٢ يونية سنة ١٩٤٠م، واحتلال فرنسا عسكرياً.

وأصدر المارشال « بيتان » قانونين فى أكتوبر سنة ١٩٤٠م وفى يونية ١٩٤١م، الغرض منهما القضاء على اليهود والمصالح اليهودية فى فرنسا وهى كثيرة. وبلغ اضطهاد اليهود أوجه فى صيف سنة ١٩٤٢م. وكان عددهم يبلغ نصف مليون يهودى فى فرنسا كلها.

وكذلك بلغ اضطهاد اليهود فى هولندا أشده فى يولية ١٩٤٢م. فى عهد الاحتلال الألمانى. فمنع اليهود من مزاوله أية مهنة أو تجارة. ومنعوا من ركوب

«الترام». ومنعوا من دخول المحال العامة. ثم تقرر نفى أغلبهم إلى بولندا. وقد حال انهيار ألمانيا دون تنفيذ ذلك.

أما فى المجر، فكان اليهود فى غابر الأزمان يخضعون لقوانين خاصة مجحفة بهم. وقد ألغيت فى سنة ١٨٦٧م، إلا أن كراهية اليهود بقيت. وعمولوا معاملة شاذة فى عهد بلا خان، ثم فى عهد جومبوس فى سنة ١٩٣٢م. وفى سنة ١٩٣٨م صدر قانونان يحرمان على اليهود تولى الوظائف العامة وأغلب المهن.

ولا داعى لأن نستعرض هنا، بالتفصيل، التشريعات والوسائل التى استعين بها للقضاء على اليهود فى شتى بلاد أوروبا الوسطى. ففىما ذكرناه الكفاية لتصوير الحالة العامة.

هذه كانت دراسة شبه مستفيضة حول فلسطين والصهيونية والمشكلة التى تشغل بال كل عربى والتى تثير رأى العام العالمى فى وقتنا الحاضر والتى تجعل إسرائيل تستخدم كل أساليب البطش والقوة والإرهاب فىلإى متى تنتهى هذه المشكلة وتعيد الحق لهذا الشعب المكافح.

وأثناء وجودى فى المكتبة المركزية لجامعة القاهرة وجدت كتاباً فى غاية الأهمية فى وقتنا هذا، وهو « تاريخ فلسطين » لعمر الصالح البرغوثى وخلبل طوطح. حيث يتناول الكتاب فلسطين منذ بدء التاريخ حتى الاحتلال الانجليزى وظهور الصهيونية على الساحة السياسية فى العالم. فالكتاب موسوعة تاريخية وجعريية لهذه البقعة الغالية فى وطننا العربى، وقد طبع هذا الكتاب أول مرة عام ١٩٢٣م فى مطبعة بيت المقدس.

دُسال الله العون والمغفرة والله المعين.

الأحرار فى ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م

الدكتور محمد زينهم محمد عزب

مقدمة الكتاب

لما رأينا الأمة العربية جادة في بناء جامعتها التي لا تقوم إلا بإحياء تاريخها عمدنا إلى وضع تاريخ فلسطين لما له من الأهمية التاريخية ولأنه يجب على كل إنسان أن يدرس تاريخ بلاده وأمته ثم تاريخ الأمم الأخرى، وقد استطرنا في البحث عن شرقى الأردن وسورية والعراق والحجاز ومصر وما هبط إلينا من الأمم الغربية ليستفيد منه الطالب ويستعين به الأستاذ فلم نفرط في اختصار الحوادث الأجنبية كما أنا لم نسهب في تفصيل أخبار العرب ونفخنا فيه من الروح الوطنية المفرغة في قالب التاريخ الذى كنا نظنه سهل المأخذ قريب التناول فالفينا صعب المرام بعيد المنال تعجز الأفكار عن استجلاء مشاكله وتجمد القرائح فى تدقيق متناقضة لاسيما أن تاريخ العرب غامض لم ينخله الناقدون وقد تخلله فترات من الزمن لم يسجلها المؤرخون ولم تكشفها الحفريات والنقوش فلا جرم أن اشتبه علينا الخطأ بالصواب لرغبتنا فى سرعة إنجازنا لأننا بحاجة ماسة إليه وإنا شاكرون كل من نبهنا لإصلاح أو تكرم بستر عورة فما الكمال إلا لله ونرجو الله أن يجنى مواطنونا منه نفعاً وهو الموفق للصواب

«المؤلفان»

القسم الأول

الباب الأول

**فى تاريخ فلسطين من بدئه
حتى الفتح العربى الإسلامى**

الفصل الأول

فى تاريخها قبل الفتح اليهودى

١ - حدود فلسطين التاريخية والسياسية

ورد فى التوراة عبارة تدل على حدى فلسطين الشمالى والجنوبى وثبتت أنها كانت «من دان إلى بئر سبع». ودان اسم لأحد أسباط اليهود أو إحدى قبائلهم التى سكنت عند تل القاضى الذى ينبع نهر الأردن قريباً منه. وبئر السبع مدينة واقعة جنوبى فلسطين. أما حد فلسطين الغربى فهو البحر المتوسط الذى لا يتغير. وأما الحد الشرقى فمختلف فيه والحقيقة أنه كان يتقلص أحياناً إلى نهر الأردن وأحياناً يمتد حتى الصحراء والخط الحجازى وذلك بحسب الظروف وتقلبات السياسة.

حدودها السياسية الحالية

لم تتم الآن المفاوضات بين انكلترا وفرنسا لوضع الحدين الشمالى والشرقى بين سوريا وفلسطين غير أنه يمكننا أن نعتبر خطأً من رأس الناقورة (وهى نقطة على البحر شمالى عكا يطلب فيها جوازات السفن) إلى شمالى صفد فنجعله حداً شمالياً. والبادية حداً شرقياً كما ورد فى صك الانتداب والبحر المتوسط حداً غربياً. وشمالى الحفير ورفح حداً جنوبياً.

٢ - مساحتها

لا يمكن أن نبت القول فى تقدير مساحة فلسطين لأن حدودها الشمالية والشرقية لم تعين حتى الآن ولو أنا ذرناها من الشمال إلى الجنوب لكانت ٢٤٠ كيلو متر تقريباً. أى أنا إذا سرنا كل يوم ثمانى ساعات وقطعنا فى كل ساعة منها خمسة كيلو مترات نجتازها من الشمال إلى الجنوب فى ستة أيام. على أن القطار يستطيع أن يطويها فيما بين ٧ أو ٨ ساعات ويتراوح عرض فلسطين ما بين ١١٠ كيلومترات إلى ١٦٠ فهو على ذلك نصف طولها تقريباً أما مساحتها فتساوى ثلث مساحة سوريا الممتدة من جبال طورس حتى رفح ومن البادية إلى البحر المتوسط.

٣ - أسماؤها

كانت فلسطين ولا تزال جزءاً من سوريا لا يفصلها عنها حد طبيعى ولا يبعدها عامل جنسى أو تاريخى لذلك لم يفرد لها المؤرخون اسماً مستقلاً بل كانوا ينسبونها إلى الشعوب والقبائل التى سكنتها وأهم أسماؤها التاريخية هى:

(أ) أرض كنعان: وهذا أول اسم سميت به نسبة إلى الكنعانيين الذين هم أسرة سامية. وكانت فى عصرهم تشمل جزءاً كبيراً من سوريا حتى حمص وحماه.

(ب) فلسطين: أطلقت اليونان والرومان هذا الاسم عليها نسبة إلى سكانها الفلسطينيين الأقدمين الذين لم يتوطنوا إلا الساحل ما بين يافا وغزة وكانت «فلسطين» لا تشمل سوى هذه البقعة الضيقة فقط ولبقاعها الأخرى أسماء خاصة بها. فيظهر من ذلك أن تسمية جميع البلاد بفلسطين هو من باب تسمية الكل باسم الجزء.

(ج) أرض الميعاد: سماها اليهود أرض الميعاد زعمًا منهم أن الله وعدهم بها فى أيام إبراهيم وفيما بعد ذلك أيضاً. وقد امتازت - افتترقت - علماء التوراة فى

ذلك فرقتين: فرقة تقول إن النبوات تمت وانقضى زمنها. وفرقة تقول إن الله سيعطي البلاد لليهود بعد أن يتنصروا.

(د) الأرض المقدسة: يسميها مسيحيو الغرب بهذا الاسم لتقدسها بمن ولد فيها وزارها من الأنبياء والرسل والمصلحين. وكذلك دعا المسلمون «إيليا» القدس وبيت المقدس لأنها مهد الأنبياء ولأن النبي أسرى به إليها ليلاً.

٤ - تأثير موقعها الجغرافى على تاريخها

إن عِلْمَ التاريخ والجغرافيا صنوان متلازمان وتوأمين لا يستغنى أحدهما عن الآخر. ومن تغلغل في البحث وتأمل في تأثير المناخ على طبائع السكان أمكنه استنتاج فوائد جمة ومنافع ذات قيمة واتضح له أن سكان المناطق الحارة كانسودان وغيرهم يغلب عليهم الخمول والجمود فيظلون سحابة نهارهم نائمين في ظل نخيلهم وأجواف كهوفهم خلافاً لسكان المناطق الباردة الذين يقضون أوقاتهم في الجد يخوضون غمار العمل بنشاط لا مثيل له بين أبناء المناطق الحارة. وكما أن للمناخ تأثيراً على طبائع السكان كذلك للموقع الطبيعي علاقة كبرى في تاريخ الأمم والأفراد وتطورهم. فمصر لولا النيل لكانت صحراء مجدبة ولما أشرقت عليها شمس هذه المدينة الزاهرة. وتجارة نيويورك العظيمة لم تتسع ويحكم بناؤها إلا على أساس موقعها الجغرافى. ولولا ما لموقع القسطنطينية من علو الشأن لما طمعت فيها الدول وتاقت إليها نفوس الفاتحين. ولقد كان موقع انكلترا في جزيرة من أكبر العوامل التى جعلتها تعتنى بشأن بحريتها حتى أصبحت ذات أسطول ضخم ملكت به البحار وكانت به الدولة البحرية.

وهكذا فلسطين فإننا لا نفهم تاريخها جيداً إلا بعد أن نعرف موقعها الجغرافى وحالتها الطبيعية ولذلك نقول: فلسطين إقليم صغير واقع فى المنطقة المعتدلة الشمالية بين بحرين كبيرين الأول الرملى فى شرقها والثانى المائى فى غربها. بل هى جسر بين آسيا وأفريقيا وأوروبا وطريق عمومى لسكان وادى النيل ودجلة - مهدى مدينة العالم القديم - بل خط اتصال بينهما ولذلك كان كلاهما

ينزع لإخضاعها كي يجهز على خصمه ويأمن من شره وغاراته. هي محطة بين الشرق والغرب تتنازع عليها الأمم القديمة والحديثة كي تسيطر على طرق التجارة. كانت ولا تزال ساحة حرب وميدان قتال للدول القديمة والحكومات الحديثة. فكم من قائد ظفر في سهولها وآخر سقط جيشه أسيراً وخر قتيلاً أو هزيمًا. فكانها ساحة أعدت لمبارزة القواد والعظماء أمثال: نبوخذ نصر وصحوتيميس^(١) (طتميس) والاسكندر وبومبي ويوليوس وأوغسطس وتيطس وكسرى وأبو عبيدة وصلاح الدين وقلب الأسد والسلطان سليم الأول وبونابارت وإبراهيم باشا وليمان فون ساندرس باشا واللتبى نسل إليها الجنود من آسيا وأفريقيا وأوروبا وأميركا واستراليا وزيلاندا الجديدة فكانت مسرحاً يمثل فيه أجناس البشر بلباسهم الوطني رواية عالمية. فالفلسطينى الذى لم يخرج من بلاده شاهد سكان الكرة الأرضية من غير أن يركب لذلك الأهوال أو يتحمل المشاق والمصاعب كأنه طاف الأقطار.

تعاقب فى توطن فلسطين والحكم عليها جميع أجناس البشر من سامى ومغولى واريانى ولم تقطنها أمة واحدة بل كانت فى سائر أدوارها إما مندمجة فى سوريا أو ملحقة بمصر. ولئن استحال عليها فى الماضى أن تكون بلاداً مستقلة لموقعها الجغرافى وصغر مساحتها وتخالف سكانها. فستكون فى مقبل الأيام كذلك إما متصلة بمصر أو مرتبطة بالعراق. والماضى مرآة الآتى وهو أشبه به من الماء بالماء.

٥ - سكانها

إن جميع التواريخ القديمة مظلمة فلا يعول عليها ما لم يؤيدها العقل والعلم والحفريات والآثار وأقدم تاريخ لفلسطين يبتدئ من ٣٥٠٠ ق.م. بشهادة الحفريات المكتشفة أخيراً فى جازر «أبو شوشة» وهى قرية قرب

(١) هذا على حسب اللفظ السامى القديم. وأما الشكل «طوتيميس» فهو مأخوذ عن التجريف الأفرنجى.

الرملة وقد قام بهذه الحفريات بين سنة ١٩٠٢م و ١٩٠٥م جمعية إنكليزية The Palestine Exploration Fund يرأسها الأستاذ مكالستر MacAlister وذكر هذا الأستاذ أنه قد سكن فلسطين قديماً أقوام غير ساميين وبرهن على ذلك بما نظقت به الآثار وشهدت له الرسوم والأحجار.

وتلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

وهذا ما استنتج من الآثار المذكورة:

- ١ - كان سكان جازر (أبو شوشة) قصار القامة يتراوح طولهم ما بين ٥ أقدام و ٤ بوصات و ٥ أقدام و ٧ بوصات.
- ٢ - كانوا من أبناء العصر الحجري فزاولوا زراعتهم وجميع أعمالهم وحربهم بأدوات صوانية كالقأس والمنجل والحراب.
- ٣ - دجنوا الحيوانات الأهلية كالبقرة والماعز والخراف والخنزير وربوا هذه الحيوانات في مغاورهم.
- ٤ - كانوا يقطنون الكهوف التي لا تزال موجودة حتى الآن ولكن بعد ألف سنة من ذلك العهد أي سنة ٢٥٠٠ ق.م تدفق على فلسطين سيل عرم من سكان العراق وأواسط جزيرة العرب فنزلوا بها وعمروها وشادوا فيها المدن وهانحن أولاء نقص نبأ أهم الشعوب التي سكنت فلسطين.

(١) الكنعانيون

هم قبيلة سامية نزحت من جزيرة العرب واوت فلسطين وكانت لغتهم القومية اللغة العبرانية التي اقتبستها أمة اليهود منهم بعد أن تركت لغتها. وكانت مساكن الكنعانيين الأولى في منخفضات الأرض ولذلك سموا كنعانيين لأن معنى «كنعان» في لغتهم الأرض المنخفضة. وكانت بلادهم واسعة الأطراف يحدها شمالاً مدخل حماه شمالي لبنان وشرقاً بادية الشام وجنوباً بادية العرب وغرباً البحر المتوسط عكفوا على الزراعة والتجارة زمناً طويلاً حتى أتت إليهم اليهود فحاربتهم وتغلبت عليهم واحتلت مدنهم المسورة. ولأن ديانتهم كانت وثنية

حرمت اليهود التزوج منهم والامتزاج بهم. وكثيراً ما ورد ذكر الكنعانيين فى التوراة. قال فى سفر التكوين ص ٣ : ١٧ إن الكنعانيين سكنوا فى البلاد وإن إبراهيم سكن معهم. وقد ورد أيضاً فى التوراة ذكر حروبهم مع اليهود فى أريحا وجبعون وبيت آيل ولكن اليهود لم تستأصلهم فمنهم من ذهب إلى الشمال ومنهم من بقى فى البلاد فسيطت - مزجت - دماؤهم فى عروق السكان وتمثلوا فى سواهم من الأمم الأخرى.

وقد وجد فى الكرنك أسماء ١١٩ مدينة من المدن الكنعانية التى احتلها صحتيمس فرعون مصر حين غزا البلاد وانتصر على أعدائه ومن هذه المدن صور ويافا وعكا.

(ب) الحثيون

قبيلة انفصلت من تركستان نحو سنة ١٧٠٠ ق.م. وانهالت على فلسطين وهم فرع من شجرة مملكتهم المؤسسة فى شمالى سوريا وآسيا الصغرى. وكان عاصمة الحثيين «ختي» التى تسمى اليوم «بوغاز كوى» وحارب الحثيون فراعنة مصر ويؤيد هذا القول ما شوهد من النقوش والرسوم المحفورة على الأعمدة فى هيكل الكرنك فى مصر. وقد حاربهم رمسيس ١٤ سنة فلم يتمكن من إخضاعهم ولذا اضطر إلى محالفتهم أما الملك ستى الثانى فإنه حاربهم وقهرهم.

والحثيون الذين سكنوا فلسطين هم بقايا أولئك الذين حاربوا المصريين فأتوا وسكنوا بين القدس والخليل. وامتد ظلهم زمناً إلى بيت آيل ونابلس. وذكر أن إبراهيم اشترى مغارة المكفيلة (حرم الخليل وقبور الأنبياء) من الحثيين ودفن فيها زوجته ساره وبعض بنيه وأحفاده. وأنهم أنجبوا بعضاً من العظماء مثل أوربا الحثى الذى كان ذا بأس فى جيش داود.

(ج) اليبوسيون

جل ما نعرفه عنهم أنهم سكنوا القدس ولكن لم يعرف أصلهم حتى الآن. وقيل: إنهم بطن من الكنعانيين. وكانت القدس تدعى قديماً يوس فلعلهم سمو اليبوسيين نسبة إليها. ولما جاء اليهود من التيه بقيادة يوشع بن نون واحتلوا

البلاد حاولوا استملاك القدس فعجزوا عنها وظلت فى أيدى اليبوسيين إلى أن حاربهم دود فحاصروهم وهدم أسوارها ودخلها عنوةً وجعلها عاصمة ملكه وضرب على اليبوسيين الجزية حتى أيام سليمان. وقد ذكر فى التوراة أن داود اشترى بيدر أرونة اليبوسى (ساحة الحرم الآن) ليبنى هناك هيكلًا فلم يتوفق غير أن ابنه سليمان أنجز هذا العمل. ومن ملوكهم أدونى صادق وملكى صادق.

(د) الفينيقيون

هم فرع من الأقوام الذين سكنوا فلسطين وأبوا الخضوع لغيرهم من الشعوب القوية التى هاجمتهم فظلوا يقاومونهم. ولما عجزوا عن حماية بلادهم وعز عليهم الاستسلام والطاعة لأعدائهم انسحبوا إلى الشمال وكانوا يترقبون الفرص لاسترجاع منطقتهم واستخلاصها فكانوا فى ذلك مع العبرانيين كالأسبانيول مع العرب حين هاجمهم العرب فاعتصموا بالجبال وظلوا ينتهزون الفرص حتى سنحت فانقضوا على أخصامهم واستعادوا ملكهم غير أن الفينيقيين لم يفوزوا كالأسبانيول فى نهاية أمرهم. أما الفينيقيون فإنهم وإن لم يسكنوا فلسطين فقد كانوا من بقايا أهلها وتاخموا حدودها وأثروا على تاريخها. وقد ظهر فى نقوشهم المكتشفة حديثًا أنهم كنعانيون لذلك حق لنا البحث عنهم لما لهم من الشهرة الفائقة والذكرى الحميدة فى العصور الأولى ولأنهم كانوا شعبة من الأمة السامية ولغتهم شقيقة لغتنا بشهادة نقوشهم وحروف مجاثمهم. ولا ريب أنهم كانوا أعظم وأشهر الأمم القديمة التى سكنت سوريا وفلسطين مع أنهم اكتفوا بالساحل ما بين طرابلس الشام وحيفا. ومن أهم مدنها صور وصيداء وبيروت وطرابلس. وقد كان الفينيقيون وملكهم حيرام حلفاء سليمان فعاونوه على بناء الهيكل ونقلوا إليه الخشب من حراج لبنان عن طريق البحر إلى يافا. وكان لهم مهارة فائقة فى البناء «المعمار» والصناعة التى كانت مفقودة عند اليهود وتزوج آخاب ملك إسرائيل ايزابل الفينيقية رغم نواهى دينه وإرادة شعبه إذ كان محرماً عليهم أن يخالطوا سواهم لأنهم شعب الله الخاص على زعمهم وهذا لعمرى منتهى التعصب الجنىسى. فرغبة الملوك فى محالفتهم ومصاهرتهم دليل بين على عظمتهم وارتفاع

شأنهم. ولقد ورد ذكرهم في إنجيل مرقس عند قوله إن امرأة فينيقية طلبت من المسيح أن يشفى ابنتها.

تجارتهم: كانت بلاد فينيقية حلقة اتصال بين قوافل العراق والشام ومصر ولذلك كان أهلها دعاة المدنية المصرية والسبب الأقوى في نشرها ونقلها إلى جميع الأقطار التي ذهبوا إليها. ولأن بلادهم كانت ضيقة يكتنفها البحر من الغرب والجبال من الشرق لذلك اضطروا إلى مزاولة التجارة فخاضوا من أجلها لجج البحار واقتحموا الأهوال والأخطار وكان ذلك عليهم أمراً هيئاً لأنهم جاوروا البحر وعرفوه - وأجرأ الناس على الأسد أكثرهم رؤية له - وقد تدرجوا في أسفارهم البحرية من جزيرة أرواد إلى قبرص ورودرس ومصر والأرخبيل الرومى واليونان وشمال أفريقيا ومرسليا وأسبانيا وإنكلترا. وأسسوا مستعمرة عظيمة في شمال أفريقيا (قرطج) التي زاحمت رومية وهددت كيائها أما صناعتهم فكثيرة أهمها الزجاج الملون والأرجوان والنحاس. وأما خدمتهم للمدنية فمنها نشر الحروف الهجائية التي أعطوها لليونان فتداولوها بينهم ثم وزعوها على الأمم الأوروبية. ومنها اختراع المقاييس والعيارات للوزن. وكانت ديانتهم وثنية منحطة ومن آلهتهم «بعل» و «عشتاروث» و «مولوك» التي كانوا يذبحون لها أولادهم ويقدمونهم لها قربانين.

(هـ) الفلسطينيون

من الواجب علينا أن نعرف تاريخ الفلسطينيين أكثر من غيرهم لأننا ورثنا اسمهم وامتلكنا بلادهم ووطنهم فرأينا لذلك أن نسهب في ذكر تاريخهم إسهاباً لا يمله القارئ ولا يشف كثيراً عن جمود ذلك العصر المظلم فنقول:

ليس الفلسطينيون من أسرتنا السامية وإنما هم من الشعب الأريانى وعلى الغالب أنهم قدموا بلادنا من جزيرة كريت عن طريق آسيا الصغرى «الأناضول» أو عن طريق مصر عندما قاتلهم رعمسيس وقهرهم وأسكنهم الساحل ما بين يافا وغزة ولما عظم شأنهم حاربوا مدينة صور وهدموها ومن مدنها العظيمة غزة

وأسدود وعسقلان وعقرون «عاقرون» وجث. وكانوا وثنيين يعبدون الأصنام والتماثيل وكان عندهم صنمٌ يدعى داجون نصفه الأعلى شبه إنسان والأسفل كالسمكة وكان له هياكل كثيرة فى أسدود وغزة وعسقلان وبيت دجن التى سميت باسمه وهى بقرب يافا ولعل مجاورتهم البحر هى التى جعلتهم يرجحون عبادة الأسماك على سواها من معبودات الوثنيين.

دخلوا البلاد واستولوا على غربها وجنوبها بعد مجىء اليهود بستين سنة وقد تنازعت الأمتان البلاد واستمرت بينهما الحروب سنين عديدة وكانت اليهود تستطلع أخبار الفلسطينيين من جبل النبى صمويل الواقع [على بعد ٧ كيلومترات من شمال القدس الغربى] وترقب من السهل سائر أعمالهم ولم يقو فريق منهما على إخضاع الآخر فاستطال الخصام واستفحل الشر وغرست البغضاء فى النفوس وحقد الفلسطينيون على أعدائهم وحاربوهم فى عقر دارهم «مرج ابن عامر» وهزموهم هزيمة منكرة حتى إن شاول ملك اليهود من شدة غيظه قتل نفسه على جبل جلبوع شرقى مرج ابن عامر قرب جنين فأخذ الفلسطينيون جثته وجثة ولده يوناثان وعلقوها على أسوار «بيسان» فى الغور شرقى المرج.

ظهر من الفلسطينيين جبايرة منهم جليات «طالوت» الذى قتله البطل الفتى داود بحجر من مقلعه قبل أن يكون ملكاً أو نبياً. امتدت المشاحنات بين الأمتين وظهر شمشون أحد قضاة بنى إسرائيل فحاربهم وأزعجهم ولكنهم أخيراً أسروه وقتلوا عينيه وحبسوه حتى مات فى غزة وقبره هناك معروف تحول إلى جامع شرقى المدينة ويقال له «أبو العزم شمشون الجبار».

امتزج الفلسطينيون بغيرهم فانقروا وتحولوا كما تحول سواهم من الأمم الغابرة إلى أجناس وعناصر أخرى أما اليهود فلكونهم عاشوا منفردين معتزلين الأمم الأخرى وحرمو التزاوج مع غيرهم وحافظوا على جنسيتهم الأصلية بحرصهم على قواعد الدين ظلوا إلى يومنا هذا منتشرين فى سائر أقطار الكرة الأرضية يحنون إلى فلسطين ويطلبون الرجوع إليها كما ورد فى شعر ابن اللادى الأندلسى الذى كانت روحه تطير من الأندلس على أجنحة أشعاره وترفرف فوق صهيون

وفلسطين قبل ٨٠٠ سنة. ومن أعجب الحوادث التاريخية أنهم يطلبون الرجوع إليها والتوطن فيها بعد أن تركوها ١٩ قرناً وما ندرى ماذا يكون جواب الأمم التي سكنت فلسطين قبل اليهود وبعدهم إذا استشرناهم فى أمرها وسألناهم عمن هو الأحق. والبحث عن الفلسطينيين بحث واسع ومن أراد التفصيل فى ذلك فليراجع كتابى الأستاذين جورج آدم سميث ومكالستر فإنهما قد وفيا هذا الموضوع حقاً.

(و) القبائل الأخرى

١ - الأدوميون: أولاد عيسو بن إسحق وكانت منازلهم جنوب البحر الميت كانوا قبائل وقرناً وقد حاول شاول أن يتغلب عليهم فى القرن العاشر ق.م. فلم يحل بطائل. ولما تولى داود أخضعهم واحتل بلادهم وجعل عليها حامية من جنده فهم أحد قوادهم فى عصر سليمان أن يخلع الطاعة فلم يفلح وظلوا تحت سيطرة الإسرائيليين إلى أيام يهوذاشافاط فمالأوا أعداءه وأعانوه على حربه ولما حمل نبوخذ نصر على أورشليم أعانوه على نهبها وذبح أهلها فكافأهم وأيد سلطتهم فى أدوم ووسع حدودها من تخوم مصر حتى البحر المتوسط فذاهمهم الأنباط «العرب» وملكوا بلادهم وكان بذلك انقراض ملكهم ودولتهم. ومن مشاهيرهم ميروودس الأدومى حاكم فلسطين ومساعد الرومان فى تأييد نفوذهم أيام المسيح وقد لعب دوراً هاماً فى التاريخ كما سيأتى.

٢ - المؤبليون : من أبناء لوط ومنازلهم بين نهر أرنون (الأزرق) وتبوك وعربيات قبالة أريحا التى استولوا عليها فوضع سبط بنيامين الجزية عليهم مدة ١٨ سنة فى زمن ملكهم الذى قتله آهود.

٣ - العمونيون : من ذرية لوط نسل ابن أعمى ومساكنهم فى جهة السلط وعمان والزرقاء.

٤ - العماليق : كانت مواطنهم صحراء سينا بين المصريين والفلسطينيين والكنعانيين ومن ملوكهم كدرلومر وهم القوم الجبارون الذى حاربوا بنى إسرائيل

وتغلبوا على جدعون وشاول حتى امتدت سلطتهم إلى جوار نائلس ولم يكن لهذه القبائل حكومات منظمة أو إدارات مرتبة بل كانوا أشبه شىء بقبائل جنوبى فلسطين وشرقى الأردن مثل الترابيين والقيماها والعزازمة والجباريات والعدوان وبنى صحر والحويطات وغيرهم. فكانت كل قبيلة تلتف حول شيخها وهو الحاكم والقاضى والقائد وقد عنوا بأمر الزراعة وتربية الماشية وشن الغارة والسلب والنهب ولم يكن لأحد سلطان عليهم ولا دين لهم يرجعون إليه، فالقوى يأكل الضعيف، ومن شعر بمعجزه وآنس فى خصمه القوة اضطر أن يتخذ له حليفاً ليتقوى به شأن القبائل البدوية فى يومنا هذا.

٥ - الأنباط : وهم أمة عربية جرفت بقايا الأدوميين وأسست ملكاً فى وادى موسى وقد غزاهم انطيوخوس سنة ١٣٢ ق.م فارتد مخذولاً ولما حاصرهم ديمتريوس أطلّ عليه أحدهم وخاطبه قائلاً: (لماذا تقاتلنا ونحن مقيمون فى بادية أتحاربوننا لفرارنا من الرق)؟ فانسحب ديمتريوس برجاله وشيدوا حكومة منتظمة بملوك ووزراء وضربوا النقود. من عظماء ملوكهم الحارث الثالث الذى تغلب على البقاع بسوريا وملك دمشق سنة ٨٥ ق.م وساعد هركانوس المكابى على أخيه ارستوبولس.

والحارث الرابع: وهو حمو هيرودس انتيباس الذى حارب الحارث لتزوجه على ابنته وكانت ابنة الحارث تحب هيرودوس فتزوج عليها زوجة أخيه هيروديا ابنة استوبولس فشق ذلك عليها وذهبت إلى بيت أبيها الحارث وذكرت له الخبر فاستشاط غضباً وحارب هيرودوس فانتصر عليه انتصاراً كبيراً ولم ينج هيرودوس منه إلا بالفرار. وقد امتدت مملكة الأنباط حتى شملت من الغرب جزيرة سينا ومن الشرق حوران وحدود العراق وبلغت من الجنوب وادى القرى. وظلت بلادها مركزاً تجارياً بين جميع الأقطار المعمورة وكانت وسائل النقل موفرة لديها كالسكك الحديدية الأوروبية والأميركية فى القرن العشرين وأخيراً

حمل عليهم الإمبراطور تراجان فبدد شملهم وقضى على مدنيّتهم سنة ١٠٦م فاندمجوا فى غيرهم وأصبحوا أثرًا بعد عين. ومن أعظم مدنيّهم بطرا وبصرى واذرع وجرش والكرك والشوبك وإيله والحجر وصلخد ومادبا ودمشق.

وعدد ملوكهم ١٨ منهم عبادة الأول، عبادة الثانى ومالك والملكة خلد، الملكة شقيلة، ريبال، الملكة جميلة. وهذا مما يثبت أنه كان للمرأة فى العصور الأولى مثلما كان للرجل من الحقوق والواجبات.

الفصل الثانى

اليهود فى فلسطين

٦- الدور القبائلى - أودور البداوة :

اليهود قبيلة سامية هاجرت من العراق (اورالكديين) سنة ٢٠٠٠ ق.م برئاسة إبرام الذى صار نبياً وتسمى بعدئذ إبراهيم. ساروا فى الطريق التى يسلكها اليوم المسافرون بين العراق وسوريا شمالى نهر الفرات حتى وصلوا شمالى سوريا ثم انعطفوا إلى الجنوب حتى انتهوا إلى أرض كنعان (فلسطين) وكان إبراهيم يرتاد البقاع الخصبة ليرعى ماشيته وقد ورد ذكره كثيراً فى الكتاب المقدس وقدم ابنه إسحق ذبيحة - على رأى التوراة وعلماء المذهب الحنفى - على جبل موريا مكان الحرم الشريف الآن.

أما مدينة حبرون فقد أهمل اسمها القديم وسميت بالخليل نسبة إلى إبراهيم الذى دعى خليل الله لأنه سكن هناك واشترى مغارة المكفيلة (حرم الخليل) وفى الجنوب الغربى من المدينة قرب قرية الظاهرية واد كبير ومرعى واسع يقال له (وادی إبراهيم) يزعمون أنه كان يرعى مواشيه فيه ولا يزال حتى الآن وفقاً لتفوق غلته على وظائف الحرم الخليلي.

ولد لإبراهيم ابنان إسماعيل من جاريته هاجر وإسحق من زوجته سارة التى كانت من قومه العراقيين فولد لإسحق يعقوب الذى دعى بعدئذ إسرائيل وأصبح اليهود ينتسبون إليه ويعتقدون أنهم تحدروا من صلبه.

خلف يعقوب ١٢ غلاماً فاضطرتهم مجاعات فلسطين المتوالية لانتجاع مصر ملتجئين إلى حوض نيلها الخصب حيث استعبدتهم هناك الفراعنة غير أن النقوش والألواح المصرية أغفلت خبر الإسرائيليين ولم تذكر عنهم شيئاً كما أن كثيراً من

نقذة التاريخ أغفلوا ذلك أيضاً وأنكروا ذهاب بنى إسرائيل إلى مصر ولذلك يجمل بنا ألا نتسرع فى الحكم بل ننتظر ما سيكتشف فى مصر وسورية بالحفريات والآثار عليها تهدينا إلى معرفة الحقيقة والصواب.

ظل الإسرائيليون مشردين إلى أن نبغ منهم موسى فأرسله الله نبياً إلى قومه فأنقذهم من غربتهم وعاد بهم إلى أرض كنعان عن طريق الجنوب الشرقى.

كان موسى نبياً ورجلاً عالماً بل مشرع اليهود الأكبر ومصلح عقائدهم وإليه تنسب الوصايا العشر التى هى مصدر الأخلاق ونواة الأديان وإنا نثبتها ههنا وإن كانت حفريات العراق الأخيرة تدل على أن الشريعة اليهودية وأكثر النواميس مقتبسة من الشرائع الحمورابية لكونها أقدم من موسى وهامى ذى الوصايا المذكورة:

١ - لا يكن آلهة أخرى أمامى.

٢ - لا تصنع تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما.. الخ.

٣ - لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً.

٤ - اذكر يوم السبت أى اعمل ستة أيام واسترح اليوم السابع.

٥ - اكرم أباك وأمك لكى تطول أيامك على الأرض.

٦ - لا تقتل.

٧ - لا تزن.

٨ - لا تسرق.

٩ - لا تشهد على قريبك شهادة زور.

١٠ - لا تشته بيت قريبك ولا شيئاً مما له.

ويظهر من الوصية الأولى أن اليهود أسبق شعوب فلسطين إلى التوحيد وأن موسى أول من قال: (لا إله إلا الله) بخلاف غيرهم من الشعوب العربية والبابلية والمصرية الذين اتخذوا من دون الله آلهة كثيرة ونعتها كل فريق بما يناسب إقليمه وبيئته.

وإذا سلمنا بنص التوراة وأقوال المؤرخ الشهير يوسيفوس نجد أن قائد بنى إسرائيل الذى فتح فلسطين كان يوشع بن نون وهو الذى عبر بجيشه واحتل مدينة أريحا من الكنعانيين. ولكن لا يذهل القارئ ولا يتوهم أن جيش اليهود كان منظماً مدرباً كالفيالق العصرية بل كان أشبه بقبائل ألح عليها القحط وخافت عدواً ففرغت إلى الرحيل وأمت إقليماً آخر تتلمس فيه الحياة لتتقذ نفسها من برائن الجوع والهلاك. ولذلك كانت كل قبيلة من اليهود وقتئذ خاضعة إلى أميرها منقاداً إلى زعيمها على أنهم كانوا كثيراً من الأحيان يترددون على مرشديهم وقوادهم ويتذمرون منهم لما يرونه من وعودهم الخلابه وهذا مما يدل على أن الطبايع البدوية لا تخضع لأحد إلا مكرمة مرغمة.

نعم احتل اليهود فلسطين بحد السيف وبقسوة شديدة ولكن ذلك الاحتلال لم يكن منظماً ولم يستطيعوا أن يبيدوا جميع أعدائهم إذ إن الفلسطينيين ما انفكوا عن مقاومة اليهود حتى أواخر أيامهم وقد أزعجتهم قبائل المديانيين (شعب عربى ورد ذكرهم فى القرآن حيث يقول: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾^(١)) وضيق عليهم مذاهبهم. فيروى عن شيخ يهودى اسمه جدعون أنه كان يدرس قمحه فى المعصرة ليخفيه عن أعين المديانيين ولا يأمن من أن يبقيه فى البيدر. وقد نحت بنو إسرائيل الكهوف والمغاور وبنوا الحصون اتقاء من شرهم وتخلصاً من غاراتهم ومع هذا فلم يظفروا بأمنيتهم إذ إن المديانيين والعمالقة وأهل المشرق كانوا كلما حان الحصاد ينهبون زرعهم ويأكلون ثمارهم.

وقد شدد زعيم الإسرائيليين جدعون فى تحريم المديانيين وفقاً للشريعة اليهودية فلم ينجح وظل اليهود محتكين بهم وتزوجوا بناتهم وتركوا - يهوه - إلههم وعبدوا آلهة البلاد وأصنامها فضعت بذلك الرابطة اليهودية وانحلت العصبة القومية وظلوا قبائل متفرقة فعجزوا عن إبادة الجيران والسكان مع محاولتهم ذلك حتى إنهم جبنوا عن رد هجمات القبائل البدوية التى يمكننا أن نشبهها للقراء بالغارات التى تحدث شرقى الأردن ولا باعث لها إلا أخذ الثأر أو حب الغزو والتغلب.

٧ - عصر القضاة:

كان بنو إسرائيل كلما انتابتهم الصدمات ينبت فيهم رجال عظام (القضاة) فكان الشدائد كانت محكاً لهم تميز منهم الخبيث من الطيب وتظهر من بينهم الرجل العظيم فينتخب قاضياً لسبط ثم يجتمع عليه بعض شيوخ الأسباط فيولونه أمرهم وتبقى الإدارة الداخلية لهم. وحكم القاضى ينقذ فى الجميع ولم يك هذا المنصب وراثياً بل كان منحة تتبارى فى إحرازها الأبطال وربما تعددت القضاة فى آن واحد فيجتمعون ويحاربون أعداءهم. ودامت مدة حكمهم من سنة ١٥٩٥ ق.م - سنة ١٤٢٠ ق.م. وتتميماً للفائدة نذكر هنا بعض مشاهيرهم:

(أ) جدعون: وهو من قرية عفرة وربما كانت طيبة بنى سالم وتبعد عن رام الله ١٢ كيلومتراً لجهة الشرق الشمالى وقد حارب المديانيين وأراح قومه من شرهم (سفر القضاة ص ٦ : ٨٠٧) وحاول أن يجمع كلمة اليهود تحت لواء سلطته إلا أن عراقتهم فى البداوة وفقد شعور الاتحاد والتضامن من نفوسهم جعل ذلك عليه مستحيلاً.

(ب) شمشون : وهو من قرية صرعا الحد الفاصل بين السهل والجبل وهى من بلاد الخليل (العرقوب) واقعة بين القدس والرملة ويمر بها الخط الحديدى. وكان شمشون جباراً ذا بأس وقوة له مواقف مشهورة فى محاربته الفلسطينيين الذين كانوا أخصاماً ألداء لقومه اليهود (سفر القضاة ص ١٣) وينسبون سبب قوته إلى استرسال شعره فإذا طال قوى وإن قصر ضعف ويقال : إنه نزل يوماً إلى اسقلون (عسقلان) وقتل ثلاثين رجلاً فلسطينياً وأخيراً أسره الفلسطينيون ومات فى غزة كما ذكرنا.

(ج) صموئيل : ولد فى قرية الرامة (الرم) التى تبعد ٩ كيلومترات عن القدس لجهة الشمال الغربى وكان كاهناً تولى القضاء سنة ١١٤١ ق.م. على كل أسباط بنى إسرائيل وبقي قاضياً زمناً طويلاً واشتهر بعدله وأصاله رأيه وإصابه

أحكامه وإخلاصه وأمانته وغيرته على مصلحة أمته وهو آخر القضاة وأول من اجتمعت عليه كلمتهم ثم أوحى إليه بالنبوة. وبعد أن مضى عليهم ٤٠٠ - ٥٠٠ سنة أدركوا أضرار التفرقة وعرفوا منافع الوحدة والتضامن فاقتبسوا من جيرانهم وقلدوهم في إدارتهم ومالوا إلى الحضارة ونسوا البداوة فاتحدت أميالهم واتفقوا على أن يقيموا منهم ملكا فطلبوا إلى النبي صموئيل أن يختاره لهم فمسح (تَوَجَّ) شاول وكان يؤنِّبُهُ إذا حاد عن سنة الله وشريعته لأن رئيس السلطة الروحية مسيطر على رئيس الحكومة الزمنية.

(د) دَبُورَة: كثيراً ما قامت النساء بأعمال خطيرة فظلمهن المزرخون وغضوا من شهرتهن ولكننا نذكر بعض من اشتهر منهن فنقول: كانت دبورة فتاة من سبط افرايم ومن سكان قرية عطارة عند بناء المعلوف (بين القدس ورام الله) فكانت تجلس تحت نخلة وتقضى لشعبها ثم صارت نبية وقادت الجيوش لما جبن باراق اليهودى عن محاربة سيرا الكنعانى فجندت عشرة آلاف مقاتل ونهدت بهم إلى جبل طابور شرقى مرج ابن عامر وحاربت الكنعانيين وكسرت جيشهم وبددت شملهم ولقد حجبت شهرتها اسم زوجها لفيدوت حتى أصبح يعرف بها وينسب إليها. إن عمل دبوره هذا لا يقل عن عمل بُوَاديسيا (Boadicia) البريطانية التى حضت قومها ضد الاحتلال الرومانى بل يشبهه عمل جان دارك الفرنسية التى أخرجت الإنكليز من فرنسا ويمائل مجازفة زنوبيا العربية ملكة تدمر التى قاومت سلطة الرومان واستماتت فى حماية بلادها والذود عن ملكها ونظير هؤلاء كثير فى النهضة الإسلامية (فعائشة أم المؤمنين قادت جيشاً عرمرماً وحاربت به علياً فى العراق (وقعة الجمل) ^(١)

(١) الصحيح أن عائشة رضى الله عنها اشتركت فقط فى الجيش ضد على كرم الله وجهه ولم تقم بقيادة الجيش وإنما كانت قيادة الجيش لطلحة والزبير.

والقارعة^(١) أخت الوليد الشاري^(٢) وغزالة^(٣) زوجة شبيب الخارجي^(٤)
وأخت ضرار^(٥).

٨ - اليهود كأمة:

لما دخل بنو إسرائيل البلاد كانوا فرقاً وأحزاباً لا رابطة تجمعهم ولا عصبية
توحدهم بل كانوا مقسمين إلى اثني عشر سبطاً (قبيلة) كل سبط يستمد قوته من

(١) هي القارعة (أو فاطمة. وقيل ليلي) بنت طريف بن الصلت، التغلبية الشيبانية شاعرة من
الفوارس. كانت تركب الخيل وتقاتل رعليها الدرع والمغفر وهي «أخت الوليد بن طريف» الخارجي.
اشتهرت بقصيدة لها في رثائه، تقول فيها.

أيا شجر الخابور مالك مورقاً كانك لم تجزع على ابن طريف

قال ابن خلكان. كانت تسلك سبيل الخنساء في مراثيها لأخيها صخر

(٢) هو الوليد بن طريف بن الصلت التغلبي الشيباني ثائر من الأبطال، كان رأس الشراة في
زمنه. خرج بالجزيرة الفراتية سنة ١٧٧ هـ في خلافة هارون الرشيد وحشد جموعاً كثيرة، وكان
ينتقل بين نصيبين والخابور وتلك النواحي وأخذ أرمينية، وحصر خلاط، وسار إلى أذربيجان ثم إلى
حلوان وأرض السواد، وعبر إلى غرب دجلة، وعاث في بلاد الجزيرة، فسير إليه الرشيد جيشاً كثيفاً
مقدمه يزيد بن مزيد الشيباني، فأقام قريباً منه يناجزه ويحاوله مدة ثم ظهر عليه يزيد، فقتله بعد
حرب شديدة سنة ١٧٩ هـ/ ٧٩٥ م

(٣) هي غزالة امرأة شيب بن يزيد بن نعيم الشيباني الحروري. من شهيرات النساء في
الشجاعة والفروسية ولدت في الموصل وخرجت مع زوجها على عبد الملك بن مروان سنة ٧٦ هـ، أيام
ولاية الحجاج في العراق، فكانت تقاتل في الحروب قتال الأبطال قال أيمن بن خزيمة.

أقامت عزالة سوق الضراب لأهل العراقيين شهراً قميصاً

أي شهراً كاملاً وأشهر أخبارها فرار الحجاج منها في إحدى الوقائع أو تحصنه منها حين أرادت
دخول الكوفة وقد عيره بذلك الشعراء قال عمران بن حطان، تخاطبه.

أسد على وفي الحروب نعمة ربداء تجفل من صغير الصافر

هلا برزت إلى غزالة في الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر

قتلها خالد بن عقاب الرياحي في معركة أبواب الكوفة قبيل غرق زوجها شيب سنة ٧٧ هـ/

٦٩٦ م

(٤) هو شبيب بن يزيد بن نعيم بن قيس الشيباني أبو الضحاك من أبطال العالم وأحد كبار
الثائرين على بني أمية كان دامية طماحاً إلى السيادة. ولد سنة ٢٦ هـ / ٦٤٧ م ومات سنة ٧٧ هـ /

٦٩٦ م

(٥) ورد ذكره في تاريخ الطبري

نفسه فكان يهددهم أعداؤهم الكنعانيون ويبطش بهم الفلسطينيون ويذلهم المديانيون إلى أن علموا وتحققوا أن لا خلاص لهم إلا إذا اتحدوا واشتركوا جميعاً في الدفاع عن كياناتهم وإن لم يفعلوا آل أمرهم إلى القناء والدمار.

هذه حالة طبيعية في الأمم متى رأت كياناتها الاجتماعية مهدداً تتحد كلمتها لدفع الضرر العام الذي يشمل جميع أفرادها فإذا زال السبب العامل رجعوا إلى شيمتهم الأولى.

مرَّ على بنى إسرائيل ٥٠٠ عام والدمر يلقي عليهم عظاته ويعلمهم أن لا قيمة للشعب المتخاذل أمام الجمع المتناسك والمراء مجبور على أن يتطور بحسب زمانه فيكثر في زمن كانت فيه الغلبة للكثير ويتعلم في عصر سادت فيه العلماء ويجمع المال في قرن حظى فيه الأغنياء ففقهوا هذه العظة واتفقوا لأول مرة وطلبوا إلى النبي صموئيل أن يختار لهم ملكاً فمسح عليهم شاول^(١) سنة ١٠٩٥ ق.م أميراً عاماً على جميع إسرائيل وبقي لكل سبط أمير خاص يحكم شعبه خاضعاً للسلطة العليا.

(أ) شاول: كان أول ملوك الأمة اليهودية ولكنه لم يتخذ مركزاً ولم يخطط عاصمة لأن حياته كانت عسكرية وحلقات حروب متصلاً بعضها ببعض فلم تمنحه الأعداء فرصة لتكوين أمته وإحداث لوازمها فكان لا يفرغ من جهة إلا انصرف إلى أخرى ولا يصدر عن غزو قوم إلا غزا آخرين. فحارب العمونيين واستأصلهم ثم قاتل العمالقة والموآبيين والادوميين وخضد شوكتهم وفلَّ حدَّهم. أما الفلسطينيون فكانوا خصومه الألداء الذين قاوموه وجاوزوا حدودهم الساحلية وتوغلوا في البلاد العبرانية حتى قرية مخماس الواقعة شمال القدس الشرقي وألحوا على العبرانيين فهزموا شاول وجيشه في مرج ابن عامر فقتل نفسه خوفاً أن يأسره أخصامه الناقمون عليه. وقد دلت الحفريات الأخيرة في تل الفول أن شاول لم يحكم إلا جزءاً صغيراً من فلسطين.

(١) كان شاول من أصغر أسباطهم وأحط أسرهم وإنما أجمعوا عليه لما كان فيه من الوسامة والجسامة ولأنه كان يفرغ القوم طويلاً واشتهر بالبسالة والاقدام.

(ب) داود: ولد فى بيت لحم وكان له عدة إخوة. رعى الغنم فى حدثته وهى مهنة الأنبياء. فإبراهيم وموسى ومحمد ﷺ رعىوا الغنم وأطلق هذا اللقب الجميل (الرعى الصالح) عَلَى السيد المسيح. فكأن الله يجرب الإنسان برعاية الغنم قبل إرساله نبيًا فإن رآه رؤوفاً أميناً أرسله إلى البشر ولا ريب أن كل راع يحتاج إلى ثقة رعيته التى تطالبه بالإخلاص لها. فإن لم تتوفر فيه هذه الشروط نزعوا منه ثقتهم فعاد بالخسران المبين.

كان داود مخلصاً لرعيته فقتل دباً وأسدًا عَلَى تلال بيت لحم ذباً عن قطيعه. وقتل جليات (طالوت) الجثى زعيم الفلسطينيين دفاعاً عن قومه. وفى إبان فتوته نال ثقة شعبه فكان حاجب الملك (ياوره). وبعد موت شاول انتخب ملكاً عَلَى سبط يهوذا سنة ١٠٥٥ ق.م. وحاربه إيشبوشث بن شاول مع الأسباط العشرة الذين لما أخفقوا فى مبتغاهم انتقضوا عليه وقطعوا رأسه وقدموه إلى داود. وبعد سبع سنين ونصف من حكمه تَوَجَّ ملكاً عَلَى الأسباط كافة وظلت عاصمته الخليل حتى انتزع القدس عنوة من اليبوسيين سنة ١٠٤٩ ق.م. وجعلها مقر حكمته وقضى مدة حياته فى الحرب والكفاح يناضل عن أمته ويصد غارات الغزاة ويسكن القلاقل الداخلية والفتوق العائلية لأن المفسدين أغروا ابنه أبشالوم وأطعموه فى الملك حتى خرج عَلَى والده وحاربه فلاقى جزاء عمله ومات غير مأسوف عليه إلا من أبيه الذى رثاه بشعره الرقيق ونغماته الموسيقية المشهورة. ويقال أن قبر داود عَلَى جبل صهيون فى المحل الذى يسمى (النبي داود) وحارة (الدواحدة) مجاورة لضريحه الشريف. وبعد وفاته مُسح ابنه سليمان ملكاً عَلَى جميع أسباط بنى إسرائيل.

عصر اليهود الذهبى

(ج) سليمان: إن كلمة سليمان مشتقة من سَلَم ومعناها باللغة الكنعانية (المسالمة) ضد المعادى. وبالفعل فإن السلام والأمن سادا طول حياته ومدة ملكه لأن أباه داود كفاه الأعداء بفوزه عليهم وذل له الصعاب فأسلمه الملك سنة ١٠١٥ ق.م. هادئاً ساكناً فقام بأعبائه وحول نظره لتوسيع حدود مملكته وبناء مدينتها

فتجاوزت ما وراء فلسطين. ويقول كتاب اليهود إن مملكة سليمان امتدت (من الفرات حتى حدود مصر). فضخمت دولته وعظم شأنه وعقد معاهدات سلمية مع جيرانه ومن حوله من الأمم.

فإذا قابلنا هذه الحالة بحالتهم فى عهد جدعون لما كان بنو إسرائيل لا يأمنون على بيادهم وكرومهم من غارة أعدائهم عرفنا فائدة الاتحاد والتآزر.

زهت أيام سليمان وأزهت حضارتها فكثرت الأموال المقنطرة فى خزائنه من الجزية من خصومه والضرائب التى أثقلت كاهل أمته فانغمس فى البذخ والترف فنقمت عليه رعيته هذا العمل ساخطة لتلك الشدة التى كانت من أكبر العوامل الأساسية فى انقسامهم إلى مملكتين.

لا ريب أن من أعظم الأسس الاقتصادية لإنماء الثروة هو الأمن الداخلى فإذا استتب أمنت الناس وتنافسوا فى إنتاجها وجدوا فى إحداثها ومن تتبع عصر سليمان عرف أن البلاد كانت آمنة مطمئنة ولذلك كثرت الأغنام والمواشى والحجارة الكريمة والرياش الفاخرة والعاج الثمين ولو لم يكن الإنسان أميئاً لما استكثر من ملذات الحياة وطيباتها.

أرسل الله سليمان نبياً حكيماً وهذه قصة تبرهن على حسن فراسته وفطنته: سكنت امرأتان فى بيت وولدتا فى يوم واحد فاضجعت إحداهما على ابنها ليلاً وأماتته فقامت مسرعة وبدلت طفلها الميت بطفل رفيقتها الحى ولما استيقظت أم الولد وجدت الطفل الذى بجانبها ميتاً ولكنه ليس بابنها فغضبت وخاصمت رفيقتها عند سليمان وبعد أن سمع قصة كل منهما فكر قليلاً ثم قال اثتوى بسيف وأمر بشطر الولد الحى إلى قسمين وإعطاء كل امرأة نصفاً فتحرك حنان أمه وقالت أعطوه لها فإنى سامحتها به فأجاب سليمان أعطوا الولد الحى لها فإنها أمه وأحق به من غيرها. ويروى أن بلقيس ملكة اليمن قطعت الفيافى والصحراء سنة ٩٩٣ ق.م. رغبة فى مشاهدة حكمة سليمان واشتياقاً لرؤية عدله.

وسنة ١٠١٤ ق.م تزوج ابنة فرعون آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين من الدول المصرية وأعطاهما والدها مدينة جازر (أبو شوشة) باثنة العرس (دوطة).

ومن أجل أعماله بناء الهيكل الذى صار مهبط آمال الأمة اليهودية وهو شبيه بالكعبة عند عرب الجاهلية من حيث تكوينه الأمة اليهودية وتوحيدها، فكما ربطت الكعبة العرب بقريش لكونها قبلتهم كذلك شأن الهيكل عند العبرانيين. فوجود أثر مقدس بين ظهرانى أمة يمهد لها الاتحاد وعدم التفرقة.

ولولا المعاهدة السلمية التى عقدت بين اليهود والفينيقيين لما تم بناء الهيكل لأن الفينيقيين هم الذين نقلوا إليه الأخشاب من جبل لبنان وساعدوهم فى إتقان البناء والنقش والهندسة لأنهم وقتئذ لم يكونوا يحسنون من الصنائع النفيسة شيئاً وقد تم بناء الهيكل فى سبع سنوات ويرجح أن أحجاره قطعت من الحجرسمى مغارة سليمان الآن وهى واقعة تحت المدينة إلى الشرق من باب العمود (راجع تاريخ القدس).

ومن آثار سليمان الباقية «اصطبله» الكائن تحت المسجد الأقصى وبرك سليمان الواقعة جنوب بيت لحم وبعض آثار أخرى لا قيمة لها مثل أحجار المكي فكان هذا العصر خير أيام بنى إسرائيل بل واسطة عقد ماضيهم المؤلف من ثلاث خرزات فقط الأولى شاوول والثانية داود والثالثة سليمان وبعد انتظام الخرزة الأخيرة فى القلادة انقطع السمت وتفرقت الكلمة فانقسمت المملكة وانحدروا فى هاوية الانحطاط.

٩ - انقسام المملكة وخرابها

التاريخ يعيد نفسه ولو أيقظتنا مواعظه لما لدغنا من جحر مرتين فإنه ألقى علينا دروساً عملية وأثبت لنا مراراً «أن القوة بالاتحاد والضعف مبدأه الانقسام» ولكننا مازلنا نتغافل عن كل هذا ونؤول الحوادث كما نريد نحن لا كما تريد السنن الطبيعية. وربما يستغرب القارئ كيف انقسمت فلسطين إلى مملكتين مع أنها جميعها أصغر وأقل من أن تكون مملكة واحدة ولكن يزول عجه إذا عرف أن سبطى يهوذا وبنيامين عاشا يعيددين عن أسباط إسرائيل العشرة فاختلقت بينهم مذاهبهم واشتجرت بينهم الضغائن وكان كلما بدرت غنيمة لاسيما عند تعيين الملوك ينضم يهوذا إلى بنيامين ويختارون ملوكاً من أنفسهم فتغضب

إسرائيل لذلك وقد نفروا من شاول لأنه كان من سبط بنيامين وخافوا بطش داود فاستسلموا إليه مكروهين وأذعنوا إلى سليمان لأنه كان إداريًا حكيماً فضبط جميع إسرائيل واخلدوا إلى طاعته وفي أواخر أيامه مقتوا حكمه فقسا عليهم وحاول قتل يربعام بن ناباط ففر إلى مصر معتصماً بالملك شيشق وتربص حتى ولى الأمر رحبعام الذى كان غراً جهولاً و فظاً قاسياً خشناً فعاش الفتيان ونبذ العقلاء المدربين ونكب عن طريق الحق فسألوه تخفيف ما عليهم من الضرائب والإقلاع عن تبذير الأموال فأجابهم قائلاً: إنه سيعاملهم بأشد مما عاملهم به أبوه واستمر على المغالظة والجفاء والشدة إلى أن أكبروا عمله وجاهروا بعدائه فسار شيشق من مصر ونزل على القدس فافتتحها واختلس أواني الهيكل الذهبية وتوج دخيله يربعام ومن ذلك الوقت انقسمت البلاد إلى مملكتين صغيرتين الأولى «إسرائيل» وهى الواقعة فى الشمال من القدس والثانية يهوذا وهى الواقعة بين القدس وبئر السبع.

١٠ - مملكة إسرائيل من سنة ٩٧٥ ق.م إلى سنة ٧٢٢ ق.م.

انشطرت البلاد شطرين فكان أول ملوك القسم الشمالى يربعام بن ناباط الذى كبر عليه أن تخرج القدس من مملكته وهى مهبط آمال اليهود وقبلتهم التى يوجب عليهم دينهم أن يحجوا إليها ثلاث مرات فى السنة وخاف من الحجاج إن هم أبصروا تلك الآثار الفخيمة وآبهة الملك وعظمته أن تنصرف قلوبهم عنه ويضعف إيمانهم به لذلك عزم على بناء مذبح فى بيت ايل لأنه محل مقدس ليرتاح من هذه الأحلام المزعجة ، فيأمن على مركزه ، ويكون قد أرضى بذلك قومه ، وألهامهم.. عن زيارة القدس واشغلهم عن التعلق ببلاد عدوه وهذا العمل يشبه ما جرى لعبد الملك بن مروان فإنه بنى قبة الصخرة أثناء ثورة عبد الله بن الزبير ليستعويض بها مؤقتاً عن الكعبة المكرمة وهكذا رجال السياسة وأربابها إذا ضاقت بهم الأمور بعثوا عاطفة الدين وهزوماً لتنفيذ مآربهم وبلوغ أمنيتهم.

إن يربعام بن ناباط أول من نقل عبادة الأصنام والتماثيل من مصر ووضعها فى الهيكل لأنه انتحل عبادتها أثناء إقامته بينهم فهو مؤسس عبادة الأوثان وبانى حكومة إسرائيل التى تداولها ١٩ ملكاً فى مدة ٢٥٤ سنة ولكنهم لم يكونوا من سلالة واحدة بل من أسر شتى وكثيراً ما كان يخرج عَلَى الملك قائد أو طامع فيختلس الملك منه ويغتصب عرضه ويستبد بالأمة وهذا منتهى الفوضى والخلاف الذى به تنقرض الأمم فإذا قابلنا نظام الحكومة الإسرائيلية بغيرها من الحكومات جاز لنا أن نقول: إنه قام فى المملكة الإسرائيلية تسع حكومات لأن كل ملكين كانا من أسرة واحدة فمتى كان ينقرض بيت الملك الأول وانتقل إلى أسرة أخرى فيكون معدل حكم كل ملك منهم ثلاث عشرة سنة.

وأى عمل أدل على أنهم لا يصلحون للإدارة والسياسة من كونهم لم يجمعوا عَلَى رأى قط بل قضا حياتهم فى الانقسامات والقلقل وفساد النظام. كانت عاصمة إسرائيل «تلوزة» ثم نقلوها إلى شكيم فكانوا يصيفون بها ويشتون فى يزرعيل «زرعين» فلما ولى الملك عمرى أسس مدينة السامرة «سبسطية» وجعلها العاصمة وهى الآن بلدة حقيرة شمالى مدينة نابلس.

لم يكتف اليهود بالانقسام فقط بل طفقوا يناوئون بعضهم بعضاً فمملكة الشمال كانت تجرد جنودها وتهاجم مملكة الجنوب وقد وصلت مرة إلى الرامة «الرام» وحصرت حصنها ولقد بلغ من حقد إسرائيل أن حالفت مملكة آرام فى دمشق عَلَى محاربة يهوذا.

ومما هو جدير بالذكر أن إسرائيل تركوا عبادة الله وصبوا إلى عبادة الأوثان المصرية وأصنام أهل البلاد لاسيما لما اقترن آخاب بالأميرة الفينيقية إيزابيل بنت الملك ايثبعل الصيدونى فإنها شجعت الناس عَلَى عبادة آلهة قومها كبعل وعشتاروث فعبدها واستبدلوا الذى هو خير بالذى هو أدنى إلى أن تلاشت مملكتهم لما عجزت عن رد سيل الملكة الآشورية الجارف التى ابتلعتها لقمة سائفة وهدمت عاصمتها وأسرت رجالها ونقلتهم إلى نينوى فانقرضت مملكتهم سنة ٧٢١ ق. م. بعد أن حكمت قرنين ونصف.

قدماً كان أسلوب الاستعمار يختلف عما هو اليوم فكان الملوك إذا غضبوا من أمة حاربوها فإن ظفروا بها يسبون زعماءها وأغنياءها ومفكريها إلى بلادهم ويستبدلونهم بأبناء مملكتهم حتى لا يمضى نصف قرن إلا اندمج كل من سبى بمن حولهم فيعتنقون لغتهم ودينهم وعاداتهم ويصبحون جزءاً منهم ويكون قد ثبت وأفرع من أرسلهم فتصبح البلاد بلادهم والأهالي شعبهم وهكذا فعل شلمنصر بمملكته إسرائيل فإنه نقل سكانها إلى العراق وأرسل السمرة مكانهم وحذا حذوه «اسر حدون» فلو أنهما نجحا في خطتهما لصارت فلسطين بقعة من العراق. كان السمرة يدعون كوثيين أو كوفيين لأنهم أتوا من الكويت كما روى ذلك الأب انسطاس الكرملى فى المشرق السنة السابعة العدد العاشر وكانت ديانتهم الوثنية ولما سكنوا مدينة السامرة انتسبوا إليها فصاروا سامريين وكان عددهم غير معلوم إلا أنهم يقدرّون بعشرين ألف نفس.

هبطوا البلاد ولم يكن فيها سوى الفقراء فأسسوا أمة قوية وكتلة متينة وقد ثقل عليهم عودة بنى إسرائيل فوشوا بهم إلى ملوك الفرس وعارض رئيسهم سنبط نحميا عندما حاول بناء سور أورشليم.

وقد حاربوا فباسبانيانوس الرومانى فأباد أكثرهم. وبعد ما رجع اليهود من السبى وشرعوا فى بناء القدس وترميم الهيكل قاومهم السمرة مقاومة عنيفة. واشتدت العداوة بين اليهود والسمرة حتى إن اليهودى كان إذا أراد السفر من الناصرة إلى القدس ذهب إلى الغور ومنه إلى القدس كى يتجنب بلاد السمرة الذين أصبحوا نجسين فى نظر اليهود وتظهر هذه العداوة من حديث المسيح مع المرأة السامرية على بئر يعقوب.

وأما السمرة اليوم فلا يزيد عددهم عن مائة نفس يعيشون فى مدينة نابلس ولا يخالطون أحداً؛ وهذا أكبر عامل فى انقراضهم لأنهم يقلّون كل سنة العدد السابق. ويقوم السمرة كل سنة بتقديم ذبيحة الفصح على جبل جرزيم. ويدعون أنهم هم شعب الله الخاص لا اليهود. وديانتهم وكتبهم المقدسة تشبه ديانة اليهود وكتبهم إلا أنها تختلف فى نقط معدودات.

١٢ - مملكة يهوذا من سنة ٩٧٥ ق.م - سنة ٥٨٦ ق.م.

كانت مملكة يهوذا مؤلفة من سبطى يهوذا وبنيامين ولكنهم كانوا أبطالا أشداء فحافظوا على استقلالهم أكثر من إسرائيل بمائة وخمسين سنة وإذا تتبعنا دقائق التاريخ لنتحرى عن أسباب انقراض إسرائيل قبل يهوذا نجدها كثيرة منها :

١ - تقول التوراة إن إسرائيل ترك عبادة الله وانصرف إلى عبادة الأوثان فمجل فى هلاكهم.

٢ - من يدرس التوراة يجد أن سبط يهوذا عرف بالقوة واشتهرت مشاته لوعورة بلاده كما امتازت إسرائيل بفرسانها لسهولة أراضيها ووقتئذ كان على المشاة المعول.

٣ - الموقع الطبيعى : لو قابلنا القسم الشمالى بالجنوبى نرى الثانى أحصن موقعاً وأعسر مسلماً وأمتن للدفاع فالوصول إلى القدس من الشرق أو الغرب أو من الجنوب أو الشمال أصعب بكثير من مجابهة السامرة المفتحة الأبواب والتي يكتنفها من الغرب سهل طول كرم ومن الشمال مرج ابن عامر فكانها كانت محطة سهلة فى طريق الحكومات المصرية والعراقية فى غدوها ورواحها على أن القدس كانت بمعزل ومأمن من كل ذلك فلا يأتيها إلا من يتقصدها.

٤ - تأثير العوامل الاجتماعية والأدبية : امتزجت حكومة السامرة بالأجانب واقتبست عاداتهم ومالت إلى الحضارة فتفرقت وحدتهم وتهدمت جامعتهم واضمحلت مملكتهم وتلاشت قوميتهم.

٥ - إدعاء الكهنة أن الحضارة كفر فسمعوا أفكار العامة وهاجروا إلى مملكة يهوذا وتبعهم خلق كثير فقويت بهم يهوذا وضعفت إسرائيل.

٦ - طمع الزعماء فى العرش وتهجمهم على اغتصابه حتى أصبح سلعة يتناولها القوى ويأخذها القدير فيخلع الضعيف ويحرم الجبان ولا حاجة إلى الإسهاب فى ذكر هذه المملكة لئلا يمل المطالع ومن أراد التفصيل فليراجع التوراة «سفرى الملوك الأول والثانى» فإنهما أتم وأوسع ما ورد فى هذا الباب. كان أول ملوكهم رحبعام بن سليمان وظل بيت الملك ينحدر من هذه الأسرة حتى انقراض

المملكة فتولى منه عشرون ملكاً. وإنما انقادت يهوذا لهذه الأسرة لكونهم ألفوا الحكم وانتخب منها ثلاثة ملوك متتابعة قبل انقسامهم - فالاعتراف بابن ملك مشهور أسهل من الخضوع إلى ملك جديد - قضت مملكة يهوذا معظم أيامها فى الحروب والقتال لأن كل جيرانها عالنوها وناصبوها العداء فلم تك تكثر بهم بل إنها كانت تخشى حكومتى مصر وبابل المتناظرتين والطامعتين فى إخضاع سكان فلسطين الذين لم يكن لهم مناص من اتباع إحدى الدولتين لأهمية موقعهم الطبيعى ولكون الحكومة التى كانت تسيطر عليهم كانت تهدد الأخرى التى لا تقر عينها إلا باستخلاصها من المتغلبين فكان سكان فلسطين إذا انحازوا إلى مصر تغضب عليهم بابل وتغزوهم فتقهرهم وتخضعهم إليها فتحقد عليهم مصر وتسومهم سوء العذاب وهكذا ظلوا ضعفاء لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم فإذا التجأوا إلى دولة سخطت عليهم الأخرى وانتقمت منهم. روى أن الملك آحاز استعان بتغلث فلصر ملك أشور على قريبه وجاره ملك السامرة انتقاماً منه لكونه اتحد مع رامين ملك دمشق لمحاربته فأعانه تغلث فلصر وخرّب دمشق ثم ضرب الجزية على مملكتى يهوذا وإسرائيل. فندم آحاز وقلب سياسته وعصى ملوك أشور واحتتمى بالمصريين فغضب سنحاريب وساق جيشاً جراراً فحاصر القدس وعسكر بقرب بركة ماملا حتى أذعنوا لحكمه وأعطوا الجزية ولكنهم لم يفتحوا له المدينة.

إن من تتبع مجرى سياسة يهوذا يجدها تشبه سياسة بعض الدول الحاضرة الضعيفة التى بينما نراها اليوم حليفة دولة فإذا هى عدوتها غذا فكان المصلحة والفائدة هى العامل الأكبر فى تقلب هذه الأحوال فإن مملكة يهوذا قد انحازت فى عهد صدقيا قبيل انقراضها إلى ملوك مصر والتحقت بهم فلما استعلت بابل على الحكومة المصرية وانتصرت منبها سلخت عنها سورية وفلسطين وضمتهما إليها وأتى نبوخذنصر إلى أورشليم ونفى الأشراف وقادة الرأى فى المملكة اليهودية إلى العراق أملا أن يكون ذلك خضوعاً تاماً لا نزاع بعده ولكنه لم يرض بضع سنين حتى انتقض اليهود وقلبوا سياستهم ومالوا إلى مصر فاستشاط نبوخذنصر غضباً من خيانتهم وتلونهم وساق عليهم جيشاً كبيراً فحاصر القدس

١٨ شهرًا واحتل المدينة عنوة وأعلن الحكم العرفي فهرب ملكها صدقيا إلى أريحا ولكنه لم ينج منهم فأسروه ثم أحرقوا المدينة وهدموا الهيكل ونهبوا أثاثه وسبوا أكثر السكان إلى بابل ولم يتركوا من اليهود إلا الصعاليك وشذاذ الآفاق فأقام عليهم نبوخذ نصر جدليا حاكمًا وأسكنه في المصفاة «قرية النبي صمويل».

فأصبحت البلاد مستعمرة بابلية تقاسى من الظلم أنواعًا فغلا الحقد في نفوس اليهود وهب رجل يهودى اسمه إسماعيل بطائفة من الأشرار الذين كانوا مهاجرين في بلاد عمون فجاسوا خلال فلسطين وقتلوا الحاكم جدليا وهربوا إلى مصر خوفًا من هجمات بابل المستقبلية وهنا يمكننا أن نقول أن جد اليهود خرج من العراق فمر بسورية وفلسطين وبادية التيه ثم رجع بذريته إلى وطنهم الأول العراق.

لقد سكن اليهود في فلسطين من ١٤٠٠ ق.م - ٥٨٦ ق.م . أى نحو ثمانية قرون ولكنهم لم يستقلوا مدة إقامتهم إلا وقتًا قصيرًا كانوا يختلسونه من ضعف واضطراب القوتين الكبيرتين في دلتى دجلة والنيل ويعلنون استقلالهم ومع ذلك فلم ينجوا من تحكم مصر وبابل وكانت تنكلان بهم وتسلبانهم استقلالهم كلما سنحت الفرصة وقد ظلوا حياتهم خاضعين لجيرانهم فيدفعون الجزية وتنفذ فيهم أوامرهم وكان يكتسحهم من يخالفونه ويحمل ما لديهم من خيرات عائداً بها إلى بلاده. أما السبب الأكبر فى انقراض المملكة اليهودية فهو تفرق الكلمة واعتزالهم جيرانهم وعدم امتزاجهم بغيرهم لاسيما فى المعتقدات الدينية التى لم يحافظوا إلا على قشورها فقد عبدوا الأصنام ونسوا الوصايا العشر وتشددوا فى تعصبهم اليهودى واعتقادهم أنهم شعب الله الخاص فقط، وزد على ذلك استحكام النفرة بين الأسر التى عملت على انحلال الأمة وهلاكها وهل ترجى حياة أمة قبل إصلاح أفرادها.؟

١٣ - بعض أنبياء اليهود فى فلسطين

لقد ورث الإنسان الأخلاق الفاضلة والسجايا الحسنة منذ القدم فسارت معه وكان كلما عرض عليها الفساد ودب فيها الشر أهاب بها داع من الله ينادى

بالإصلاح فيخوف العصاى بعذاب جهنم ويعد الصالح بالخير العميم، فكان الأنبياء فى ذلك العصر دعاة الإصلاح ووسطاء بين الله وشعبه بل متشرعو العزة الإلهية ورسلاها الذين حفظوا النظام بشرائعهم الأدبية أكثر من القوانين المدنية التى زادت الجناة ولم تصلح منهم شيئاً.

لا ريب أن رجال الدين لعبوا فى العصور الأولى أدواراً هامة لما كانت الممالك «ثيوقراطية» وكان الملك هو الكاهن والحاكم والسلطان ومازالوا يمثلون فصولاً من تلك الرواية المحزنة فى عصرنا الذى انتشرت فيه مبادئ العلوم الصحيحة وانفصل الدين عن السياسة. كان اليهود يسمون النبى راثياً «يرى المستقبل» ويعلم الغيب فيستشيرونه فى نتيجة الحرب ويستوضحونه عن حيوان فُقد وشخص مرض كما كان يفعل الرومان واليونان مع كهنتهم فهتف أنبياء إسرائيل يبشرون بأنهم شعب الله الخاص وأنهم أفضل البشر كافة فيوبخون من ارتكب الشر ولو كان ملكاً ويحضون على عمل الخير وعبادة الله الواحد الأحد. وقد نجحت دعوتهم فرفعوا قومهم من الحياة الدنيئة إلى الحياة السامية الشريفة وما نحن ندرج أسماء بعضهم.

(١) ناثان: لم يُعد من الأنبياء العظام بيدأن له وقفة رهيبة مع الملك داود لما شغف بامرأة أوريا الحثى وطمع فيها ففرق بينها وبين زوجها وأرسله إلى الحرب ثم تزوجها فاتاه ناثان ووبخه على شره وظلمه فاعترف بذنبه وقد وردت هذه الرواية فى التوراة سفر صموئيل الثانى والاصحاح الثانى عشر وأيدها القرآن الكريم سورة «ص» الآيات ٢٣ - ٢٥.

(٢) إيليا أو إلياس: ولد شرق الأردن وقضى حياته فى نشر تعاليمه داخل تخوم المملكة الشمالية وقد جاهد فى محاربة الأوثان وقاوم الملكة ايزابل الفنيقية زوجة آخاب ملك إسرائيل التى حاولت تعميم عبادة الأوثان وابتدعت لليهود ديانة جديدة فأخذ يفسد عليها عملها ويبرهن على إلحادها وسخافة آلهتها إلى أن سخطت عليه ففر إلى المملكة الجنوبية واجتاز القدس واستراح برهة فى محل «مار ايلياس» الواقع بين القدس وبيت لحم ثم نزل بئر السبع. وقد

ورد في التوراة أن الله أمره أن يذهب إلى نهر كريت «واد الفلت» وهو محل
يكثر فيه النساك وزاهدو الدنيا ومن شاء التوسع فليراجع سفر الملوك الأول
«ص ١٧ ، ١٨ ، ١٩».

(٣) عاموس: إن في سرد حياة هذا الرجل مغزى وعبرة لخاملي الذكر
والنفس لأنه ولد في قرية تقوع من بلاد الخليل وابتدأ حياته برعاية المواشى
وكان يقول «لست نبياً ولا ابن نبي بل أنا راع وجانى جميز فأخذنى الرب من
 وراء الضان وقال اذهب وتنبا لشعبي إسرائيل» فامتازت تعاليمه بصفتها اجتماعية
لأن بنى إسرائيل كانوا منهمكين فى لذاتهم ورفاهيتهم ومعاقرة الخمر والخلاعة
والزنى بل اقترفوا جميع الرذائل والموبقات فذهب إلى بيت ايل وحذر قومه
وانذروهم بالعقاب إن لم يقلعوا عن المعاصى والشهوات ويرجعوا إلى عبادة الله
الحق فيكسروا الأصنام ويحطموا التماثيل ومن أعظم صفاته أنه كان يجابه الملوك
والأشراف ويؤنبهم ويظهر لهم خطاياهم ويجهر بالحق ومن قوله «بغضت وكرهت
أعيادكم. وليجر الحق كالمياه والبر كنهر دائم».

هؤلاء بعض أنبياء اليهود الذين تنبأوا فى فلسطين ومنهم «أشعيا» الذى عاش
فى القدس وشهد حصار سنحاريب لها وكان يحرض قومه ليتوكلوا على الله دون
البابليين ومنهم «أرميا» الذى ولد فى قرية عناتا وهى تبعد خمسة كيلومترات إلى
الشمال من القدس وكان يقف على جبل الطور ويرثى اورشليم بأقوال مشجية ، قد
شاهد جيوش نبوخذ نصر تهدم وتحرق القدس واسوارها وهيكلها وكان من رأيه
أن يحالف اليهود البابليين ويबाعدوا المصريين فلم يسمعوا منه حتى كان ما كان
من اضمحلال الدولة اليهودية. ومن تتبع تاريخ اليهود فى جميع أدوارهم
الدينية يجد أنهم لم يكونوا راسخى العقيدة فى التوحيد لأنه ما غاب عنهم موسى
أربعين يوماً حتى عبدوا العجل إله المصريين ولما سكنوا فلسطين جنحت نفوسهم
إلى عبادة أصنام الكنعانيين والفينيقيين المصريين وصاهروهم مع أن دينهم يمنع
ذلك. وكانوا يسمحون لنسائهم بعبادة الأوثان فى بيوتهم فلو كان اعتقادهم متيناً
لتغلبوا على غيرهم ولقتلهم ديانتهم وصبغهم بصبغتهم كما فعل المسلمون.

الفصل الثالث

من نبوخذ نصر إلى بومبى

١٤- فلسطين فى يد الفرس من سنة ٥٣٩ ق.م - ٢٢٢ سنة ق.م:

غزا الآشوريون فلسطين وافتتحوها فلما سقطت مملكتهم قام مكانها البابليون الذين سبوا اليهود إلى العراق ولما استوى كورش الكبير على العرش أسس على أنقاض الدولتين مملكة الفرس وألحق بها فلسطين وسمح لليهود سنة ٥٣٦ ق.م بالعودة إلى بلادهم الخربة لأنه طمع فى فتح مصر والمغرب وأيقن أنه لا يتحقق له هذا الحلم الجميل إلا إذا أرجع اليهود إلى بلادهم ليكونوا له عوناً يتكئ عليه أو مدخراً يستمد منه ما يلزمه لفتح الأقطار التى ينزع إلى استملاكها.. فظل حلمه أضغاثاً حتى قام خلفه كمبيز وصدق رؤياه ففتح مصر وضمها إلى سلطنته ولعل السبب الذى حمل لويد جورج وبلفور ليعطيا فلسطين وطناً قومياً إلى اليهود هو عين الغاية التى رمى إليها كورش.

طال العهد بفلسطين وهى تابعة للفرس تدفع لهم الرسوم والضرائب وتسهل لجيوشهم الطريق إلى مصر وتمدهم بالزاد والعلف حتى تم لهم فتح إفريقية وأخضعوا بابل العظيمة ومملكة ليديا فى آسيا الصغرى فكان فلسطين كانت حلقة مفرغة ترتبط بها حلقات أخرى فلما انقسمت تداعت منها كل الحلقات فالتقطها ملوك فارس واستولوا على ممالك الشرق الأدنى فى آسيا وإفريقية ثم نهضوا إلى امتلاك أوروبا فحاربوا اليونان فى آسيا الصغرى وجزر البحر المتوسط وتغلغلوا فى بلادهم. وبعد معارك هائلة سطرتهما التواريخ القديمة معجبة بشجاعة اليونان المتأززة فى معركتى ماراثون وثرموبيللى غلب الفرس وانقلبوا مخذولين وهؤلاء عظماء ملوكهم الذين حكموا فلسطين.

كورش ٥٥٨ ق.م - ٥٢٩ ق.م

كمبيز ٥٢٩ ق.م - ٥٢٢ ق.م

داريوس ٥٢٢ ق.م - ٤٨٦ ق.م

زركسيس ٤٨٦ ق.م - ٤٦٥ ق.م

وقد قام غيرهم من ملوك الفرس ولكنهم لم يحدثوا حدثاً ولم يجبروا عملاً
يستحق الذكر فطوينا أيامهم وأخبارهم.

١٥ - اليونان في فلسطين ٢٢٢ ق.م - ٦٢ ق.م

تعدى ملوك الفرس على البلاد اليونانية فأيقظوا همة الفاتح الكبير اسكندر
المكدوني وألهبوا عزمته فهاجم بجيوشه على آسيا وتشوق إلى امتلاك الشرق
والتغلب عليه فكان بدء تنازع شديد بين الفرس حماة الشرق واليونان أبطال
الغرب الذين قوضوا ممالك آسيا الغربية واستولوا على أقطارها وحكموا في أهلها
بما لا يقاس على ما تقدمه من الفتوحات لأن الحكومات الأشورية والبابلية
والمصرية كانت تكتفى بجباية الجزية والخضوع السياسى فقط. أما الحكومة
اليونانية فكانت ترمى إلى غاية أسمى وأعظم وهى نشر مدنيّتها في الشرق وتلقيح
العالم بالأفكار اليونانية والمبادئ الهلنسية Hellenism (هلنزم).

ولا بأس إذا تجاوزنا حدود فلسطين وذكرنا بإيجاز سيرة الإسكندر منذ نشأته
لئلا يكون الكلام مبتوراً فنقول: ولى الملك وهو فتى لم يتجاوز العشرين ربيعاً فساد
أثينا ومدن اليونان كافة وهاجم الفرس في ضفة جناق قلعة على نهر غرانيكوس
الذى يصب في بحر مرمرة فكسروهم وتبعهم إلى شمال سورية قرب خليج
اسكندرونه في سهل إسوس وهزمهم شر هزيمة ففر داريوس وترك عائلته وذويه
ولكن البطل الإغريقى تربص ولم يتعقب فالة الجيش واتجه جنوباً إلى بلاد فنيقية
ليفتحها ويستعين بسفنها فنزل على مدينة صور وكانت آنذاك على جزيرة فطم
البحر ووصلها بالبر وبعد حصار دام سبعة شهور فتحها عنوة وانتقم من أهلها ثم

سار جنوباً فسلمت إليه كل البلاد إلا غزة فإن حاميتها العربية قاومتُهُ وصدمتُهُ ولكنها خضعت أخيراً فنكل بها.

الإسكندر في القدس

قال المؤرخ يوسيفوس: إن الإسكندر ذهب لفتح القدس فقابله رئيس الكهنة على جبل سكوبس فرحب به الإسكندر وطلب إليه أن يسلمهُ المدينة فرفض معتزلاً أن البلاد فارسية وقد أقسم أهلها يمين الطاعة للفرس فلا يسلمون المدينة إلا بأمر من ملكهم فآكرمه الإسكندر وقَدَّم هداياه إلى الهيكل فاغتاز أتباعه من هذا الرفق واللين. ولكن هذه الرواية تفتقر إلى اثبات. أما الأستاذ بورتر فقال: إن الإسكندر صعد إلى أورشليم ودخلها بوقار واحترام ولم يضرَّ بأهلها وقد استأنف منها السير إلى مصر ففتحها وخلد اسمه ببناء اربيل (اربل) شرقي دجلة وجنوب نينوى عاصمة الأشوريين ففرق شمل الفرس وبدد جيشهم وهدم مملكتهم وسجلت هذه المعركة الفاصلة خضوع الشرق لليونان. في ثلاث معارك فقط الأولى غربي الأناضول والثانية قرب خليج الإسكندرية والثالثة شمال العراق. هدم الإسكندر مملكة فارس وشاد على أنقاضها إمبراطورية يونانية حديثة شهدت له بالتفوق الفكري والنبوغ العسكري وأنه من أعظم القواد المشهورين مثل يوليوس قيصر وهنريال وخالد بن الوليد وصلاح الدين الأيوبي و نابليون إلا أنه يمتاز عن غيره ببعد نظره ونزعه إلى مزج الشرق بالغرب وتوحيد العائلة البشرية وقد توخى طرقات كثيرة لتحقيق أمانيه نذكر هنا أجلها.

١ - الزواج: تزوج الإسكندر بابنة داريوس وشوق قواده وأجبر رجاله على الاقتران بالشرقيات.

٢ - تعميم الروح اليونانية: فإنه أمر بنشر شعرهم وفلسفتهم وعاداتهم وألبستهم ومسارحهم وفنونهم وألعابهم وآدابهم ولغتهم.

٣ - تجنيد عساكر فارسية وإدخالهم في جيشه وصبغهم بالصبغة اليونانية مما أغاظ عساكر مكدونية وحملهم على ترك الجيش ناقلين.

٤ - مبادلة الأشجار والنباتات الشرقية بما يماثلها من المزروعات الغربية. وقد نجحت هذه الخطة التي كانت تصدر من مدينة الإسكندرية منهل العلم والأدب والشعر وتوزع على الأقطار.

فانتشرت اللغة اليونانية في الشرق قبل المسيح وبعده حتى إن المتهذبين كانوا يفتخرون بمعرفتها كتابة وتكلماً وحتى إن بعض الأناجيل كتب بلغة سقراط وأفلاطون وأرسطو ولم يكتب بالعبرانية.

ورث الرومانيون فلسطين عن اليونان وعجزت لغتهم اللاتينية عن مباراة اللغة اليونانية التي كانت تشبه في ذلك العصر اللغة الفرنسية والانكليزية في أيامنا هذه. وإن بين أعمال الإسكندر ونابليون لمشابهة كبرى لأنهما جاهدا في تنشيط العلم وسعيا في فتح الشرق واستعمره وحاولا الامتزاج بأهله والتقرب منهم.

١٦ - السلوقيون والبطالسة:

توفي الإسكندر في بابل سنة ٣٢٣ ق.م وهو في الثالثة والثلاثين من عمره بينما كان ذاهباً لفتح السماء كما زعم ولم يبق منه إلا شهرته الخالدة وذكره الطيب. فاقسم قواده الأربعة الإمبراطورية بينهم ولا يهمننا منهم سوى سلوقس حاكم سورية وبطليموس ملك مصر لتناوبهما الحكم في فلسطين. إن في التاريخ عبراً مفيدة ومن لم يستفد من هذه العظات فهو ضعيف خامل ليس بأهل للحياة لأن الدهر سفر عظيم صفحاته الأيام ومواده الحوادث. فإذا استقصينا ماضى الفرد والأمة أو الاقليم نجده سواء تتوالى عليهم أحوال متشابهة وحوادث متماثلة فكأنهم يسرون حول دائرة إذ انتهوا من الدورة الأولى ابتدأوا في الأخرى وهكذا دواليك فالذى لا يزرع شيئاً لن يحصد شيئاً ومن فاته عمل فليتموض من سواه ولكن فلسطين لم تنتبه لهذه الحقيقة وكانت كرة تتلقفها العراق ومصر وسورية فتهمها تارة وتحطمها تارة أخرى وإذا فلتت من واحدة خطفتها الأخرى. فلما التحقت بمصر كما كانت في أيام صحوتميس تسامحت معها الحكومة

ولم تتعرض لتقاليد الأهلين وأذنت لرئيس الكهنة أن يظل حاكمًا دينيًا وسياسيًا كما كان. وفي هذا العصر ترجمت الكتب المقدسة من اللغة العبرانية إلى اليونانية. فإن بطليموس فيلادلفوس (محب العلم) أخذ سبعين عالمًا يهوديًا إلى مصر لترجمة التوراة فأحسنوا صنعهم وجاءت طبق الأصل في دقة التعبير وقوة المعنى. ولكن سيطرة مصر على فلسطين لم تدم غير قرن وربع لأن أنطيوخوس الرابع ملك سورية ضمها إلى مملكته سنة ١٩٨ ق.م بعد معارك قاسية انتهت بفوزه على الدولة البطليموسية. والغريب هنا أن أهالي فلسطين انقسموا على أنفسهم فبعضهم حاول الانضمام إلى مصر والآخر أراد البقاء مع سورية. وكذلك كانت الحالة في عهد نبوخذنصر فإنهم انشطروا إلى شطرين أحدهما يطلب سورية والثاني مصر، وإذا قابلنا تلك الحالات بأيامنا الحاضرة نراها متماثلة فإن المؤتمر الفلسطيني الأول المنعقد سنة ١٩١٩م. انقسم أعضاؤه إلى قسمين طلب بعضهم الالتحاق بمصر والآخرين أرادوا الانضمام إلى سورية. ولو أمعنا النظر لوجدنا أن فلسطين لم تستفد من الانشقاق القديم والانتقال شيئاً لأنها كانت تنتقل من نير إلى نير أو من حكم مصر إلى حكم سورية وكلاهما دولة يونانية. على أن البطالسة كانوا يراعون شعور الوطنيين أكثر مما فعله السلوقيون.

١٧ - المكابيون:

المكابيون أسرة تنتسب إلى بطل يهودي يسمى يهوذا ويلقب بمكابيوس وهو جدير بالاحترام لما أظهره من الوطنية وأبداه من الجرأة فألهب بحماسة صدور بني قومه وأشعل الثورة العامة لدفع ظلم الدولة السلوقية اليونانية.

والحركة المكابية مثال من الأمثلة المسطرة في بطن التاريخ والدالة على أن الروح الوطنية الحقة إذا اختلجت في الصدور لا يقف أمامها قوة، ولا يضعفها بطش، وأوضح برهان على ذلك أن شرذمة يهودية غير منتظمة قاومت الجيش اليوناني السورى وانتصرت منه لأن أفرادها أخلصوا في عملهم واعتقدوا بصحة قضيتهم واستماتوا في سبيل تحقيقها لما رأوا أن أنطيوخوس عبث بهم وبتقاليدهم واستزغر بلادهم وباع وظيفة الحبر الأعظم إلى يشوع أخى أونياس اليهودى الذى

كان مولعاً بالعادات الغربية وربيب المدنية اليونانية فكان ماقئاً لتقاليد قومه
والذى افتتح أعماله بتغيير اسمه يشوع باسم يونانى ياسون، وروج الملاحى
والألعاب والعادات اليونانية المكروهة عند قومه فحسده أخوه أونياس ونهب إلى
انطيوخوس وشرى منه الرتبة الحبرية بأكثر مما شراها أخوه فعينه بعد أن عرض
عليه شروطاً مجحفة بحق امته وقبلها فغير اسمه أونياس بمنلاوس. فعمل
انطيوخوس مع الأخوين يشبه عمل الوزير خاقان الذى كان يعين الوالى فإن زاد
عليه أحد عزل الأول وعين صاحب الزيادة حتى قال فيه الشاعر:

وزير قد تكامل فى الرقاعة يولى ثم يعزل بعد ساعة

إذا أهل الرشى صاروا إليه فأحظى القوم أوفرهم بضاعة

ولما رجع منلاوس لاستلام وظيفته أبى أخوه أن يسلم إليه المدينة فتحاربوا ولم
يتمكن أحدهما من قهر الآخر فجاء انطيوخوس من مصر وأعلن الحكم العرفى
فأباح المدينة ونهب الهيكل وعين قائده فيليس الجائر حاكماً عاماً عليهم وكانت
هذه الضرية أول وميض الشدة والجبروت الذى شرع انطيوخوس يتمادى فى
إذكائه فأمر بإلقاء الدين اليهودى من أصله وأكرمهم على عبادة الآلهة اليونانية
وأمر بنصب تمثال لرفس ومذبح فى الهيكل لتعتر الخنازير عليه وأرغم اليهود
على مشاركتهم فى طقوسهم وحظر الاختتان واضطربهم إلى الشغل يوم السبت
وكان يجازى كل من خالف أوامره بالقتل وهذا غاية العسف ونهاية الشدة فلما
بلغ الظلم أشده لم يصبر عليه اليهود ونهض الكاهن متاتياس وهو من قرية مودين
(المدية) الواقعة شرقى اللد واعتم صم بقريته وأخذ معه بنيه الخمسة ومنهم يهوذا
مكابيوس (جد المكابيين) وبينما كانت الثورة تختمر فى قلبه شعر بدبيب الهمة
فى نفسه واشتداد العزم بين جوانحه فطقق يبحث عن طريق الخلاص لأمتِه وإذا
برسول يونانى قدم عليه ليكره الأهالى على عبادة الأوثان فغضب الكاهن وفتك به
وحرض الشعب على خلع طاعة اليونان فناوأم مدة ثم خلفه ابنه يهوذا فحارب
السلوقيين وظفر بهم فى مواقع كثيرة كمعركة بيت عور بين اللد ورام الله وبيت
صور قرب مدينة الخليل وكانت النتيجة فوز الوطنيين على الأجانب وتخليص

البلاد من الدخلاء فتولى المكابيون الإدارة من سنة ١٦٧ ق.م. إلى سنة ٣٧ ق.م. فلما رجعوا إلى سيرتهم الأولى وشجر بينهم الخلاف والنزاع أخذوا يستعينون بمن حولهم من الملوك فالتجأ هركانوس إلى الحارث العربي ملك بطليز (الحجر) واستصرخه على أخيه أرسطبولوس فلباه وسار لنصرته بخمسين ألف مقاتل وحاصر أورشليم ولكنه لم يتوفق.

الفصل الرابع

الاحتلال الرومانى من بومبى إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه

ورث الرومان «أجداد الإيطاليين» مملكة اليونان ومدنيتهم فى الغرب والشرق ونحن نكتفى من هذا البحث بما يتعلق بفلسطين ضاربين صفحاً عن أسباب سقوط اليونان وتغلب الرومان فنقول: إنه ظهر فى فلسطين قائد روماني يدعى بومبى فاكسحها وقضى على الحكومة اليونانية السلوقية بلا كبير عناء لأن البلاد كانت فوضى فالكلمة متفرقة والأحكام جائزة والحكام منهمكون فى ملذاتهم.

دخل بومبى دمشق فخف لاستقباله زعيما اليهود الشقيقتان هركانوس وارستبولوس غصنا الأسرة المكابية الشهيرة وسعى كل منهما ليكون والياً على فلسطين ولما أن تشاغل عنهما بومبى ولم يصغ لقولهما ظن ارستبولوس أنه جفاه وحده وأمل أخاه فشرع يستعد لمحاربة اليونان ولكن نتيجة عمله كانت وخيمة فزحف بومبى بجيشه إلى القدس وحصرها وفتحها عنوة وولى هركانوس والياً عليها خاضعاً للسلطة الرومانية وأمر بإلغاء المجتمع العام وقسم البلاد أقساماً خمسة وجعل لكل منهما مجمعاً خاصاً تديره نظارة رومانية.

١٨ - هيرودس :

عاش هيرودس فى عصر عظماء الرومان كيوليوس قيصر وبومبى وانطونيوس أما أبوه انتيباس فمختلف فى أصله والارجح أنه كان أدومياً ومن رجال هركانوس وأعوانه المقربين فدفع به جده وهمته العالية إلى أسنى الدرجات وساعده على ذلك انقسام الأسرة المكابية على نفسها ولما اختلف بومبى ويوليوس قيصر تربص حتى رأى رجحان كفة الثانى فسار بجيش إلى مصر وعضده ويقال: إنه لولا انتيباس لما فاز قيصر فى معاركه على أنه قتل غير مأسوف عليه. أما ابنه

هيرودس فكان رجل حرب شجاعاً مقداماً قوى الإرادة ذكياً حاذقاً نزوعاً إلى العلأ توفرت فيه شروط الإدارة وكان عسوقاً يضحى بأعظم شىء لنيل غايته وتأيد عرشه سفاكاً فتاكاً فظاً قاسياً فقتل زوجته مريمنة لما وجد منها العطف على قومها وبنى جنسها وهو المتدله بحبها وقتل من بنيه ثلاثاً وأمر بقتل أطفال بيت لحم. وكان إذا أراد أمراً فمانعه فيه أحد فتك به ولو كان من ذويه. ولما عين والياً على الجليل كسب ثقة يومية بحسن سياسته فامرؤا أوغسطس قيصر على اليهودية فقضى على سلطان المكابيين وابتدأت به الدولة الهيرودسية وقد حاول أن يوفق بين اليهود والرومان ليكون بنوه خلفاءه من بعده فلما حبط مسعاه شايح الرومان وساعد على توطيد حكمهم فى فلسطين فاحضع الأمة اليهودية التى أقلتت راحة رومية بثوراتها واضطراباتها وله أعمال شاذة فى سياسته نأتى على بعضها.

١ - اقترن «برمينه» ابنة اسكندر بن ارستوبولس وهى بنت ابنة هركانوس من الأسرة الحسمونية الشريفة ليتصل نسبه بنسب أهل الشرف ويجرى دم الملوك فى عروق أبنائه [كما فعل السلجوقي مع الخلفاء العباسيين فى بغداد] تهود وبنى لهم الهيكل وراعى عواطفهم الدينية والقومية فلم يعدهو إلا أجنبياً غريباً ولم يتقبلوا عطفه إلا باشمئزاز وكانوا ينفرون منه كلما مال إليهم فتكشف لهم عن عدو فى ثياب صديق وعاملهم بعنف واضطهدهم بقوة.

٢ - كان كريماً وهاباً يقدم الهدايا الثمينة والتحف النادرة للرومانيين وهذا ما ساعده على بلوغ أربه وتفوقه على منازيره.

٣ - كان متجسداً لينا شغفاً بالمدنية الرومانية والعادات اللاتينية يتكيف بحسب الظروف والأحوال بخلاف اليهود الذين كانوا ينظرون إلى المدينة اليونانية والرومانية نظرهم إلى الكفر والإلحاد ولقد ترك هيرودس آثاراً جملة فى فلسطين.

(أ) قيسارية: بنى مدينة قيسارية وسماها قيصرية نسبة إلى مولاه وهى واقعة على شاطئ البحر بين يافا وحيفا مشهورة بجودة بطيخها ولطافة هوائها.

(ب) رمم مدينة السامرة وعمرها وسماها «سبسطية» وهى كلمة يونانية تعنى أوغسطوس لقب القيصر فى تلك الأيام.

(ج) بنى قلعة باب الخليل فى القدس ولا يزال فى أساس البناء الحالى حجارة ضخمة من ذلك الأثر الجسيم.

(د) شاد برج انطونيا «القلعة السفلى» «مدرسة روضة المعارف» وسماها باسم انطونيوس صديق كليوبتره الشهيرة.

واختط وشيد غير هذه القلاع والأبراج فى فلسطين وشرقى الأردن ميائل لأوغسطوس وحمامات ومسارح فى القدس وقيصرية وسبسطية ونقل الألعاب الرومانية الأولمبية المشهورة فى البلاد فهو يشكر على هذه التحفة التى قابلها اليهود بالقت والازدراء.

وبعد وفاة هيرودس اقتسم أولاده مملكته ولم تدم طويلاً حتى التحقت مباشرة بروما وصار يبعث لها بحكام رومانيين. وأما ابنه هيرودس أنتيباس فهو الذى بنى مدينة طبريا وسماها باسم الإمبراطور طيباريوس.

١٩ - السيد المسيح

لو أردنا أن نفصل تاريخ فلسطين لأجملنا به تاريخ العالم أجمع وأشرفنا على ماضى سالف الأمم لأنها حلقة اتصال الشرق بالغرب وبما أنا توخينا الاختصار فى هذا السفر فلا مندوحة لنا عن التوسّع قليلاً فى سيرة المصلح الكبير السيد المسيح لأنه فلسطينى ويدين بدينه ٥٦٥ مليون نفس. ولد فى أبوين فلسطينيين يوسف النجار ومريم على رأى المسيحيين واليهود، غير أن القرآن الكريم ينص «أنه من روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم»^(١)، «ومثله عند الله كمثل آدم»، تربى ونشأ فى أرض فلسطين وشم عبير أزهارها ونسيمها وأكل من خبزها وشرب من مائها وطاف مدنها وعلم أهلها واختار تلامذته «حوارييه» الاثنى عشر من رجالها وصلب على تل من تلالها ودفن فى ترابها [هذا رأى المسيحيين واليهود] ولكن المسلمين يعتقدون أنه لم يصلب، بل شُبّه لهم وعرج إلى السماء حياً.

(١) هذا ما ورد فى سورة النساء الآية ١٧١.

ولد المسيح فى بيت لحم فى عهد أوغسطس قيصر وفى أواخر حكم هيرودس فعاش فى الناصرة التى ينسب إليها النصارى مع مربيه يوسف ومريم القيرين. كانت حياته هادئة قبل أن يبلغ الثلاثين وقد زاول حرفة النجارة عند مربيه يوسف فلما بلغ الرجولية شرع يبت دعوته وينشر مبادئه وتعاليمه بين قومه وأهله فى الخليل وبين بسطاء الناس فى الناصرة وحول بحيرة طبريا ونهر الأردن ثم انتقل إلى أورشليم مركز التعصب الذميم والتقليد الأعمى فجاهر بدعوته وصرح بمواعظه - وأجلها ما جاء فى إنجيل متى إصحاح ٥ و ٦ و ٧ أى عظة الجبل فمناها:

١ - سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن أما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً.

٢ - سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك أما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم أحسنوا إلى مبغضيك. لأنه إن أحببتهم الذين يحبونكم فأى أجر لكم وإن سلمتم على إخوانكم فقط فأى فضل تصنعون.

٣ - احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس كي ينظروكم. وأما أنت فمتى صنعت صدقة. فلا تعرف شمالك ما تفعل يمينك.

٤ - متى صليت فلا تكن كالمراثين فإنهم يحبون أن يصلوا فى المجمع وفى زوايا الشوارع لكي يظهروا للناس. فإنهم يظنون أنه بكثرة كلامهم يستجاب لهم.

٥ - لا تدينوا لكيلا تدانوا لأنكم بالدينونة التى بها تدينون تدانون وبالكيل الذى به تكيلون يكال لكم.

٦ - لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض.

فهذه خلاصة تعاليمه الاجتماعية والدينية أما آيته الذهبية فهى: «فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم لأن هذا هو الناموس والأنبياء».

فلم ترق هذه التعاليم فى عيون اليهود وألبوا عليه الرأى العام وسخروا من أقواله واتهموه بفریات ثلاث سياسية ودينية وهى :

١ - أنه سمى نفسه ملك اليهود.

٢ - وأنه قادر على نقض الهيكل وبناءه فى ثلاثة أيام.

٣ - وأنه سمى نفسه ابن الله.

فقرروا محاكمته لأنه كفر فى عرفهم. وقد خانه أحد تلامذته يهوذا الأسخر يوطى فسلمه إلى اليهود فى بستان الجثسيمانى وسبق إلى محكمة الوالى الرومانى بيلاطس البنطى الذى حكم عليه بالموت.

عاش المسيح على الأرض ٣٣ سنة فقيراً لا يملك من حطام الأرض قطميراً لأنه زهد فى الدنيا وما فيها. وأما المؤرخ يوسيفوس فقد قال: نشأ فى أيام بيلاطس رجل حكيم علم مريديه الحق واستمال إليه العدد الكبير من اليهود وغيرهم وهذا الرجل هو المسيح. ولما حكم عليه بيلاطس بالصلب بإيعاز من زعماء اليهود لم يتركه أشياعه ومريدوه وظهر لهم بعد ثلاثة أيام من موته كما تنبأ عنه الأنبياء.

٢٠ - جلاء اليهود ثانية عن فلسطين

طمع هيرودس فى تأسيس مملكة يتوارثها نسله من بعده ولكنه اخفق فى سعيه كما اخفق نابليون الذى حذوه بعد ثمانية عشر قرناً وقد رمى كل منهما إلى أن يكون جد أسرة مالكة شريفة. استقلت فلسطين فى أيام هيرودس استقلالاً داخلياً تحت السيادة الرومانية وقد عجز أولاده بعد وفاته عن إدارتها فألحقها الرومان بمملكته كما فعل الأتراك فى سورية وفلسطين فإن سياستهم الأولى لهذين القطرين كانت على نهج الإقطاع «اللامركزية» فكان أمير الولاية مطلق اليد والتصرف فى البلاد يؤدى الإتاوة والقطائع إلى الآستانة. وإن انتاب الدولة حرب يقدم لها عدداً معيناً من الجنود.

ثم تبدلت الحالة وأخذت الآستانة ترسل إلى المدن الكبرى مشاهير القواد وعظماء الرجال لتجتذب الناس إليها فترغبهم فى طاعتها وتخوفهم بطشها

وتسوس البلاد بأولئك القواد حسب ما تشرع لهم من القوانين وما ألفه السكان من عرف وعادة.

وظلت الحال على هذا المنوال إلى أن ولى الملك عبد الحميد فكان يرسل الولاة والحكام من حاشيته وأعوانه رجال «المابين». وهكذا انقلب حكم الرومان فى فلسطين من استقلال داخلى إقطاعى إلى نظام استعمارى واتخذوا قيسارية «قيصرية» مقراً لولاتهم لقربها من ساحل البحر وللحط من شأن القدس فى عيون اليهود. ولكن الرومانيين لم يهنأوا بحكم فلسطين ولم يقووا عليها على ضيق إقليمها وضعف سكانها الذين ظلت نفوسهم جائشة متحفزة تهيم بذكرى استقلالها وتتغنى بنشيد حريتها. اعترضت هذه اللقمة الصغيرة فى حلوقهم ولم يسبقوها فأزعجت الولاة وأتعبت وأقلقّت مدينة نهر التيبر أكثر من الأقاليم التى هى أرحب محلاً وأكثر نفوساً. فلما قدم تيطس ازدردها وهضمها وقد عزا بعض المؤرخين هذا الثبات إلى اعتبارات كثيرة منها :

١ - اعتقاد اليهود أنهم شعب الله الخاص الذى اصطفاه على العالمين فهم الخيار وغيرهم خول فحرمت شريعتهم مخالطة غيرهم لأنهم أرجاس كافرون.

٢ - نشر العادات واللغة والألعاب الرومانية مثل المسارح والملاهى والرقص والخمر والتماثيل مما كان يحرمها الدين اليهودى وينفر منها الأهلون فإذا ما أبصروها تنبهت فيهم العاطفة الوطنية والعصبية الدينية وهاجت روحهم القومية فيقاطعونها ويحتقرونها ولو أنهم اقبلوا على ذلك كما نحن نفعل اليوم لتلاشوا فى غيرهم من حيث لا يشعرون ولا يسعنا هنا إلا أن نعجب بأنفة اليهود وإقدامهم على محاربة الرومان لما عبثوا بدينهم وذبحوا الخنازير فى هيكلهم ونشروا أعلامهم خافقة فوق رؤوسهم موشاة برسوم النسور [الصور محرمة عند اليهود].

٣ - إيمانهم بأن الله إلههم وحدهم وأنه قادر على إنقاذهم من حكم الأجانب وقد ابتلاهم بهذه المصائب ليعلم مقدار صبرهم ومقانة اعتقادهم. فرسخت هذه

العقيدة فى النفوس. وكان الإنسان يكلف ربهُ كل شىء فلم يلبث أن صار يركن إلى رفاقه ثم إلى الحكومات فليت شعرى متى يأتى اليوم الذى يعتمد فيه على نفسه فقط.

٤ - عسف الرومانيون اليهودُ فإنهم لم ي نهجوا معهم نهج الصواب بل سخروا منهم ونبذوا شريعتهم وآدابهم، فأكبر اليهود هذا العمل وهتفوا قائلين:

متى تجمع القلب الذكى وصارماً وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم

٥ - خوارج اليهود الذين جنحوا للثورة فأخذوا يحرضون قومهم على ركوب هذا المركب الخشن مؤكدين لهم أن الله يساعدهم على تطهير الهيكل والبيت المقدس من نجاسة الرومان.

٦ - بطولة سكان فلسطين الذين ما غزاهم أحد وهم بامتلاكهم أجنبى إلا أسقط فى يده وباء بخسران كبير.

٧ - وأن كل أمة لا ترضى أن تحكمها أمة أجنبية عنها ولو طال عليها الأمد. فإذا هى حكمت تذرمت وتحفزت للانتفاض فترقب الفرص لتنتهزها وهذا ظاهر لدينا من حالة أيرلندا والعرب وبولونيا فإنهم لم ينسوا أنهم محكومين لغيرهم وعملوا على إزعاج حكاهم فظفر بعضهم بما تاق إليه وكذلك اليهود فإنهم لم يرضوا عن إدارة بيلاطس وأكثروا الشكايات عليه مع أنه تزلف إليهم يجلب مياه العروب إلى القدس وأمر بنحت أنابيب من الأحجار الضخمة ليجرى فيها الماء. وفى فناء النوتردام فى القدس نماذج منها تشهد بعظمة صانعها وقد أخفق لأنه عزم أن يصرف ريع أوقاف اليهود على عمارتها فمانعوه وقد انتهت ولايته بعزله. وخلفه شخص حسن السيرة فكان نصيبه أسوأ وأكد من سلفه ولم يُجِدْه لينه نفعاً لأن داخلية البلاد كانت فى هياج مستمر فكثرت قطاع الطريق وأخصبت الفتن. واستحكم الخلاف بين الحكومة والشعب وتجسم فى عهد القائد الرومانى الذى تعين سنة ٦٤ ب. م لما طمع فى أموال الهيكل وهم بسلبها فقاومه اليهود بكل قوتهم ومنعوه فأمر جنوده بالبطش بهم ونهب بيوتهم فاضطربت لظى الحرب الأخيرة التى أدت إلى خراب القدس وتمزيق الأمة اليهودية. والحقيقة أن هذه

الشرارة التي طارت من القدس ليست كافية لإذكاء الثورة في سائر أرجاء فلسطين لو لم تكن جميع البلاد على تمام الأمانة والاستعداد للوثوب ولو لم تكن نفوسهم هائجة وأرواحهم ثائرة متوقفة على اهتزاز خفيف أو نسمة هواء تحركها فتثيرها كما أشار إلى ذلك نصر بن سيار^(١):

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام

اشتدت الأزمة في أيام نيرون الطاغية الذي روى لنا التاريخ شيئاً من قساوته وشره وفساد أخلاقه فثار ثائر اليهود وطرده الحامية الرومانية من القدس فأرسل إليهم قائده فاسباسيان بقوة عظيمة ليخمد الثورة وينتقم من مسببيها. فنزل في قيصرية لأنها كانت ميناء فلسطين وعاصمتها وبذل جهده نحو سنتين حتى اخضع القسم الشمالى من البلاد فاسترد طبريا وجسجلة والسامرة وإريحا. وقبل أن يصل القدس فوجئ بوفاة نيرون في رومية فارتد مسرعاً إلى إيطاليا ليتبوأ مكانه وأتاب عنه ابنه تيطس المشهور في محاربة اليهود واستئصال شأفتهم فقدم القدس بجيش يبلغ ثمانين ألف جندي كان فيه فرقة عربية «نبطية» فخيم على جبل الزيتون ومرتفع سكوبس وعلى تلال المسكوبية والنكفورية وحاصر المدينة التي كانت حصونها قائمة في ثلاثة مواضع:

(١) قلعة هيرودس وبقاياها القلعة الكائنة باب الخليل.

(٢) برج انطونيا وآثاره لم تزل في القشلة السفلى شمالى الحزم.

(٣) الهيكل «الحرم».

(١) هو نصر بن سيار بن رافع بن حري بن ربيعة الكناني، أمير من الدهاة الشجعان، كان شيخ مضر بخراسان وولى بلخ ثم ولى إمرة خراسان سنة ١٢٠ هـ بعد وفاة أسد بن عبد الله القسرى ولاء هشام بن عبد الملك، وغزا ما وراء النهر، ففتح حصونا وغنم مغانم كثيرة. وأقام يمررو وقويت الدعوة العباسية في أيامه. فكتب إلى بنى مروان بالشام يحذرهم وينذرهم، فلم يأبهوا للخطر. فسير يدبر الأمور إلى أن أعيته الحيلة وتغلب أبو مسلم على خراسان، فخرج نصر من مرو (سنة ١٣٠ هـ). ورحل إلى نيسابور، فسير أبو مسلم إليه فحطبه بن شبيب، فانقلع نصر إلى قومس وكتب إلى ابن هبيرة وهو بواسط - يستمده وكتب إلى مروان وهو بالشام، وأخذ يتنقل منتظرا النجدة إلى أن مرض في مغازة بين الرى وهمدان ومات بساوه سنة ١٣١ هـ / ٧٤٨ م

قال يوسيفوس فى تاريخه : إنه كان فى القدس لما حاصرها تيطس ما يقارب المليون شخص. ونظن أن هذا لا يخلو من المبالغة لكن الرأى الراجح هو أن القدس ازدحمت بالمهاجرين من كل أنحاء فلسطين لاعتقادهم أن الله لا يسمح بإعطاء مدينته وميكله وقدس أقداسه إلى غير شعبه فذكر المؤرخ الرومانى تاستس أنه اجتمع يومئذ فى القدس نحو ٦٠٠ ألف نفس.

لقد تحمل تيطس العذاب المرقبل فتح القدس لأن اليهود حاربوه بشجاعة فائقة واستماتوا فى حفظ بلادهم – وجدير بكل أمة تنزع إلى الاستقلال أن تدفع ثمنه مهما كلفها – ولولا ما حدث بين الأحزاب من الشقاق ما وصل تيطس إلى أمنيته.

ولكنهم انقسموا إلى ثلاث فرق :

(١) حماة الهيكل بقيادة العازار

(٢) حرس برج انطونيا وقائدهم يوحنا الجسولى

(٣) حفظة قلعة هيرودس ورأسهم سيمون «سمعان» ولو تتبعنا ماضى اليهود وحاضرهم لوجدناه مفعماً بالانقسامات والتحزبات السياسية والدينية التى كانت تمهد السبل لاستعبادهم والتغلب عليهم.

كل امرئ راجع يوماً لشيمته وإن تخلق أخلاقاً إلى حين

فكانوا إذا اتحدوا سادوا فتدب عقارب الحسد فى صدورهم فتطوحهم إلى هاوية الخلاف وينال منهم بسهولة ما كان صعباً. وهكذا داهمهم جيش تيطس وهم أحزاب يتخاصمون ويتناظرون فأيقظتهم مجانيقه وآلات حصاره فحاولوا الاتفاق ولكن سبق السيف العذل فطال الحصار حتى مات الناس جوعاً وانتشر الوساى وسرى المرض من سوء الغذاء ورائحة الجيف المنتنة فرأف بهم وطلب إليهم أن يسلموا المدينة صلحاً ليعاملهم بالحسنى فأبوا وأصرروا على الحرب وكانوا يبتون ليلاً ما يهدم نهراً ولكن جهادهم لم يغنهم شيئاً وسقطت المدينة السفلى «برج انطونيا» ثم الهيكل ثم المدينة العليا «القلعة» والتى أبقاها مأوى للجنود. وأمر

بهدم برج انطونيا واحترق الهيكل من يد جندي بغير إرادة تيطس ولكنه أجهز على الأمة اليهودية وفتك بهم بلا عدل ولا رحمة.

ففر أحد الزعماء إلى قلعة «مسادا» وأسر الآخرون وهما يوحنا الجسحلي وسيمون فسيقا إلى رومية ليسيروا في موكب النصر الذى كان يحتفل فيه بعد عودة قائدهم ظافراً منصوراً فكانت عادة الرومانيين أن يقف القائد المنتظر عند رجوعه إلى رومية فى ساحة كمبوس مرتيوس خارج المدينة ويخلعون عليه ثوباً أرجوانياً مزركشاً بالذهب ويتوجونه بنسر ذهبي ثم يحف به القواد والعسكر مكللين بغصون الدفلى فيمر من أمامهم العدو المأسور ولو كان ملكاً أو عظيماً وهنالك يبنون قوساً لذكرى تلك الفتوحات وكل من يزور رومية يرى قوس تيطس شاهداً على خراب القدس.

يوجد أمام فندق مرقص عمود شاخص نقش عليه كلمات لاتينية فلو تبيناها لقصت علينا حادثة القدس وخبر الفرقة العاشرة الرومانية التى تركت فى القدس للمحافظة على آثارها بعد خرابها.

٢١ - قلعة مسادا

على شاطئ البحر الميت قرب عين جدى بنى هيرودس حصناً فوق صخرة عظيمة وحفر له الآبار وشحنة بالذخائر والأرزاق والعدد اللازمة ليعتصم به إذا دامه الخطر. فلما قضى تيطس على اليهود خف أحد زعمائهم العازار بألف رجل والتجأ إلى هذا الحصن المنيع فلم تحمه البرية على اتساعها ولم تحفظه الحصون المشيدة بمناعتها فقد عقبهم جند تيطس وحصروهم وبينما هم يتوقعون التسليم رأوا ليلاً ناراً مضطربة فى القلعة ولما تنفس الصبح صعد جند الرومان على سالملهم فلم يسمعو ديبياً ولا صوتاً فحاروا فى أمرهم إلى أن ظهر لهم امرأتان قالتا لهم قد فاتكم الغنم فإن قائدنا الكبير العازار شعر بعجزه عن حماية الحصن فطلب إلى رجاله أن ينتحروا خيفة أن يأسرهم أعداؤهم فاستحسنوا نصحه وودع كل منهم زوجته وبنيه وقتلهم بنفسه ثم انتخبوا عشرة رجال من بينهم عهد إليهم

بقتل الباقين فأنجزوا عملهم واختاروا أحدهم فقتل التسعة وأحرق كل ما فى الحصن وقتل نفسه ولم يبق هنا إلا نحن وخمسة بنين. فعجب الرومان من هذه الجرأة وكان لسان حالهم يقول: إن هؤلاء الرجال العظام هم أبطال الوطنية وخليقون بالإجلال والاحترام.

سببت الأمة اليهودية وهدمت عاصمتها وهيكلها مرتين الأولى من البابليين والثانية من الرومانيين فخدمت مهمهم وخابت آمالهم بعد أن جاهدوا بأنفسهم وبذلوا أرواحهم دفاعاً عن استقلالهم.

٢٢ - هدر يان

لا ريب أنه يغشى البلاد نعى وبؤس كما يغشى الأفراد والأمم فبينما نرى القدس عاصمة تصدر منها الأوامر وتبرم فيها الأمور والأحكام إذا هى خراب يباب تنقق على أطلالها الغربان ولكن لم يكن يمضى عليها بضع سنين من الزمن حتى تراها قد استجمعت قواها واسترجعت جدتها فلو قابلنا صدماتها وما انتابها من المصائب بما أصاب غيرها من البلدان والمدن لعجبنا واستغربنا كيف أنها تجدد حياتها بعد اندثارها وغيرها يبيد ويمحق ولكن مكانتها الدينية فى نفوس مقدسيها تحملهم على تعميرها وتجديد بنائها بخلاف البلدان الأخرى التى لا يشفع فيها مركز اقتصادى أو سياسى أو دينى.

إن الزمن الواقع بين عهد تيطس والفتح العمرى يقرب من ستة قرون أى ٥٦٧ سنة فهو مجلد ضخم أكثر صفحاته بيضاء لذلك أجملناها لقلّة ما فيها من الأخبار الجليلة حباً بالاختصار ومن شاء التوسع فليراجع مظانها فى بطون المطولات.

مضى على القدس ستون عاماً وهى خربة وفلسطين ساكنة مهيسة الجناح منهوكة القوى لأن الرومان تنهبوا وعرفوا أن الفتن والقلال فى فلسطين كانت تنبعث من القدس فحظروا على اليهود الرجوع إلى عاصمتهم إلى أن ولى الحكم الإمبراطور هدر يان «أدر يان»^(١) فجدد عمارة القدس وسماها «إيليا كابيتولينا» فحنّ

(١) المسماة أدر يانوبل «أدرنه» على اسمه.

اليهود للرجوع إليها ودبت فيهم روح الأنفة والحمية فقام رجل اسمه باركوكب (ابن كوكب) وجاب البلدان وعرف الكهوف والجبال والبطاح والمداخل والأماكن الوعرة الصالحة للدفاع ثم لقي الأفكار سرًا ببذور الثورة وبعث في قومه صرخة ادعى بها أنه هو المسيح الذى سينقذ أمتة من استعباد الأجانب ويخلصهم من ظلم الرومان فتبعه نفر ليس بقليل ازعج بهم حكومة رومة وأقلقها ثلاث سنوات. فاوحد إليهم هديران قائد الجبار العاتى سفروس الذى أخضع الجزر البريطانية فسحق اليهود وقهرهم فى معركة بتير وكان ذلك آخر العهد بالحروب اليهودية.

قف هنا أيها القارئ هنيهة وتأمل فى عظمة الإمبراطورية الرومانية وضخامتها واذكر اسم القائد سفروس الذى فتك ببرابرة بريطانيا وسل نفسك أين ذهبت تلك الدولة وكيف أفل بدها؟؟ وكيف ترقى أولئك البرابرة وورثوا تلك الإمبراطورية العظيمة فى سعة حكمها وأقطارها؟!

٢٢ قسطنطين وتنصير فلسطين

فى أوائل القرن الرابع للمسيح انشقت الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين المملكة الغربية وعاصمتها رومية والشرقية وعاصمتها بيزنطية^(٥) وهى الحكومة التى كانت مسيطرة على فلسطين فقدمت الملكة هيلانه أم قسطنطين إلى القدس وبنت كنيسة القيامة التى يحج إليها المسيحيون وكنيسة بيت لحم «المهد» ومن ذلك العهد تنصر أهل فلسطين فاضطهدوا اليهود وأجلوهم عن البلاد.

وفى القرن الرابع والخامس ب.م أسست الصوامع والأديرة ومنها دير مارسابا المشهور الواقع فى الجنوب الشرقى من بيت لحم وكثر عدد الرهبان والنساك. ولكن مكروب الفساد وسُوس الانحلال دبّ فى جسم الملكة البيزنطية فنخر عظامها وعظم الخلاف بين رجال الأكليروس: إذ ذهب بعضهم أن السيد المسيح ذو طبيعة ومشيئة واحدة. وبعضهم قال إنه ذو طبيعتين ومشيئتين إلهية وإنسانية

(٥) الأستانة وتدعى أيضًا القسطنطينية نسبة إلى قسطنطين أول إمبراطور تنصر وأمر بتعميم الديانة المسيحية فتبعه خلق كثير وأصبحت الديانة المسيحية دين الحكومة الرسمى

وقال الآريوسيون إن هو إلا رسول ونبي كريم فمالَت الحكومة إلى القائلين بالطبعيتين واضطهدت كل من خالفهم وبينما هم يتجادلون ويختصمون هجم الفرس على سورية وفلسطين سنة ٦١٤ ب.م واغتصبوها وأغرامهم يهود العراق وسورية بالانتقام من المسيحيين فهدموا كنيسة القيامة وقسمًا كبيرًا من القدس وجاهر يهود إنطاكية بالعصيان وقتلوا بطريركها وكذلك ساعدوا العرب على فتح فلسطين ودلوهم على مدخل قيسارية وهذه طبيعة كل الأمم المغلوبة على أمرها فما دخلت حكومة بلادًا كان فيها يهود إلا كانوا آلة للقاتحين سنة الله في خلقه :

إذا لم يكن للمرء في دولة امرئ نصيب ولا حظ تمنى زوالها
ولما بلغ هرقل ما فعل الفرس جهز جيشًا ونهض من القسطنطينية وحاربهم وانتصر منهم سنة ٦٢٨ ب.م واسترد سورية وخشب الصليب. ولكن دولته كانت بالغة من الكبر عتياً وظهر عليها الضعف والفتور فعجزت عن دفع فيضان الحكومة العربية الفتية وتقلصت إلى داخل حدودها.

٢٤ - آثار اليونان والرومان في فلسطين

شهد التاريخ على فلسطين أنها بلاد احتلال واستعمار فإن لم يكن يهوديًا كان آشوريًا أو بابليًا أو فارسيًا أو مصريًا أو رومانيًا أو يونانيًا أو تركيًا أو إنكليزيًا ولا نعلم كيف يكون المصير.

فلسطين بلاد آسيوية اغتصبها الغرب من الشرق أزمانًا وتناوبتها دُوله فابتدأ هذا المد بالموجة الفلسطينية وتبعها طوفان اليونان ثم فيضان الرومان وسيل الصليبيين المتدفق وختم بالاحتلال الإنكليزي والوطن القومي اليهودي.

ولكن الشرق لم يقف أمامه صاغراً بل كان يثار منه الكيل كيلين وغزا أوروبا واحتلتها قرونًا متعددة وحكم في أهلها فنشط الفنيقيون إلى استعمار بلاد اليونان والكتلين وجزر البحر الأبيض وبريتانيا^(*) ثم غزا الفرس دولة اليونان واستولوا

(*) لفظة سامية مركبة من كلمتين بريتا «بلاد» أنيا «بناء التنك» أى «بلاد التنك» أطلق الفنيقيون هذا الاسم على بلاد الإنكليز لكثرة معدن التنك فيها فعلق بهم إلى يومنا هذا

على بلادهم ثم فتح العرب أسبانيا وجنوب فرنسا وجزر البحر المتوسط وانحدر التتر «المغول» من شمال غربي البحر الأسود وألفوا هناك حكومات وإمارات وأردف كل هذا بفتوح الأتراك العثمانيين واكتساحهم شرق أوروبا حتى فينا فلقوا بلنا المد والجزر في كلتا القارتين لتساويا.

ليست المدة التي بين فتح الإسكندر والفتح الإسلامي قصيرة بل تبلغ ٩٧٠ سنة أى من ٣٣٣ ق.م - ٦٣٧ ب.م وهي كافية لاندغام سكان آسيا بأهالى أوروبا لأنهم الحاكمون ولكن مضى هذا الزمن الطويل ولم يعلق بنا وببلادنا إلا الخزر اليسير نفرد له فصلاً خاصاً من هذا الموجز:

١- اللغة اليونانية:

إن كل قائد فاتح يحمل لغته معه حيث سار فتنازع لغة البلاد وتصارعها فيفوز الأنسب ويبقى الأصلح فلما نهض اليونان كان الشرق محموماً ففتحوا مدنه وأقاليمه ونشروا لغتهم الجميلة فانتبذها الأهالى وانحصرت بين الطبقة المتهذبة وفى مجالس الخاصة وأندية الأدباء فقط كما هى اللغة الإنكليزية والفرنسية الآن وعجزت عن مزاحمة لغة أهل البلاد الوطنية وهى اللغة الآرامية ولكنها تغلبت على اللغتين اللاتينية والعبرية الدخيلتين فقد مضى قرن وثلاث على حكم الرومان البلاد واللغة اليونانية ذات السيادة فدّون المسيحيون أناجيلهم بها وثفننوا فى رسائلهم بأدائها وأهملوا اللغة العبرانية ولغة الحكومة اللاتينية.

٢- المدن:

شاد اليونان فى الشرق الأدنى مدناً كبيرة وعظيمة منها الإسكندرية وإسكندرونة وإنطاكية وجرش وعمان أما المدن الرومانية فهى بعلبك ومن زارها يحنى رأسه إعجاباً من تلك المدينة الفائقة والبناء الضخم وقيسارية وسبسطية وطبرية ويروى أن الإسكندر أسس نحو ٦٠ مدينة فى الشرق جعلها مراكز لبث الدعوة اليونانية ونشر المدينة الغربية واسكن بها دعاة اليونان الذى كانوا يبشرون بالروح اليونانية «التفرنج».

٣ - الروح اليونانية "Hellenism" :

ربما كان خير تفسير لكلمة هيلنزم «التفرنج» أى نقل عادات الأفرنج وألعابهم وأخلاقهم ولذلك سعى اليونان جهدهم لجعل البلاد يونانية فبشروا بديانتهم وشوقوا الناس إلى اقتباس عاداتهم وآدابهم فبنوا المسارح وملاهى التمثيل فى مدنهم ونحتوا تماثيل لمشاهيرهم وآلهتهم فعبدت الأصنام وآثارها باقية فى بعلبك فإن صح لنا أن نشابه بين الماضى والحاضر نقول: إن كرة القدم والملابس المقصورة والرقص والسينما وغير ذلك يشبه ذات الروح التى توخاها اليونان فى عصرهم.

كانت مدينة الإسكندرية وإنطاكية عش الدعوة اليونانية ومنهما تشع روحهم وتتنوع على سائر أقطار الشرق. فقد نبغ فى سورية من الفلاسفة والأدباء نفر غير قليل وزهت المدنية اليونانية ونضجت المعارف وأزهرت العلوم فى عاصمة البطالسة وكثرت المكاتب والآلات الفلكية لرصد الكواكب وأدوات الهندسة وآلاتها فاليونان أساتذة العالم وأدلاء الشرق ومرشدوه ولقد كان لهم عشر مدن فى فلسطين تدرس فيها تعاليمهم وتعرض فيها مدنياتهم فتلاشت من رفض اليهود وكرهم لها.

وإن من تنقل فى أطراف فلسطين وتأمل قليلاً يرى آثار القناطر والطرق والهيكل التى تركها لنا الرومان كما سنقصله فى هذا التاريخ عن مدن فلسطين.



القسم الثاني

الفتح العربى الإسلامى

من عمر بن الخطاب إلى السلطان سليم

٢٥ - العرب فى فلسطين قبل الإسلام

إن كل من شغل بعلم التاريخ يتجاذبه عاملان قويان. أولهما عام وهو حب العلم وثانيهما خاص وهو رغبة الاطلاع على تاريخ قومه وبلاده. فالقسم الأول من هذا الموجز يهم العربى الذى طمع فى العلم ورغب فيه. أما القسم الثانى فمن الواجب المتحتم على كل عربى أن يمزجه بدمه ونفسه لارتباط تاريخ بلاده بأمتة الذى ينعش نفسه ويحييها، فإنى أعجب كيف يكون المرء وطنياً إذا لم يعرف تاريخ بلاده وسيرة أمتة وأبطالها أو لم يتعلم لغتها وآدابها؟ فتصديرنا هذا الموجز بتاريخ الأمم الأخرى ليس لأنها أقدم من أمتنا العربية فى سواحل فلسطين الشرقية والجنوبية. بل لكونها ملأت صحف تاريخ البلاد أكثر من سواها فالعرب منذ القدم سكنوا فلسطين وكانت فيها مراتبهم ومصايفهم وشيدت فيها منازلهم وحكوماتهم وهذه نبذة مختصرة عن العرب قبل الإسلام فى فلسطين تؤيد بها حجتنا:

١ - ورد فى التواريخ الموثوق بها أن نرام سين بن سرجون ملك الكلدان غزا فلسطين سنة ٣٨٠٠ ق م. وصادف فى سينا حكومة عربية. ثم حارب قبيلة «معان» العربية وأسر أميرها وقد ظهر فى آثار بابل ما يثبت هذا القول.

٢ - أن سرجون الثانى غزا عرب البادية الذين تعدوا على بلاد السامرة وأخضع قبائلهم ومنها ثمود وهم مديان «مدين» ومساكنهم شرقى الأردن وحارب عبايد وأخذ منهم طائفة وأسكنها فى بلاد السامرة.

٣ - فى القرن الثامن ق.م. أخضع تغلث قلصر عرب البادية بين فلسطين ومصر وكانت ملكتهم حبيبة فعزلها وولى مكانها أحد رؤسائهم.

٤ - لما جاء الإسكندر إلى فلسطين وحاصر غزة كانت حاميتها عرباً فقاومته أشد المقاومة.

٥ - بشر أحد تلامذة المسيح بلغات عديدة منها اللغة العربية كما ورد فى أعمال الرسل ص ٢ : ١١.

٦ - كان الحارث حاكم دمشق عربياً لما دخلها بولس الرسول كما ورد فى رسالته إلى أهل مدينة كورنثوس (كورنثوس ص ١١ : ٣٢).

٧ - لما جاء تيطس لفتح القدس كان معه الحارث ملك العرب يقود فرقة عربية.
٨ - التجأ هركانوس المكابى إلى الحارث ملك العرب فأنجده وساعده على أخيه ارستوبولس.

٩ - إن فيليبس الرومانى الذى صار إمبراطوراً فى رومية سنة ٢٤٤ ب.م. كان عربياً من بصرى حوران (راجع جيون) Every man's Encyclopedia Vol. 10, p 298.

١٠ - حكومة تدمر وتمدنها وتجاريتها ونفوذها فى الشرق والبلاد العربية (راجع زيدان التمدن الإسلامى).

١١ - حكومة بطرا «الحجر» فى الجنوب الشرقى من فلسطين إلى خليج العقبة وقد حكموا فلسطين وسورية.

١٢ - الغساسنة حكام الشام وحوران وشرقى الأردن الذين عمروا المدن وشادوا القصور والقلاع وهى دولة عربية مسيحية.

ومن استقرأ صفحات التواريخ القديمة وجد كلمة «العرب» تجول فى غزواتهم المظفرة ومحارباتهم الكثيرة فى فلسطين وحسبنا دليلاً أن هاشما جد أبى النبى «ﷺ» مات فى غزة ودفن فيها وإننا نعرض عن دول اللخمييين والهيكسوس

وحمورابى واليمن لأنها بعيدة عن بلادنا ولا اتصال لنا بهم. ولكننا نقول: إن سكان فلسطين القدماء كالكنعانيين والعمالقة الذين أتوا فلسطين من جزيرة العرب ربما كانوا من طوائف العرب البائدة طسم وجديس إذ يصعب على الفكر التصديق بانقراض قبائل كبيرة برمتها. ولكن يجوز أن تستحيل إلى غيرها وتندغم فيها. فيظهر مما تقدم أن العرب لم يفيضوا إلى فلسطين دفعة واحدة بل دخلوها تدريجاً ثم تدفقوا فى عهد الفتح الإسلامى وهذا يحملنا على الترجيح أن مجيء كل فرد أو قبيلة عربية إلى هذه البلاد كان توطئة وتمهيداً للفتح الأخير وفى هذه السطور دليل كافٍ على أن العرب سكنوا فلسطين قديماً وشاركوا بها غيرهم قبل الفتح الإسلامى وتمتعوا بها بعده.. والمستقبل يتوقف على نشاط الأمة واستعدادها، يمليه الأفراد على مدونى التاريخ فلنحذر أن يكون شراً.

٢٦ - النهضة الإسلامية

كان العرب قبل الإسلام مختلفى الاعتقادات ومتفرقى النزعات فمنهم الموحد والمشرک والصابئى وعابد الأصنام ولكنهم أجمعوا على احترام مكة المقدسة فكانوا إذا حجوا إليها يطوفون حولها وينزعون سلاحهم فلا يحاربون فيها ولا فى أشهرهم الحرم وقد سمو أيام الحرب التى حدثت فى إحرامهم «الفجار» لأنهم ارتكبوا فيها فجراً. فيظهر أن العرب كانوا وقتئذ فى بدء تطور جديد فنفوسهم تتحفز للنهوض وتحركها حروبهم الداخلية وتعديات جيرانهم الفرس والأحباش على اليمن ووقعة ذى قار وانتصار العرب من الفرس كل هذا يدل على تمخض فكرى وغلان عقلى وتأهب للانتقال السياسى والدينى الذى يطرأ على الأمم وتلا ذلك ولادة محمد ﷺ فى سنة ٥٧٠ ب.م. فى مكة من قبيلة قريش وهى من أشرف قبائل العرب ولها سدانة الكعبة فيتم صغيراً وكفله جده عبد المطلب ثم عمه أبو طالب فاشتهر بالأمانة والخلق الطيب فسمى بالصادق الأمين فتاجر بأموال السيدة خديجة بين الحجاز والشام على حصة من الربح فأرضاه بمعاملته وأعجبت به فخطبها وتزوجها وانتفع بمالها.

كان فى نفس محمد أسرار محجوبة تحركها العوامل والبواعث الخارجية فتثيرها ثم تخمد إلى أن بلغ من العمر أربعين سنة وبعثه الله نبياً فبث دعوته ثلاث سنوات بين أهله وعشيرته الأقربين فأسلم له نفر وكان يجتمع بهم خفية فى دار الأرقم المخزومى إلى أن أسلم عمر بن الخطاب فقال لهم «علام نخفى ديننا ونحن على الحق وهم على الباطل» فأجابه النبى ﷺ «إنا قليل وقد رأيت ما لقينا فقال له عمر: والذى بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالإيمان فخرج النبى فى صفين من المسلمين حتى دخلوا المسجد فلقبه النبى ﷺ «الفاروق» لأنه فرق بين الحق والباطل فنزلت الآية ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) فجهر النبى ﷺ بدعوته وطاف على القبائل وهو يتلو عليهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٢) فاضطهدته قريش وطفقوا يكرهون من آمن به على ترك دينهم بدفنهم فى الرمل أحياءً ويسومونهم أنواع العذاب وهم على عقيدتهم ثابتون وإن أعظم شرط لنجاح المبادئ الجديدة وطنية كانت أو دينية الجزم بصحة المذهب والثبات عليه مهما اعتراه من المحن.

ظلت الدعوة الإسلامية ضعيفة حتى آمن بها أخوال النبى ﷺ الأنصار ونصروه عصبية وحباً فى الدين ومزاحمة لقريش علهم يحولون وجهة الحج إلى مدينتهم لأن أحد أبطالهم أبا الهيثم قال يا رسول الله فهل عنيت إن أظهرك الله عز وجل أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فقال له أنتم منى وأنا منكم أسألكم من سالمتم وأحارب من حاربتم. فلما طال بهم العسف هاجروا جميعهم خفية إلى المدينة ليحتموا بالأنصار إلا عمر بن الخطاب فإنه تقلد سيفه وتنكب قوسه وانتضى فى يده أسهماً وطاف بالبيت سبعا وصلى متمكناً وقال:

(١) سورة الأنفال الآية ٦٤.

(٢) سورة النحل الآية ٩٠.

«شاهت الوجوه لا يرغم الله إلا هذه المعاطس من أراد أن تثكله أمه وييتم ولده ويرمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي» فما تبعه أحد ومن ذلك اليوم الموافق سنة ٦٢٢ بدأ تاريخ الهجرة النبوية فنزلت آيات الجهاد وحدثت المناوشات والسرايا والغزوات فجهز النبي ﷺ سنة ٨ هـ جيشاً يبلغ عدده ٣٠٠٠ مقاتل لغزو فلسطين وسورية وأمر عليه مولاه زيد بن حارثة فسار حتى وصل إلى معان فقابلهم الروم بجيش كبير من قبائل العرب المنتصرة لخم وجذام وبلى فتحاربوا في قرية مشارف ومؤتة^(٥) من البلقاء فانكسر المسلمون وهزموا وقتل بضعة من قوادهم منهم جعفر الطيار جد آل هاشم في نابلس فلم ينثن عزم النبي ﷺ ولم يصبر على تلك الغلبة فسار إلى مكة وفتحها وأسلمت قريش ووفدت إليه أمراء الجزيرة مسلمين مؤمنين بدينه الجديد فكان يُصحبهم بالقرآن ليفقهوهم في الدين ويعلموهم الصلاة وقد ساعد على سرعة انتشار الدين الإسلامي نفوذ حكم الأمير في قبيلته فإنه عند ما كان يسلم الأمير تتبعه القبيلة بلا عناء فعم الإسلام الجزيرة كلها ووجه النبي ﷺ نظره لفتح سورية وفلسطين فجهز جيشاً وقاده بنفسه إلى تبوك فصالحه أهل آيلة وأهل مقتا وأكيدر دومة الجندل على الجزيرة ولم يصطدم بالروم وانقلب راجعاً ثم جهز جيشاً لثالث مرة سنة ١١ هـ وأمر عليه أسامة بن زيد ففاجأته المنية والجيش على تمام الاستعداد.

وإن محاولة النبي ﷺ ثلاث مرات فتح فلسطين وسورية لحجة بالغة على تطلعه ورغبته في ضمها إلى الجزيرة لأنها جناحها وقادمتها العراق.

٢٧ - النبي محمد ﷺ

كان عظيماً في نفسه أميناً في دعوة صادقاً في نبوته جليلاً في شريعته مصلحاً بأخلاقه وتعاليمه جمع كلمة العرب وأزال التفرقة من بينهم برابطة جديدة متينة وهي الإسلام الذي لم يكن مقصوداً على كونه ديناً وحسب بل كان

(٥) سميت هذه السرية بسرية مؤتة

رابطة قومية وسياسية واجتماعية، ألف بينهم وقذف بهم إلى العمور ففتحوه بنواة روحه وغرس عمله وأنا نورد هنا طائفة من القرآن الكريم والحديث الشريف النفيسة المدبجة بالحكمة والفضائل.

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَآ إِلَى الْحُكَامِ ﴾ ^(١) ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ ^(٢).

﴿ وَالْعَصْرِ ﴾ ^(٣) ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ ^(٤) ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ ^(٥) الدين المعاملة. الدين النصيحة.

﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ ^(٦) ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ ^(٧)

﴿ وَلَا تَنْزِعُوا عَنْ أَهْلِ الْبَيْتِ وَأَقْرَبَ رِجَالِكُمْ ﴾ ^(٨)

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ ^(٩)

﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ ^(١٠)

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ﴾ ^(١١)

ليس المسلم الذى يشبع ويجوع جاره وقال فى خطبة حجة الوداع: استوصوا بالنساء خيراً [راجع نموذج الفضائل الإسلامية]. ولما قبض النبى ﷺ ارتد

(١) سورة البقرة الآية ١٨٨.

(٢) سورة البقرة الآية ١٩٠.

(٣) سورة العصر.

(٤) سورة الشورى الآية ٤٠.

(٥) سورة آل عمران الآية ١٠٤.

(٦) سورة الأنفال الآية ٤٦.

(٧) سورة البقرة الآية ٢٥٦.

(٨) سورة الكهف الآية ٢٩.

(٩) سورة البقرة الآية ٢٦٣.

العرب ورجعوا إلى دينهم القديم لأنهم أسلموا عصبية وتبعوا أمراءهم قبل أن يرسخ الدين في نفوسهم أو تعرف القبائل ما هو الإسلام فقتلوا المعلمين وطردوا المفقهيين وامتنعوا عن أداء الزكاة وادعى كثير منهم النبوة فحاربهم الخليفة أبو بكر حتى ثابوا إلى رشدهم وأن عتوا للإيمان بعد جهاد عنيف.

٢٨ - إنفاذ جيش أسامة

ابتدأ أبو بكر أعماله بأن أنفذ بعث رسول الله ﷺ الذي كان مجهزاً بقيادة أسامة بن زيد وعدده بين ٧٠٠ - ١٠٠٠ وزُوِّدَ بوصية جليلة وهى صفحة نيرة من أخلاق أبى بكر قال: «لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً وتحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لله وسوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له». وقصارى القول أنها خير مثال للوصايا الإنسانية وجديرة بأن تكون قدوة حسنة لقواد جيوش عصرنا المتمدن الذين أمروا بقتل الأطفال وهتك النساء وتخريب البنايات وقطع الأشجار وهدم الكنائس. فسار أسامة بسريته إلى أن وصل أبني بناحية البلقاء شرقى الأردن وأوقع بقبائل قضاة ورجع بعد أربعين يوماً. فأظهر أبو بكر الحكمة بإنفاذ جيش أسامة وهو بحاجة لجند يخمد بهم ثورة الردّة ليوم العرب الذين مر بهم الجيش أن للمسلمين قوة عظيمة لا طاقة لهم بها. وقد خسر العرب فى تحقيق الأهداف المطلوبة فى هذه الغزوات الثلاث ولكن لم تثبط همّتهم وكرروا بجيش لا بشرنمة طالبين الفتح لا الغارة قاصدين الاستيطان لا الاصطياف.

٢٩ - وقعة اليرموك

صعب على أبى بكر ظفر الروم بالمسلمين فاستنصر العرب واستجاشهم ووجه خالد بن سعيد بن العاص إلى تيماء فذهب وصدمه الروم بجموع كثيرة أكثرها من العرب المنتصرة بهراء وتنوخ ولخم وسليم وجذام وغسان ونزلوا من دون زيزاء بثلاث مراحل فلما قدم خالد أعروا منازلهم وحطوا بين «فجل» وزيزاء

والقسطل^(٤) وبعد قتال فل جيش خالد وارتد مخذولاً فعزله الخليفة وولى مكانه يزيد بن أبى سفيان ومعه وجوه مكة وأشرافها وغايته البلقاء وعزّزه بثلاثة أمراء وهم (١) عمرو بن العاص ووجهه إلى فلسطين فأخذ عن طريق المعركة إلى أبله «العقبة» (٢) الوليد بن عقبة ووجهته الأردن ثم استبدله بشرحبيل بن حسنة وسلك طريق تيوك (٣) أبو عبيدة بن الجراح وهدفه حمص وطريقه البلقاء وعلياء الشام وأمر يزيد على الجميع وزوّده بوصية وهى:

«إنى قد وليتك لأبلوك وأجربك فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك وإن أسأت عزلتك.. إذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدهم إياه وإذا وعظتهم فأوجز فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً وأصلح نفسك يصلح لك الناس الخ».

فسار الأمراء وأوغلوا بجيوشهم وتغلغلوا فى أحشاء البلاد فنشرت منهم طوابع الروم ظانين أنها غيمة عما قريب تقشع. فلما رأوهم اقتحموا المدن وجاسوا عوراتها هبوا من غفلتهم وجمعوا جيشاً من العساكر والمقاتلة زهاء ١٥٠ ألف مقاتل. ويقول جبون: إنه كان فى هذا الجيش ٦٠ ألف جندى عربى بقيادة جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة. فناجزوا المسلمين وهم متفرقون ليزعزعوا قوتهم ويبلغوا أربهم لأن وقفة قوادهم كانت شبه مثلث رأسه فى البلقاء مع يزيد «لحفظ خط الرجعة» وطرقاه الواحد فى الجنوب الغربى من فلسطين مع ابن العاص والآخر مع أبى عبيدة فى الجنوب الشرقى من حوران وفى الوسط «الأردن» شرحبيل «خط المواصلات» ففطن المسلمون لمقصد الروم وعرفوا نياتهم فأشار عمرو بن العاص بأن توحد القوى ويتراجعوا إلى أطراف سورية ويستشيروا الخليفة. أما أبو عبيدة فرأى مبادرة الروم ومحاربتهم فخالقوه وأجمعوا على رأى عمرو وعسكروا فى اليرموك^(٥) وأرسلوا إلى أبى بكر فأشار عليهم بالاتحاد ريثما

(٤) قرى صغيرة متهمة فى شرقى الأردن قرب مادبا

(٥) هو نهر صغير يصب فى الأردن بعد خروجه من بحيرة طبرية وكلمة يرموك معركة عن

اللغة اليونانية «يرموكس» Hieromax

يأتيهم المدد وأمر خالد بن الوليد قائد جيوش العراق أن يأخذ نصف من معه من الجند وينصرف مسرعاً إلى الشام فامتثل الأمر وسار بقطعة من الجيش فصرّ بتدمير وأغار على جمع من تغلب وقلب وقاتل بنى مشجعة واتى إلى ثنية العقاب. وأغار على غسان يوم عيد فصحهم ثم وفد على المسلمين فى اليرموك فوجد كل أمير يتساند على جنده فقال لهم: إن اليوم يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغى أخلصوا جهادكم.. وأشار عليهم بأن يتناوبوا الإمارة العامة فقتلوا منه وولوه إياها فعبأهم تعبئة فنية «كراديس كراديس». ووضع نفسه فى المقدمة يقودهم إلى الإمام وفى القلب أبا عبيدة وفى الميمنة عمرو بن العاص وشرحبيل وفى الميسرة يزيد بن أبى سفيان والقعقاع بن عمرو. وكان قائد الطلائع قباث بن اشيم والقاص أبا سفيان بن حرب يشجع الرجال ويقص عليهم نبأ البطولة والثبات. فلما استعرضوا الروم قال رجل لخالد «ما أكثر الروم وأقل المسلمين!!» فأجابه «ما أكثر المسلمين وأقل الروم إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان» وهناك كان يستعد الجيشان لمعركة فاصلة فإما أن يفوز المسلمون ويسودوا على سورية وفلسطين ومن هناك إلى مصر والمغرب والأندلس أو يردهم الروم على أعقابهم إلى مهدم وباديتهم. فلما اصطدم العسكران أظهر الروم من البسالة والصبر ما كاد يزيل المسلمين عن مواقفهم لولا أن النساء حملن العصي والرماح والعمد وضررن بها وجوه الخيل إذا لوت وحرضنهم قائلات «إلى أين يا حماة الإسلام» فصمدوا وقد شد الروم على ميمنتهم فكشفوها وسحقوها ثلاث مرات وهم صابرون وأبو عبيدة يتخطى الصفوف فيشجع الجمع ويضمد جروح الجرحى ويعدهم بالنصر إلى أن فازوا وانسحب الروم من أمامهم معتصمين ببيسان تاركين أسلابهم والغنائم. وقد اختلف المؤرخون فى عدد الجند فقال ابن الأثير إن جنود العرب كانت ٤٦ ألفاً والروم ٢٤٠ ألفاً أى أن الجندي العربى يقابل خمسة من الروم. وقال المطران الدبس فى «موجز تاريخ سورية» إن العرب كانوا ٤٠ ألفاً والروم مئتين ألف ومنهم من بالغ ومنهم من اعتدل والحقيقة أقرب إلى الصحة كلما قل العدد.

كانت هذه المعركة مفتاح النصر ومقدمة للاستيلاء على سورية وفلسطين وبما أن جميع المعارك الحربية التي حدثت بالقرب من هذه البقعة كانت فاصلة فإننا نورد هنا بعضها.

١ - وقائع مجدو: بين مصر والعراق وما كان يلحق فلسطين من عواقبها.

٢ - وقعة اليرموك: التي زال بها ملك الروم عن الشرق.

٣ - معركة حطين: بين طبرية والناصرية وهي المعركة التي قضى بها صلاح الدين على الأفرنج وأخرجهم من فلسطين.

٤ - اصطدام الترك بالماليك في اللجون ورجوعهم المهقري.

٥ - معركة مرج ابن عامر: بين جنين والناصرية التي هزم فيها اللنبى جنود الألمان والأتراك وأسر منهم خمسين ألفاً.

كانت نتائج هذه الملاحم الكبرى فى تلك البقعة القاضية وفاصلة بين المتنازعين فمن فاز ملك البلاد ومن غلب على أمره خسرهما ورجع مخذولاً. ولم يك هرقل متوقعاً هذا الانكسار فلما فل جيشه جزع وانسحب إلى شمال سورية وولى أخاه «ثيودور» القيادة العامة وبعث إليه القواد والعساكر وطلب النجدة من قومه ليكرّ ثانية على العرب ويجلبهم عن البلاد. أما العرب فإنهم ولوا بشير ابن كعب الحميرى مدخل اليرموك كى لا يقطع عليهم العدو خط المواصلات ونشطوا إلى فتح دمشق وقد فاجأتهم وفاة الخليفة أبى بكر واستخلاف أمير المؤمنين عمر. فحاصروا المدينة سبعين يوماً ودخلها خالد عنوة وأبو عبيدة صلحاً. وقد اختلف المؤرخون فى الوقت الذى عزل فيه خالد أكان قبل فتح دمشق أو بعده والأرجح أنه قبله لأن شروط التسليم والمعاهدة ومخابرة الخليفة كانت كلها باسم أبى عبيدة الذى استخلف على دمشق يزيد بن أبى سفيان وانقلب إلى فحل (آبل) شرقى الأردن لمحاربة رافضة جيش الرومان الذين آووا إلى بيسان فوجد المياه والأحوال والمستنقعات محيطة بالمدينة وقد حجزت المسلمين عن التقدم فكتبوا يستشيرون الخليفة ولا نية لهم بأن يرموا إلى منطقة فحل حتى يأتى جوابه فظن

الروم بهم ضعفاً واغتروهم فوجدوا المسلمين على حذر وقاتلهم وهزمهم فغاصت أرجلهم في الوحل فأتوا على آخرهم وكان نصراً مبيناً وسمى ذلك اليوم «ذات الردغة» فانصرف أبو عبيدة بخالد ومن معه إلى حمص. فلنتركه وشأنه ولنذكر ما تم وجرى في فلسطين.

٣٠ - أجنادين^(٥)

محل واقع بين بيت جبرين والرملة كما أجمعت على ذلك كتب التاريخ وياقوت وقد اختلف المؤرخون في وقعة أجنادين، ومن يستقصى التواريخ العربية يشتبه عليه أنه حدث موقعتان متعاقبتان والحقيقة أنها موقعة واحدة لأن العرب لما قدموا البلاد كان كل أمير مستقلاً غير مرتبط بالآخر فانسابوا في داخل البلاد فلما نشط الروم لناهضتهم تركوا ما فتحوه وانضموا إلى بعضهم في اليرموك تحت لواء خالد بن الوليد. وبعد انتصارهم ذهبوا إلى دمشق ففتحوها ثم انتشروا ثانية يفتحون ويغنمون فسار عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة إلى بيسان ففتحها صلحاً وفتح أبو الأعور السلمي طبرية سنة ١٤هـ سنة ٦٣٧م على صلح دمشق وأن يشاطروا المسلمين المنازل في المدينة وما أحاط بها مما يصلها لينزل فيها القواد. ثم قصد عمرو أشغال حامية الروم وعساكرهم المرابطة في المدن المسورة خشية اجتماعهم فيؤلفوا قوة كبيرة ورأى أن يناضلهم غير مجتمعين فسرح يزيد بن أبي سفيان أخاه معاوية لحصار قيسارية وانطلق علقمة بن مجرز لحصار غزة وعلقمة ابن حكيم ومسروق بن فلان العكي لقتال إيليا «القدس» وأبو أيوب المالكي إلى الرملة ونهض هو جنوباً فأقام على أجنادين وفتحها سنة ١٥هـ سنة ٦٣٧م. وقتل في هذه الوقعة الأمير عون ابن الملك النعمان بن المنذر جد أسرة أرسلان ثم ساحت القواد في فلسطين ففتحوا غزة واللد وسبسطية وسابلس ويافا وعمواس وبيت جبرين واستعصت الرملة والقدس وقيسارية وعسقلان فاجتمع معظم

(٥) نزل ما ورد في كتب التاريخ كان سهواً وتحديد المكان كان مغلوطاً وربما كانت اجنادين جنين أو اللجون أو طولكرم على حسب ما ورد في سير الحوادث الدالة على أنها واقعة بعد مرج الروم «ابن عامر» حيث تكثر المياه.

الجيش لحصار القدس وقد بلغ ٣٧ ألف مقاتل وكانت السماء ممطرة فنزل خالد بن الوليد مما يلي باب أريحا وعروة بن مهلهل مما يلي طريق الرملة وواصلوا الحصار أربعة شهور.

٣١ - فتح باب المقدس

عجز الروم وأيقنوا أن دولتهم دالت وأنهم مأخوذون لاسيما والمسلمون يحترمون بيت المقدس ويقصدونها فلا يسمحون بها لغيرهم فتناجوا بينهم وأقروا على التسليم وطلبوا إلى جيش أبي عبيدة أن يصلحهم على صلح أهل مدن الشام وأن يكون المتولى للعقد الخليفة عمر بن الخطاب فكتب إليه بذلك فحضر إلى الجابية وقدم عليه رسل إيليا فتلقاهم المسلمون براية الأمان وصالحوهم على الجزية وأنموهم على القدس وحيزها والرملة وحيزها وهذه شروط المعاهدة التي كتبت في الجابية كما أوردتها الطبري وهي :

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان :

أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقض منها ولا من حيزها ولا من صلبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود. وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم. ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيليا من الجزية. ومن أحب من أهل إيليا أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان.. فمن شاء منهم قعد وعليهم مثل ما على أهل إيليا من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصدوا حصادهم. وعلى ما في هذا

الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية كتب سنة ١٥هـ شهد خالد بن الوليد، وعبد الرحمن بن عوف، وعمر بن العاص، ومعاوية بن أبى سفيان .

أما معاهدة الرملة فهى عين معاهدة بيت المقدس، وقد أورد الأنس الجليل^(١) زيادة على هذه العهد منه :

١ - ألا تبني كنائس ولا تتجدد فى خطط المسلمين إذا هدمت.

٢ - أن يضيفوا المسلمين ثلاثة أيام بلياليها.

٣ - ألا يواروا جاسوساً ولا يكتموا غشاً للمسلمين ولا يمنعوا من أراد الإسلام.

٤ - ألا يبيعوا خمرًا ولا يضرروا بأحد من المسلمين.. الخ.

فلعل الزيادة التى ضمها الأنس الجليل للمعاهدة المسطورة فى تاريخ الطبرى هى ذيل أضافها عليها الملوك والخلفاء المتأخرون بحسب الظروف وإلا فالطبرى أولى بدرجتها لأن تاريخه مفصل وقد بناه على الإسناد والتحقيق.

وبعد أن أمضى العهدة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شخص إلى بيت المقدس بثيابه البسيطة وموكبه الديموقراطى لا كما نراه من قواد وملوك القرن العشرين الذين لا يسиров إلا بالقطارات الخاصة أو «الاتوموبيلات» الفخمة بأبهة عظيمة وحاشية مهيبه فقدم المدينة وخيم خارجها إلى أن سلموها فدخلها وزار كنيسة القيامة فلما أدركته الصلاة خرج منها وصلى أمامها حيث كنيسة سيدتنا مريم فأنشئ هناك جامع ولم يصل فى القيامة خشية أن يدعيها المسلمون ويحولوها إلى مسجد.

ثم طلب إلى البطريك « صفرونيوس » أن يريه مكان ميكل سليمان فذهب وإياه ودله عليه فلما شاهده مزلة قذرة وأطلالاً دثرة دهش وأخذ يحفن التراب وينحضه بكفيه فتبعه من معه حتى تصبب عرقاً وأمر ببناء مسجد فوق الصخرة

(١) لتأليف مجير الدين الحنبلى

فى الحرم الشريف الذى يقده جميع مسلمى الأرض ثم أمر علقمة بن مجرز على نصف فلسطين الجنوبى وقاعدته إيليا وعلقمة بن حكيم على نصفها الآخر وعاصمته الرملة ورجع إلى الحجاز عاصمة الخلافة. وبعد سبع سنين فتح معاوية بن أبى سفيان مدينة قيسارية بوشاية رجل يهودى دلّ العرب على نفق فدخلوا منه إلى المدينة وفتحوها سنة ٢٣هـ فتحت عسقلان ولم يبق للروم مدينة ولا قرية فزال ملكهم عن فلسطين وأصبحت البلاد عربية فى حكومتها وشعبها.

طاعون عمواس

كانت عمواس قرية يزيد بن أبى سفيان وهى اليوم من ناحية بنى مالك تبعد ١٧ كيلومتراً إلى الشمال الغربى من القدس انتشر منها الطاعون فمات أمين الأمة الإسلامية أبو عبيدة وأناب مكانه معاذ بن جبل فطعن وكلاهما مقبور فى غوربيسان ويجاورهما قبر شرحبيل بن حسنة. وتوفى أيضاً يزيد بن أبى سفيان. ولما عين عمرو بن العاص أميراً عاماً للجند أمرهم أن يتفرقوا ويتوزعوا على رؤوس الجبال متباعدين عن بعضهم فخف الوباء وانقطع المرض.

ويقدر مجموع من توفى بهذا الطاعون خمسة وعشرين ألف نفس وليس هذا العدد بكثير لما شاهدناه فى الحرب العظمى.

وفى سنة ٦٣٨م تم للمسلمين الفتح فقسموا البلاد إلى أربع ولايات «أجناد» فكانت فلسطين قسمين :

- ١ - جند الأردن وعاصمته طبريا وبلادها بيسان وعكا والقلعة.
- ٢ - جند فلسطين وحاضرتة الرملة وبلادها القدس وعسقلان وقيساية وأريحا ويافا وعمان.

٣ - دمشق وبلادها بيروت وصفد وصيدا.

٤ - الثغور التى فصل العباسيون جزءاً منها سنة ١٧٠هـ وسموه العواصم وحاضرتها حمص وحلب وأنطاكية وطرابلس. أما مدينة القدس فكان لها امتيازات خاصة لما لها من الاحترام الدينى فى نفوس المسلمين وقد التبس على

بعض المؤرخين فظنوها مستقلة عن الرملة والحقيقة أنها كانت تابعة إليها سنة ٢١هـ تعيين معاوية والى دمشق والأردن حاكمًا على البلقاء والأردن وفلسطين والسواحل وانطاكية وكليكية ومعرة النعمان ولما استخلف عثمان أضاف إليه جميع البلاد السورية فانتدب معاوية علقمة بن حكيم الكنانى واليًا لفلسطين وأبا الأعور السلمى للأردن.

٣٢- إدارة البلاد وأسباب نجاح العرب فى فتوحهم

(أ) إدارة البلاد

أبقى العرب البلاد على ما كانت عليه ، فظل أكثر السكان يدينون بدينهم متصلين برئيسهم الرومانى فى القسطنطينية كما يرتبط الآن جميع المسلمين بالخليفة العثمانى ويمارسون لغاتهم. فأهل فلسطين كانوا يتكلمون اليونانية وأهل مصر القبطية وأهل العراق الفارسية واتخذتها الحكومة لغات رسمية فى دواوينها إلى أن ولى الخلافة عبد الملك بن مروان فأبطلها وألغاهما وأستبد بها باللغة العربية وضرب الدنانير الإسلامية فأصبحت الحكومة العربية وقتئذ مستقلة استقلالاً اقتصادياً ولغوياً وسياسياً. فتهافت الأعجام على تعلم اللغة العربية ليستفيدوا من حرفة الكتابة لأن لغاتهم أهملت فتعربوا ودخل أكثر العجم فى الدين الإسلامى وتدينوا به فأصبحت البلاد عربية إسلامية محضة يتخللها شذمة قليلة من غير المسلمين.

(ب) أسباب النجاح^(٥)

مما يدعو إلى الإعجاب بهمة العرب وإعظامهم تفوقهم على غيرهم بالرغم من عدم انتظامهم فإنهم تغلبوا على الممالك الراقية ودكوا عروش الحكومات المؤسسة التى كان لها الجند المنظم ولديها الحصون المنيعة وبيدها السلاح والذخائر وقد يعلل كثير من المؤرخين هذا النصر وينسبونه إلى عوامل معقولة وأسباب علمية مهدت لهم السبل لد ظلهم حتى أقصى المعمورة وهذه هى الأسباب:

(٥) راجع زيدان - تاريخ التمدن الاسلامى .

١ - نشاطهم وخفة أثقالهم واكتفاؤهم بالقليل من الحاجيات ووفرة جمالهم ووسائط نقلهم.

٢ - اعتقادهم المتين في نص الآية ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾^(١) ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾^(٢) ومن الأحاديث « الجنة تحت ظلال السيوف »^(٣).

٣ - مهارتهم وفروسياتهم ونجابتهم خيلهم وتفوقهم على عدوهم فى المبارزة وإتقانهم رمى النبال.

٤ - عظمة رجال النهضة الإسلامية مثل عمر بن الخطاب وأبى بكر وأبى عبيدة وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ومعاوية.. الخ.

٥ - الصبر والمطولة وقلة حاجتهم للزاد والعلف الذى كان يبهظ عدوهم فيمل القتال قانعا بالسلامة.

٦ - العصبية الجنسية فإن القبائل العربية المسيحية التى كانت خاضعة إلى الحكم الرومانى الأجنبى صافحت إخوانهم العرب وانضمت إليهم وحاربت معهم الرومان وهنا رجحت جامعة اللغة على جامعة الدين.

٧ - المحافظة على خط الرجعة فإنهم كانوا حريصين على خط رجعتهم حتى لا يقطعها العدو وينطوى عليهم فيأخذهم أسرى.

٨ - ظفر المسلمين بالروم فى واقعة اليرموك فإنه أكسبهم قوة معنوية واحتقروا عدوهم فاستصغروا شأنه وطمعوا فيه.

٩ - ظلم الرومان للسكان وفساد الأحكام حتى نقم الأهالى أحكامهم وملوا ولايتهم وتمنوا تبديلها.

(١) سورة المنافقون الآية ١١

(٢) سورة الأعراف الآية ٣٤

(٣) ورد فى سنن الترمذى

١٠ - اليهود فإنهم كانوا آلة نقمة للعرب من الأهالي وأداة انتقام ودليلا للطرق
شأنهم مع كل فاتح.

١١ - عدل المسلمين والتسوية بين الناس فلم يكونوا يفرقون بين أمير وحقير
ورفيح ووضع « ديمقراطية بحتة » .

١٢ - استبقاء الناس على ما كانوا عليه فلم يتعرضوا لدينهم أو معاملاتهم
أو أحكامهم القضائية والعرقية.

١٣ - وفرة الغنائم فقد فاض على المحاربين بحر من ذهب فكانوا يجنون من
فتح البلاد غنى عاجلاً وغنائم جاهزة حتى إن كثيراً من العرب المنتصرة اعتنقوا
الدين الإسلامي وحاربوا حباً في المال.

١٤ - ضعف الفرس والرومان باختلافاتهم الداخلية وعدم إخلاص القواد
للوكلهم وأمرائهم والذي يقابل بين فتح سورية ومصر وبين فتح العراق يستغرب
كيف خضعت الأوليان واستمعت الثالثة وأتعبت المسلمين فظلت بعد فتحها
محافظة على لغتها وعاداتها ولم يمض عليها قرن ونصف حتى استبدلت
حكومتها الفارسية الوثنية بحكومات فارسية إسلامية فاصطفت الدين فقط وأنفت
أن تتعرب كما فعلت الحكومات الأوروبية فإنها تنصرت مع المحافظة على
جنسيتها ولغتها والسبب في ذلك أن دولة الرومان كانت مستعمرة لسورية فلما
غلبت انحسرت عن البلاد وظل السكان وأكثرهم العرب فاندغموا في الحكومة
الإسلامية والقومية العربية وأصبحوا أمة واحدة. أما العراق فكانت حكومته
فارسية وكان سكانه عجماً فلما سقطت دولتهم ظلوا فرساً فاعتنقوا الدين الإسلامي
ولكنهم لم ينسوا استقلالهم فتربصوا حتى سحنت لهم الفرصة فاستعادوا ملكهم
وقد حاولوا مرات قلب الحكومة العربية فقتلوا عمر بن الخطاب وتحزبوا
لآل البيت وساعدوهم في ثوراتهم ونصروا بنى العباس ولا غرض لهم من كل هذا
إلا دك الدولة العربية واسترجاع دولتهم الفارسية.

٣٣ - الفتح العربي الاسلامى والخلفاء الراشدون

شرعت الحكومة العربية توسع حدودها وأطرافها فتجاوزت سورية ومصر وشواطئ افريقية الشمالية والعراق وإيران والأفغان إلى أن توفي عمر بن الخطاب وانتخب عثمان بن عفان فضعف عن ضبط البلاد لتغير الأحوال وتفرق النزعات والآراء فهم بادارة المملكة كما يريد مروان بن الحكم ومعاوية بن ابى سفيان فأخذ برأيهما وولى أهله الأمصار وتعصب لقومه فعزل أهل السابقة فى الاسلام والشهرة فى الفتوح. فاغتنم هذه الهفوة يهود الحجاز الذين دخلوا فى الدين الاسلامى ليفسدوه ويهدموا أركانه فطافوا الأمصار وقدم زعيمهم الأكبر عبد الله بن سبأ «ابن السوداء» الشام ليوغر الصدور مبشراً بكلمات براقية منها: «إن معاوية يقول: المال مال الله إلا أن كل شئ لله يريد أن يحتجنه دون الناس ويمحو اسم المسلمين ويتلو الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(١) وقال أعجب ممن يقول برجة المسيح ولا يقول برجة محمد وكيف تعصون آل بيت نبيكم» ووضع أحاديث كثيرة وزور كتباً ورسائل أرسلها إلى البلدان يؤلب على عثمان. فاختمرت الثورة ونضجت فى أفكار المسلمين فاشتعلت الفتنة واضطربت فى كل الأقطار خلا سورية لأن معاوية كان ساهراً يقظاً فحرج الثوار من مصر والعراق إلى المدينة ناقمين من أعمال عثمان ومطالبين بالرجوع إلى سيرة العمرين وبعضهم يقول: إن علياً أحق بالخلافة من سواه فانجلت هذه العاصفة عن قتل عثمان واختيار على مكانه وشذ طلحة والزبير وخدعا عائشة أم المؤمنين زوج النبی وخرجوا إلى العراق وخالفوا علياً فحاربهم وظفر بهم «فى وقعة الجمل» فقتل الاثنان وأسرت عائشة^(٢) وأمتنع معاوية بسورية ولم يبايع لعلی وأخذ يتهمه بأنه رأس الضلالة وأنه هو الذى ألب على عثمان وأوى قتلته فاجتمع بنو أمية حوله وعاضده عمرو بن العاص على أن يعطيه مصر طعمة. فغضب على وهب لمقاتلته ومناجزته فالتقوا بصفين سنة ٣٦ هجرية

(١) سورة التوبة الآية ٣٤

(٢) الصحيح أن علياً كرم الله وجهه أعادها معززةً مكربةً إلى المدينة، فلم تؤسر.

واختلفت بينهم الرسل وتكرر السفراء طمعاً في الصلح فلم يتوفقوا لخير. وفي سنة ٣٧ هجرية ابتدأت الحرب وقد أظهر جند الأردن شجاعة فائقة. ثم اتفقوا على تحكيم رجلين فصلاً للخلاف ووفقاً بالمسلمين فاختار معاوية عمرو بن العاص داهية العرب ورضى علي بأبي موسى الأشعري. ولما اجتمع الحكمان وتفاوضا كاد عمرو أبا موسى وقال له لنخلع الرجلين حقناً للدماء ويكون الأمر شورى فخُذِعَ أبو موسى وقام خطيباً فخلع الرجلين (عليا ومعاوية) ثم قام عمرو فخلع علياً وأقر معاوية قلم ترض شيعه علي بهذا الحكم وافترقوا مختلفين. ومن هنا بدأ أمر علي يضعف ويضمحل وشأنه يسفل وشأن معاوية يعلو حتى قتله ابن ملجم وباع جنده ولده الحسن ثم انتقضوا عليه فاستشار الحسن أخاه الحسين في التنازل عن الخلافة فنهاه قائلاً « إياك أن تصدق أحداثة معاوية وتكذب أحداثة أبيك » فلم يسمع منه وخلع نفسه بعد ستة شهور من حكمه وباع معاوية وسلم إليه الكوفة عاصمة أبيه في آخر بيع الأول سنة ٤١ هـ فسمى هذا العام «عام الجماعة» لأنهم أجمعوا به على خليفة واحد ولكن الخوارج كثروا وعصوا على الخليفة فكان كلما قضى على فرقة تنبت أختها وظلت طوائفهم تتعاقب حتى حين. فالطوائف الشيعية والزيدية والدرزية والإسماعيلية والإباضية هي بقية أولئك الخوارج الذين تكونت نواتهم من نفثات ابن سبأ والذين حاربوا بنى أمية وبنى العباس وكادوا يهدمون الدين الاسلامي لولا أنه كان فتياً ويقوضون الدولة العربية لولا عصبيتها القومية.

٣٤- نبذة من تاريخ القرآن الكريم:

إن للقرآن أهمية كبرى في توحيد كلمة العرب وفتوحاتهم العظيمة نذكر منها هنا شيئاً عنه :

نزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم في مدة ٢٠ سنة فكانوا يكتبونه على الرقاع وعظام الأكتاف وعصب النخل واللخاف أو يستظهرونه ويسمون حفظته الحفاظ. ويقسم القرآن بحسب محل النزول إلى مكى ومدنى. أما باعتبار الناسخ والمنسوخ فله أقسام: قسم ليس فيه لا ناسخ ولا منسوخ وهو ٤٣ سورة الفاتحة، يوسف، يسين .. الخ. وقسم فيه الناسخ فقط وهو ست الفتح،

الحشر، المنافقون، الخ. وقسم فيه منسوخ فقط وقسم فيه ناسخ ومنسوخ وهو ٢٥ سورة البقرة، النور، الخ.

والنسخ على ثلاثة أضرب: أحدها ما نسخت تلاوته وحكمه، الثاني ما نسخ حكمه دون تلاوته، الثالث ما نسخت تلاوته دون حكمه وكل ذلك تم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فلما قبض وارتد العرب وقتل أكثر الحفاظ في غزوة اليمامة أشار عمر بن الخطاب على أبي بكر بجمعه فتردد ثم جمعه من تلك المخطوطات ومن صدور الرجال. وأيقوه عند أبي بكر حتى مات فأخذه عمر فلما قبض بقي عند ابنته حفصة وفي خلافة عثمان انتشر المسلمون في كل الأقطار فذهب القراء في تلاوته مذاهب شتى فشهد حذيفة بن اليمان اختلافًا بين المسلمين في قراءة بعض الآيات ورأى بعضهم يفضل قراءة أبى موسى على ابن مسعود فأنابا عثمان بذلك وأنذره بسوء العاقبة فبعث إلى حفصة بنت عمر أن أرسلى الصحف لنسخها ونردها إليك فأرسلتها فدعا عثمان أجلة الصحابة وأمرهم أن ينسخوا القرآن ويستعينوا على القراءة بما حفظه القراء وقال لهم أن اختلفتم في شيء فاكتبوه بلسان قريش ففعلوا^(١) علوا ذلك سنة ٣٠ هـ وكتبوا ستة مصاحف فبعث عثمان بأربعة إلى الأمصار مكة والبصرة والكوفة والشام وأبقى اثنين في المدينة، والمصاحف التي تتداولها الآن هي فرع عن ذلك.

كتب القرآن بلا شكل ولا إعجام حتى أيام زياد فوضع نقطاً لونها يخالف لون الكلمة (إعجام غير واف) ثم وضع أبو الأسود الدؤلي نقطاً ليعتد بها الاسم والفعل والحرف وربما اقتبس هذا من السريان أو الكلدان. أما صور الحركات التي وصلت إلينا وهي الضمة والفتحة والكسرة فقد وضعها نصر بن عاصم بأمر الحجاج بن يوسف وجعلها أفراداً وأزواجاً. ثم أضيف إليها الحركات المماتة وهي الإمالة (e) والروم (ü) والإشمام (ð) فكانت لها أوضاع خصوصية وزيدت عليها علامات أخرى مقتطعة من كلمات تؤدي المعنى المراد نحو مدّ () شدّ (). ولكن حفنى بك

(١) ومن هنا تفرعت القراءات الشاذة والصحيحة فأبيدت الفاسدة ولم يبق إلا القراءات السبع وأشهرها قراءة حفص (راجع الاتقان).

ناصر قال في كتابه حياة اللغة العربية : إن الشكل موجود قبل الإسلام وأسد حجته بادلة وبراهين قاطعة.

ومن المسلمين من يعتقد أن القرآن قديم ومنهم من يقول إنه حادث. ومحدث هذه البدعة درهم بن الجعد، أما المأمون فقد امتحن العلماء القائلين بقدمه ونكل بهم المعتصم من بعده.

٣٥ - آثار الخلفاء الراشدين في فلسطين

الأبنية التي على رؤوس الجبال قد حولوها مناظر (مناظر) وجعلوها يشرف الواحد منها على الآخر فإذا داهمهم العدو أنذر بعضهم بعضاً نهراً بالدخان وليلاً بالنار فينتقل الخبر بسرعة كالتلغراف ويأتيهم المدد. ومن آثارهم تأسيس دور الضيافات وفرض عطاء للمجذومين وبناء الجوامع في القدس ونابلس وبيت لحم وغيرها.

٣٦ - أبطال النهضة الإسلامية

إن جميع النهضة القومية والانقلابات الاجتماعية يتقدمها أعمال تمهيدية تسهل لها النجاح. فالانتباه الفكرى والنبوغ الشخصى ركنا النهضة. وقد نبغ في الصدر الإسلامى أساطين عظام كان لهم القدح المعلى فى تكوين النهضة الإسلامية والدفاع عنها فجدير بنا أبناء الأمة العربية أن نرفع لهم التماثيل إقراراً بفضلهم واعترافاً بعظمتهم وتنوياً بأعمالهم لنشقى بهم النفوس المريضة ونداوى الهمم الضعيفة فنقتصر هنا على سير من فتحوا فلسطين وكانوا عاملاً كبيراً فى إحياء الأمة العربية فنقول :

١ - عمر بن الخطاب

عمر بن الخطاب من بنى عدى بطن من بطون قريش وكنيته أبو حفص كان تاجراً وله السفارة فى الجاهلية فإذا ما اختلقت قريش وقبيلة أخرى انتدبته وحده للمفاوضة ولا حق لسواه أن يشاركه فيها.

كان المسلمون ضعافاً حتى أسلم فاعتز الإسلام به وصحب النبي صلى الله عليه وسلم خير صحبة وكثيراً ما نزل القرآن بما أشار به وشهد غزوات بدر وأحد والخندق وبيعة الرضوان. ولما ولي الخلافة قال: (اللهم إني شديد فلينى وإنى ضعيف فقونى وإنى بخيل فسخنى إن رأيتم فى أعوجاجاً فقوموه) فأجابه أعرابى قائلاً: لو رأينا فىك أعوجاجاً لقومناه بسيوفنا. فحمد الله الذى أوجد فى قومه من يقوم أعوجاجه. وهو أول من وضع التاريخ الهجرى وفرض العطاء (رتب الرواتب) ودون الدواوين فأسس نظارة المالية والحربية والإعاشة وقسم البلاد إلى مناطق وعين عليها الأمراء ورتب الغزوات فى الشتاء (الشواتى) وفى الصيف (الصوائف) ورتب البريد مجاًئاً وأمر ببناء البصرة والكوفة وتخطيط شوارعهما بعرض ٢٠ ذراعاً والأزقة بعرض ٧ أذرع وحجر على المجذومين ومنعهم ملامسة الناس.

وأقام العيون (الاستخبارات) يوافونه بالأخبار وعين قاصاً (مفتشاً) يطوف على الأمورين ويحقق الشكايات سراً وعلناً ويحمل إليه ما وجده بالتدقيق. وأسس الحسبة (مجلس البلدية) لمشاركة الموازين والمكاييل ومراقبتها ولمنع الغش وتنظيف الأزقة والرفق بالحيوان فيجازى من حمله أكثر مما يطبق ويهدم البناء المحدث فى مجتمع السوق وحظر على الناس الازدحام فى الطرق وأمرهم أن يستروا الكنف وينحوا مئاعبها عن السبل. وكان إذا تكلم أسمع وإذا مشى أسرع وكان ديموقراطياً لا فرق عنده بين الملك والسوقة وحارثة الملك الغسانى جبلة بن الأيهم مع الفزارى مشهورة وقصة عبد الله بن عمرو بن العاص مع القبطى ظهيرة وقوله المأثور (مذكم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهم أحراراً) فكانت إدارته عرفية شديدة عادلة. كبح جماح الغطرسة البدوية وبنى عليها التساهل الحضرى.

كان يحب التجارة وحرّض قومه على مزاولتها فقال: (لا تلهكم الرئاسة وحبها يا معشر قريش لا يغلبنكم الغرباء على التجارة فإنها ثلث الإمارة) وكان إذا رأى فتى نشيطاً سأل عن حرفته فإن قيل لا حرفة له هان عليه وكان يكره الكسول ويكره من يقطف رأسه إلى الأرض وكان يقول للقراء ارفعوا رؤوسكم ولا تكونوا عيالاً على المسلمين كان يكره التنطع فى الدين والولع فى الزمرد فأمر

أن يجعل بإفطار رمضان وأن تمشي الناس مشية غيرناكسي رؤوسهم. وكان يقول للحجر الأسود إنني أعلم أنك لا تضر ولا تنفع. ولما أخذ الناس يعظمون الشجرة التي بويح تحتها النبي ﷺ قطعها وفي الحقيقة أنه من أعظم بناءة الإسلام ومكوني الأمة العربية. وفي خلافته فتحت سورية والعراق وإفريقية ثم فجع أبو لؤلؤة العرب بقتله.

٢ - خالد بن الوليد

هو من بنى مخزوم بطن من بطون قريش كان قائد فرسان قريش في الجاهلية (الأعنة والقبعة) فلما أسلم أنفذه النبي ﷺ مع سرية زيد بن حارثة لغزو الروم فكانت موقعة مؤتة واستشهد فيها القواد إلى أن رفع المسلمون الراية إليه فأخذها وقاتل حتى اندق في يده بضعة أسياف فسماه النبي سيف الله المسلول ثم اختاره أمير فرسان (سوارى) المسلمين وأبلى في فتح مكة البلاد الحسن وهدم صنم العزى وهو ينشد:

يا عزَّ كفرانك لا سبحانهك إنني رأيت الله قد أهانك

وفي غزوة تبوك بعثه النبي ﷺ إلى اكيدر دومة الجندل فأصره وكان ترساً وسوراً للمسلمين. وبعد أن قبض النبي ﷺ وارتد العرب وجهه أبو بكر لمقاتلتهم فأسلم بنو طيء قبل قدومه خوفاً منه ونهد إلى طليحة الأسدي الذي كان قد ادعى النبوة ففلَّ جيشه وهزمه وقصد (أم زمل) فقتلها وتفرق من معها وسار إلى بني تميم وتخلف عنه الأنصار منتظرين أمر الخليفة فقال لهم خالد (أنا الأمير وإلى تنتهي الأخبار ولو أنه لم يأت إلى كتاب ولا أمر ثم رأيت فرصة فكنت إن عملتُ بها الخليفة فاتثنى لم أعلمه حتى أنتهزما وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس فيه منه عهد أشاور قومي ثم أعمل. وها أنا قاصد ولست أكرهكم) فسار ثم لحقوه فقتل مالك بن نويرة أمير بني يربوع وتزوج امرأته فغضب عمر وطلب من الخليفة أن يقتص منه فأجابه: ارفع لسانك عن خالد فإنني لا أشيم سيفاً سله الله لقد تأول فأخطأ. واستفحل أمر مسيلمة وادعى النبوة ونكب جيش عكرمة وهزم جيش

شرحبيل فرماه أبو بكر بخالد فذهب وقد خاف فرار من معه ففصل الأحياء عن بعضها ليظهر بلاء كل قبيلة على حدة. وبعد حرب شديدة هزمه وقتله ولما أن هدأت الثورة الداخلية أرسله الخليفة إلى أسفل العراق ففتح الأبله ثم الحفير وقصد الحيرة فدفع إليه إياس الطائي ٩٠ ألف درهم جزية.

وقدّم إليه الفرس هدايا كبيرة فحسبها من الغنائم وأرسل خمسها إلى أبي بكر. وهزم الفرس على نهر الثني وعند الولجة وعلى نهر الليس فاتاه «الدهاقين» وصالحوه وسار إلى الأنبار ففتحها وزحف إلى عين التمر وامتلكها. وقد تضايق القائد عياض بن غنم واستصرخه فأجابه: (من خالد إلى عياض إياك أريد) فسار وهزم أمير دومة الجندل وأخذ الحصن وشرع يتم فتح العراق إلى أن بعثه أبو بكر إلى سورية فأخذ معه نصف الجيش ومرّ بتدمر وأتى المسلمين في اليرموك فوحد قواهم وخطب فيهم وعيى الجيش تعبى فنية وبعد قتال عنيف هزم الرومان ولم يبق لهم بعدها قائمة ثم ذهب إلى دمشق وفتحها وبعد أن عزله الخليفة عمر عن الإمارة العامة دخل صفوف المسلمين كجندى وحارب في بيسان ورجع إلى سورية فافتتح البقاع وفتح قنسرين وصالحه أهل حلب وفتح مرعشا وخرب حصنها حتى لا يعتصم به أهلها.

فدهش أمير المؤمنين من أعماله العظيمة وقال: (عجزت النساء أن تلدن مثل خالد لقد أمر نفسه يرحم الله أبا بكر كان أعلم مني بالرجال).

ثم استدعاه إليه وترضاه فعاتبه خالد بكلام قاس فأجابه عمر (ما عزلتك لريبة فيك ولكن اقتنت بك الناس فخفت أن تفتن بهم) وكتب بذلك إلى الأمصار وهي أعظم شهادة لحفظ كرامة خالد الذى ثل عرش الأكاسرة ودك أرائك القياصرة ولما اثته الوفاة قال عند احتضاره (لقد شهدت مائة زحفة أو زهاءها وما فى بدنى موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة وما أنا أموت على فراشة كما تموت العير فلا قرت أعين الجبناء) وفى الجملة فإنه رجل الإسلام وقامع الردة وبطل اليرموك ولو أردنا استقصاء أخباره لطال بنا البحث فلنترك تحليل هذه الروح العظيمة إلى نباهة القراء واستنتاجاتهم.

٣ - أبو عبيدة

هو عامر بن عبد الله بن الجراح ويتصل في فهر بنسب النبي ﷺ الذي لقبه أمين الأمة وهو أحد العشرة الذين بايعوا النبي وفي وقعة بدر كان أبوه مشركاً فتصدى له وهو يحيد عنه ثم قتله وهذا من أعظم الإيمان وأثبت المبادئ الصادقة والعقائد المتينة التي لا يحول دونها شفقة ولا حنان وقد اختاره القاروق قائداً عاماً لجيوش سورية فقام بوظيفته خير قيام وكان محترماً في قومه مستشاراً فيهم رفيقاً بضعفائهم معروفاً بالرأى والدعاء. سلمت إليه طائفة من دمشق صلحاً وحاصر فلول اليرموك في بيسان وحاربهم في فحل فأجهز عليهم. وسار إلى حمص ففتحها صلحاً وسلمت إليه معرة النعمان وحماة وامتنع أهل اللاذقية فاحتال عليهم وأمر بحفر سرب في الأرض يستر الفرس والفارس وأظهر لأهل المدينة أنهم انصرفوا ففتحوا الأبواب وخرجوا فلم يرعهم إلا ظهور المسلمين من كل جانب ودخلوها عنوة وفتح أنطاكية مرتين وكانت مشحونة بالمقاتلة ووضع فيها جيشاً يربط الأعداء لوقوعها على الحدود.

ولم تطب نفس هرقل عن الفتح فعاود الكرة وفاجأ العرب بجند كثيف فخطب أبو عبيدة في قومه قائلاً: (أيها الناس هذا يوم له ما بعده أما من حى منك فإنه يصفو له ملكه وأما من مات فله الشهادة ولا تكرهوا الموت. فإنه خير من حيلة المغلوب).

ولما طعن عمر قالوا له استخلف يا أمير المؤمنين فقال: (لو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته وقلت لربي إن سألني سمعت نبيك يقول إنه أمين هذه الأمة).

وقد توفي في طاعون عمواس ودفن في غور بيسان وله أوقاف كثيرة وبني مشهده الملك الظاهر بيبرس وأوقف عليه بلاداً وأرضاً واسعة.

٤ - عمرو بن العاص

هو من بني سهم بطن من بطون قريش وكان يعير بأمه لأنها سبية ولولا هذا الحيف الذي لحقه لزاحم على الخلافة. كان جزاراً وتاجراً وله مكانة سامية عند قومه لشهرته بالكيدة واختراع الحيلة وكان يلقب داهية قريش.

تأخر إسلامه ولكن حسنت صحبته وقاد سرية ذات السلاسل وفيها أبو بكر وعمر وكانت ليلة قِرة شديدة البرد فكلمه أبو بكر كي يسمح للعرب بوقود النار فأجابهُ لا يوقد أحد منهم ناراً إلا ألقيته فيها فشكوه إلى النبي ﷺ فقال: إني كرهت أن أذن لهم بوقود نار فيرى عدوهم قتلهم ويعطف عليهم فحمد رأيه وأرسله على صدقات عمان فلما قبض النبي أقبل فنزل بقرة ابن هبيرة فأكرم مثواه ولما عزم على الرحلة خلا به قرة وقال: إن العرب لا تطيب لكم نفساً بالإتاوة «الزكاة» فإن أعفيتموها من أخذ أموالها تسمع لكم وتطيع وإن أبيتم فلا تجتمع عليكم فقال له عمرو: (أكفرت بإقرة أتخوفنا بالعرب؟ فوالله لأوطئن عليك الخيل في حفش^(١) أمك).

وأعماله في فلسطين درجتها ملحصة فلا حاجة لإعادتها. كان شديد التطلع إلى مصر فهوّن فتحها للخليفة عمر حتى أذن له فصار بأربعة آلاف جندي ثم تبعته النجدات ففتح الفرما وبلبيس وأسر بنت المقوقس فجهزها وأعادها إلى والدها فسر بذلك وصالحه ولكن هرقل رفض الصلح فأقبل المقوقس إلى عمرو وعرفهُ أن الملك كره ما فعلت وأمر الروم بقتالك ولكنني لا أخرج مما دخلت فيه وإنما سلطاني على وعلى من أطاعني وارفق بالقبط فإنهم أعوانك فجمع عمرو عتدته وهاجم القسطنطينية فامتلأه وبث قواده فشرعوا يفتحون المدن والبلدان إلى أن تم له الفتح وقد تألف قلوب القبط فأعاد بطريركهم بنيامين الذي نفاه الرومان إلى منصبه ولم يقتصر عزمه على فتح مصر فقط بل جهز جيشاً واخترق الصحراء من النيل إلى البحر الأحمر ووصله إلى بركة التماسح. ولما أصاب أهل الحجاز مجاعة عام القحط والرّماة طلب منه الخليفة زاداً فكتب إليه (أما بعد يا لبيك ثم لبيك قد بعثت إليك بعير أولها عندك وآخرها عندي والسلام).

وهو الذي أبطل تقديم عروس النيل ولقد وصف مصر فقال: (مصر تربة غبراء وشجرة خضراء طولها شهر وعرضها عشر يكتنفها جبل أغبر ورمل أعفر يخط وسطها نهر ميمون الغدوات مبارك الروحات تجري فيه الزيادة والنقصان كجري

(١) الحفش: البيت الحفير القريب السقف من الأرض - والبيت الصغير من بيوت الأعراب - المعجم الوسيط.

الشمس والقمر له أوان يدرّ حلابه ويكثر عجاجه وتعظم أمواجه فتفيض على
الجانبين فإذا تكامل في زيادته نكص على عقبه كاول ما بدأ في جريته وطما في
ردته فيخرج مُحْفَرُوهُ يحرثون بطون الأرض ويبذرون بها الحب فبينما هي لؤلؤة
بيضاء فإذا هي عنبرة سوداء فإذا هي زمردة خضراء فإذا هي ديباجة زرقاء فتبارك
الله أحسن الخالقين).

ولما صرفه عثمان عن ولاية مصر حقدما عليه وحرك لسانه فاعتزل السياسة
وسكن الرملة إلى أن حدث الخلاف بين علي ومعاوية فكان من أكبر أنصار الثاني
وأعظم أعوانه ومستشاره في صفين وأحد الحكمين الظافر الذي ظل يمهّد لمعاوية
السبل ويسهل له الصعاب إلى أن أفل نجم علي وتكشّبت حدوده فأخذ طعمته
مصر وتملكها (ومن شاء الزيادة فليراجع ترجمة عمرو بن العاص تأليف حسن
إبراهيم حسن).



1
2
3

الفصل السادس

٣٧ - فلسطين أموية :

ب وفاة على بن أبى طالب انقرضت الجمهورية العربية وتبدلت حكومتها الشورية بملك عضوض. فكان الخلفاء الراشدون لا يرثون الخلافة عن آبائهم بل كانوا يتعينون باتفاق الأمة وإجماعها. وكل من كانت تضعف ثقته بالخليفة يتربص عن البيعة منزويًا فلا يروّع إذا ما خيف شره فإن أضمر خلافًا أو سوءًا يجبر على البيعة واتباع الجماعة ولكن إذا أنكر من أعمال الخليفة والولة شذوذًا أو خروجًا عن الشريعة الإسلامية طلب إليهم الرجوع إلى السنة فإن فعلوا سكن مستقيمًا وإلا جاز له خلع الطاعة.

مضت هذه الجمهورية العربية وابتدأت الحكومة الأموية بمؤسسها الكبير والإدارى القدير معاوية بن أبى سفيان الذى لم يكن طموحه إلى الخلافة شرهًا بل كان رجلها الفذ وبطل بنى أمية الفرد الذين هم كانوا زعماء قريش فى الجاهلية فلما جاء الإسلام عابوه وقاوموه باطلاً فأرغموا يوم فتح مكة على الدخول فيه فترضاهم النبى ﷺ وجعل لهم امتيازات خاصة فقال «من دخل دار أبى سفيان فهو آمن»^(١). وأعطى من غنائم حنين لكل من أبى سفيان وابنه معاوية ١٠٠ بغير ليتألفهم فسموا «المؤلفة قلوبهم» وظل معاوية يتقدم إلى أن صار كاتب وحى النبى ثم اشترك وأخاه يزيد فى فتح سورية ونالا فى خلافة العمرين^(٢) مكانًا عليًا فوليا إمارة الجند وإدارة البلاد فلما ولى الأمر عثمان وقتل اتخذ معاوية قتله ذريعة لنيل الخلافة وصار يطالب بقتله ويماطل فى بيعة على إلى أن فاز عليه وبويع له بالخلافة سنة ٤٠هـ فى بيت المقدس. وسنة ٤١هـ بايعه الحسن فخلا له الجو ولم يبق له مخالف فاتخذ مدينة دمشق عاصمته لأن أهالى سورية وفلسطين كانوا حزبه القوى وركنه المتين فسكنوا بينهم وتآلفوا قلوبهم واقتطعوا الضياع فى

(١) رواه البخارى ومسلم

(٢) المقصود أبوبكر وعمر على التغليب.

فلسطين فأوقف عثمان قريته سلوان على فقراء بيت المقدس. وعمواس كانت إقطاع يزيد بن أبي سفيان والرملة مركز سليمان بن عبد الملك وكانت شرقي الأردن دساكر خلفائهم فيزيد الثاني توفي في أربد من أرض البلقاء وسكن الوليد الثاني بعماله وأمواله على ماء الأغدف من نهر الزرقاء وكان يطعم من وفد إليه ثلاثة أيام سواء كان صادراً من حج أو قافلاً من صائفة. وكان معاوية أول من أحدث ولاية العهد في الإسلام فبايع إلى ولده يزيد في حياته فأنكر ذلك نفر من الصحابة الحجازيين وامتنعوا من مبايعته لأنهم ألفوا أن يكون أمرهم بينهم شورى فينتخبون الأفضل والأصلح خليفة لهم فاغدق عليهم معاوية الأموال حتى انصرف بعضهم إلى ملذات الدنيا وطيباتها وأصبحت المدينة مصدر اللهو والطرب رغماً عما هي عليه من المناخ والإقليم. ولكن البعض أكبر هذا العمل وجثم مستوفزاً فلما قضى معاوية هب الحسين بن علي ونزاً نزوته فتوجه إلى العراق مشاقاً يزيد فقتله شمر بن ذى جوش (جد عائلة الشمامرة في قرية طلوزة) وأتى برأسه إلى دمشق فدفن فيها بباب الفرادييس وقيل إنه دفن بعسقلان فبنى الملك الأفضل في خلافة المستنصر العلوي مشهد الرأس عليه ثم نقله إلى القاهرة وبنى له مشهداً.

نشأ يزيد بن معاوية في فلسطين مع أمه ميسون بنت بحدل وكان شاعراً مجيداً فمن شعره

دعوت بماء في أنا فجاءنى غلامٌ به خمراً فاوسعته زجرا
فقال هو الماء القراح. وإنما تبدى به خدى فاوهلك الحمرا

وبعد وفاته ببيع لابنه معاوية الثاني فكان في زمنه بيعتان إحداهما إليه في الشام والثانية في الحجاز لعبد الله بن الزبير ولم تطل مدة الأول أكثر من ثلاثة أشهر فإنه لما رأى انشعاب المسلمين وأنه عاجز عن إصلاحهم جمع الناس وخطب فيهم قائلاً: «أما بعد فإنني قد ضعفت عن أمركم فابتغيت مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتهم» ثم تغيب حتى مات فهذا عمل الشاب المخلص الذي انقرضت بموته الدولة السفيانية.

اضطربت الأفكار فى سورية وفلسطين واتجهت الأنظار نحو الحجاز فأجمع أمراء سورية على مبايعة ابن الزبير خلاً أمير فلسطين. وهم شيخ بنى أمية مروان ابن الحكم لبياعه مخافة الفتنة فنصحهُ عبيد الله بن زياد وهون عليه الصعب وأشار عليه أن يطلب الخلافة إلى نفسه فاستشرف إليها ونصره أمير فلسطين حسان بن مالك بن بحدل خال يزيد لأن هواه كان فى بنى أمية فدعا روح بن زنباع واستخلفهُ على فلسطين وقال له : إني أرى أمراء الأجناد يبايعون لابن الزبير وأبناء قيس بالأردن كثير وهم قومى فأنا خارج إليها وأقم أنت بفلسطين فإن جل أهلها قومك من لحم وجذام وسار إلى الأردن فأخذ بيعتهم بشرط أن يجنبهم ابني يزيد خالدًا وعبد الله لصغر سنهما فثار نائل بن قيس الجذامى وأخرج ابن زنباع من فلسطين فالتحق بالأردن وبايع نائل لابن الزبير فأرسل حسان كتاباً إلى الضحاك بن قيس أمير دمشق يعظم فيه حق بنى أمية ويذم ابن الزبير فلم يسمع منه فذهب إلى الجابية وقابل بنى أمية وبعد نجوى طويلة بايعوا مروان بن الحكم سنة ٦٤ هـ وذهبوا إلى الضحاك رئيس القيسية فحاربوه فى مرج راهط وظفروا به فبايع من معه مروان وفر نائل الجذامى إلى الحجاز واستولى على فلسطين روح بن زنباع فتم الأمر لبنى أمية فى سورية. ثم توجه مروان إلى مصر ففتحها وبايعه أهلها ورجع إلى قرية الصبرة «السمراء» قرب طبرية فشكر حسان واثنى عليه وجد فى السير إلى عاصمته دمشق ثم جاء أجله بعد أن عهد بالخلافة إلى ابنه عبد الملك وبعده لعبد العزيز فاعترضت عبد الملك أمور شاقة : ثورات داخلية، والخوارج، وشيعة على، ومناظرة ابن الزبير، ومنافسة عمرو بن سعيد، فصبر عليها بعزيمة ثابتة وهمة راجحة ودلها فاحتال على عمرو وقتله وذهب إلى العراق فقاتل مصعب بن الزبير وقتله وامتلك البلاد ثم وجه سنة ٧٣ هـ الحجاج ابن يوسف بجيش إلى الحجاز ليقضى على ابن الزبير فذهب واحتل المدينة وحصر مكة وخربها بالمجانيق وأضر بالكعبة وقسم حراسة أبواب المسجد على البلدان فأخذ أهل الأردن باب الصفا وأهل فلسطين باب بنى جُمح وأبلوا فى ذلك الحرب بلاءً حسناً فلما تفرق عن ابن الزبير أصحابه دخل على أمه واستشارها

هل يسلم إلى عبد الملك ويأخذ منه ما أراد فقالت «أنت أعلم بنفسك إن كنت تعلم أنك على حق واليه تدعو فامض له فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بنى أمية وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكك نفسك ومن قتل معك وإن قلت كنت على حق فلما ومن أصحابي ضعفت فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين كم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن..» فقال هذا رأى فقالت أرجو أن يكون عزائي فيك جميلاً إن تقدمتني احتسبتك وإن ظفرت سررت بظفرك فخرج وقتل عظيمًا ومن ثم دانت البلاد لعبد الملك. وسنة ٨٥ هـ توفي ولى عهده عبد العزيز فعهد إلى ابنه الوليد ثم سليمان فبايع جميع الناس ولم يتخلف إلا الخوارج والمتدينون.

٣٨ - بناء الحرم الشريف :

هو أعظم آثار بنى أمية في فلسطين ومن مفاخر العرب وشهود حضارتهم ونعم الأثر فإن هندسته ونقوشه وجمال تكوينه تفوق أجمل الأبنية الشهيرة في الشرق الأدنى.

إن المكان الذى بنيت عليه الصخرة كان مقدسًا عند جميع المسلمين لأنه من أثر الأنبياء ولأن النبی محمد ﷺ أسرى إليه ليلاً. أما أسباب بنائه فقد ذكر أنه لما عظم الخلاف بين ابن الزبير وعبد الملك وكان كل منهما يطلب الخلافة إلى نفسه خشي عبد الملك أن ينصرف عنه المسلمون ويبايعوا ابن الزبير لتعلقهم بالكعبة والقبلة فمنعهم الحج «كما قيل» فتذمروا وضجوا فرأى أن يشاغلهم ببناء هذا الأثر العظيم حتى إذا حدث ما حذر منه سلامهم وطيب خاطرهم به.

فكتب إلى سائر الأمصار يستشيرهم في بناء قبة على الصخرة المقدسة لوقاية المصلين من حر الشمس وبرد الشتاء ويأخذ رأيهم في ترميم جامع عمر ابن الخطاب وتحسينه. وقال: إنه لا يقدم على عمل خطير كهذا دون مشورة المؤمنين فرضى جميع المسلمين واستحسنوا رأيه فاستعان بمهندسى الروم وصناعهم ورصد للبناء خراج مصر سبع سنوات وعهد بإدارة العمل إلى رجاء

ابن حيوة الكندى ويزيد بن سلام فبنيا أولاً قبة السلسلة الكائنة شرق الصخرة لتكون نموذجاً وخزناً فيها كل الأموال وفرغاً من عمارة قبة الصخرة والمسجد الأقصى سنة ٧٣ هـ وسنة ٦٩١ م وقد فضل مع الوكيلين ١٠٠.٠٠٠ دينار فاختبرا الخليفة فسمح لهما بها مكافأة فرفضاً ذلك. فأمر أن يصهر الذهب وتموه به القبة والأبواب وقد يرى الآن كتابة كوفية جميلة حول قبة الصخرة من عهد عبد الملك تدل على تاريخ البناء ولكن المأمون لما أمر بترميم المسجد تقرب إليه عماله المتزلفون فاستبدلوا اسم الخليفة الأموي باسمه وغفلوا عن تغيير السنة التي حدثت فيها العمارة. أما الحرم الحالى فليس جميع بنائه أمويًا وإنما طرأ عليه تغيرات كثيرة بسبب الزلازل والانقلابات السياسية وكر القرون فالذين رمموا الحرم وأضافوا إليه زيادات كثيرون منهم العباسيون ففى سنة ١٤٦ هـ وسنة ٧٥٥ م فى خلافة أبى جعفر المنصور حدث زلزال شديد فتصدع جانباً المسجد الأقصى الشرقى والغربى فأمر بضرب ما كان على أبوابه من الذهب والفضة نقوداً لينفقونها على ترميمه وفى عهد المهدي أصابه زلزال آخر فأمر بإعادة بنائه وغير شكله فقلل طوله وزاد فى عرضه ولما زار المأمون سورية وفلسطين أمر بترميم بعض بنايات الصخرة وسنة ٣٠١ هـ أمرت أم المقتدر العباسى بصنع أبواب قبة الصخرة من خشب التنوب «كالصنوبر» (يكثر فى جزيرة جاوا) وسنة ٤٠٧ هـ و سنة ١٠٣٤ م فى خلافة الحاكم بأمر الله سقطت قبة الصخرة الكبيرة وقسم كبير من سور الحرم فرممت فى خلافة الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمى وكذلك عمر فيها صلاح الدين والمماليك والسلطان محمد بن قلاوون وملوك آل عثمان سليمان وعبد العزيز وعبد الحميد.. إلخ. وقد طرأ عليها وهن سنة ١٩٢٢ م وسنة ١٣٤٠ هـ واستدعى لإصلاحها المهندس التركى كمال بك وقد قدر ما يلزمها من النفقة بمبلغ باهظ جداً.

٣٩ - وقائع الدولة الأموية :

أجمع المسلمون على بيعه الوليد بن عبد الملك وتخلف الفقيه سعيد بن المسيب وحاول حاكم المدينة إكراهه فلم يفلح. ولما حج الخليفة أخرجوا كل من فى

المسجد ولم يتجرأ أحد من الحرس أن يتعرض إليه فقيل له : لو قمت قال لا أقوم حتى يأتي الوقت الذى كنت أقوم فيه . فقيل : لو سملت على أمير المؤمنين قال : لا والله لا أقوم إليه . قال عمر بن عبد العزيز فجعلت أعدل بالخليفة فى ناحية المسجد لئلا يراه فالتفت الوليد فرآه فقال من ذلك الشيخ أهو سعيد قال : عمر نعم واعتذر عنه بعجزه وضعف بصره فدار الخليفة فى المسجد حتى أتاه فقال كيف أنت أيها الشيخ؟ فما تحرك بل قال بخير . فكيف أمير المؤمنين وكيف حاله؟ فانصرف وهو يقول هذا بقية الناس . وفى خلافته هرب يزيد بن المهلب من الحجاج وقدم فلسطين فنزل على وهيب بن عبد الرحمن الأزدي فأخذه إلى سليمان بن عبد الملك فى الرملة وتشفع فيه ونجاه وبعد وفاة الوليد أتت البيعة لأخيه سليمان وهو فى مدينة الرملة فبايعه الناس وهو على سطوح الصخرة وهم أن يحول عاصمته من دمشق إلى الرملة أو القدس ثم عدل . ولما استخلف عمر بن عبد العزيز أبطل سب على المنابر وأمر كل العمال أن يضعوا مكانه ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْكَبْرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١) فقال كثير :

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف برياً ولم تتبع مقالة مجرم
وأمر بإنشاء الخانات فى البلدان القاصية لإعالة مارة المسلمين والتعهد بدوايهم
فيطعمون ويقرون يوماً وليلة ومن كانت به علة يبقى إلى أن يشفى . ولما بويع
الوليد الثانى كان مقيماً فى البرية فافتتح أعماله بنفى سليمان بن هشام إلى عمان
انتقاماً منه بما فعله معه أبوه . وتبدل كثيراً ففسدت أحكامه وعكف على الشراب
وجاهر به وانغمس فى الطرب والموسيقى واقتناء الكلاب المطوقة بقلائد الذهب .
وانتهك حرمة القرآن . فأكبر ذلك العرب والمتدينون ونفر بنو أمية منه وتناجى
أمرء قبائل فلسطين وأقروا على خلعه ومبايعة سواه فراودوا يزيد بن الوليد الأول
فأجاب طلبهم وظل متكئاً إلى أن انتشر الوباء فى الشام فخرج العباس بن الوليد

إلى القسطل وأخوه يزيد إلى بادية الأردن وأخذ يدعو إلى نفسه ويباع الناس سرًا
فعلم أخوه العباس وقال :

إنى أعيذكُم بالله من فتن	مثل الجبال تسامى ثم تندفع
إن البرية قد ملئت سياستكم	فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لا تلحمن ذئاب الناس أنفسكم	إن الذئاب إذا ما الحمت رتعوا
لا تبقرن بأيديكم بطونكم	فثم لا حسرة تغنى ولا جزع

وتهدد أخاه وانذره بالسجن أو يرسله إلى الخليفة إن لم يقلع عن عمله. فلم
يعقه هذا التهديد وسار إلى دمشق الشام خلصة واحتلها وبايعه جميع أهلها وضبط
الأموال والخزائن وتوافد عليه أعوانه فقدم أهالي جرش من فلسطين وغيرهم وكان
الوليد على ماء الأغدف في ضياعه نافرا من الوباء فغضب وسير جنودًا إلى دمشق
فانضموا إلى يزيد ثم سار بنفسه فالتقى العسكران وأسفرت المعركة عن قتل الوليد
فحرق أهل حمص وخالفوا يزيد وبعد معركة خذلوا فيها بايعوا له. وقد وثب أهالي
فلسطين بتحريض سعيد وضبعان ولدى روح بن زنباع على عاملهم سعيد بن
عبد الملك فأخرجوه وولوا أمرهم يزيد بن سليمان بن عبد الملك الذي كان سجينًا
بعمان فدعاهم إلى قتال يزيد فأجابوه لأن أهالي فلسطين كانوا مياالين لأبيه.
ولما بلغ أهل الأردن ما فعل أهل فلسطين ولوا عليهم محمد بن عبد الملك واجتمعوا
معهم على قتال الخليفة يزيد الثالث فعرف بهم الخليفة وسير إليهم سليمان بن
هشام فاطمع سعيد وضبعان بنى روح وبذل إليهما المال ومناهما بالولاية فرحلا
بأهل فلسطين. وبقي أهل الأردن فنهب سليمان قراهم فغضب أهل طبرية ونهبوا
دواب وسلاح يزيد بن سليمان ومحمد بن عبد الملك ولحقوا بمنازلهم وبلدانهم
فسار سليمان ونزل في قرية السمراء «قرب طبرية» فاتاه أهل الأردن وبايعوا
يزيد بن الوليد ثم ذهب إلى طبرية فصلى بها الجمعة وبايع من بها وتوجه إلى
الرملة فأخذ البيعة على من بها واستعمل ضبعان بن روح على فلسطين وإبراهيم
ابن الوليد على الأردن. ولكن هذا الانقلاب لم يقد الأهالي شيئًا بل أطمع في الدولة
الطامعين فأنكر مروان بن محمد عمل الخليفة وفضعه. ولما مات يزيد قام بالأمر

بعده أخوه إبراهيم فزحف مروان إلى الشام وفتحها وبويع له ولكن الملكة كانت فوضى فخرج ثابت بن نعيم بأهل فلسطين وأتى طبرية فحصر عاملها الوليد بن معاوية بن مروان وقاتله أهلها أياماً فهزموه واستباحوا عسكره فارتد مخذولاً فتبعه القائد أبو الورد وهزمه ثانية فتفرق أصحابه وأسر ثلاثة من أولاده وبعث بهم إلى مروان واستعمل الخليفة على فلسطين الدماص بن عبد العزيز الكناني فظفر بثابت وبعثه إلى مروان فأمر به وبأولاده الثلاثة فطقت أيديهم وأرجلهم وصلبوا. فامتعض أهل حمص وخلع سليمان بن هشام مروان وبعد معركة انخذه جيشه وهزم وظلت البلاد فى قلق إلى أن أعلنت الدعوة العباسية واصطدم الجيشان العباسى والأموى فى وقعة الزاب «قرب الرقة» العظيمة التى هدم بها ملك وقام ملك. فجالد بنو أمية حتى خروا صرعى وكان أحد شبانهم يتمثل:

اذل الحياة وكره المصاات وكلاً أراه طعماً وبيلاً
فان لم يكن غير إحداها فسيرا إلى الموت سيراً جميلاً

وفر مروان بن محمد إلى فلسطين فنزل نهر أبى فطرس «العوجاء» فوجد الحكم ابن ضبعان الجذامى قد تغلب عليها. فاستجار بعبد الله بن يزيد بن روح الجذامى فأجاره ولكن عبد الله بن على كان يقفو أثره ففتح دمشق وجاء إلى فلسطين فنزل على الأردن ثم بيسان ومرج الروم. فلقية أهل الأردن وقد سؤدوا فأتى نهر أبى فطرس وأقام فى فلسطين وأرسل بعثاً إلى مصر خلف مروان بقيادة صالح بن على فحاربوه وقتلوه فى قرية أبو صير أما عبد الله بن على فإنه تتبع أولاد الخلفاء ووجهاء بنى أمية فقتل بالبلقاء سليمان بن يزيد بن عبد الملك وأسر من وجدهم وبطش فيهم فقتل ٨٣ رجلاً على نهر العوجاء فخاف أعوان بنى أمية فيبئض حبيب المرى أحد قواد مروان وفرسانه وخلع بيعة بنى العباس ووافقه أهل حوران والبلقاء والقيسية وبعد قتال أخذ الأمان لنفسه ولقومه ثم انتقض أهل حمص وبعد محاربة أخفقوا فيها دخلوا فى الطاعة وبيئض أهل دمشق فعاد إليهم فتابوا إلى رشدهم بلا قتال وبيئض أهل الجزيرة وقادهم إسحق بن مسلم العقيلي وهو يقول فى عنقى بيعة لا أدعها حتى أعلم أن صاحبها مات، فلما تيقن أن مروان قتل طلب الصلح والأمان. فانتقال الحكم من دولة إلى دولة أو نزعه من يد

إلى يد ليس بالأمير السهل بل يعقبه انقلابات وثورات عقلية واجتماعية كبيرة وخطيرة.

لم ينفع تعصب مروان إلى النزارية فإنهم خذلوه لما غلب على ملكه فوثب أهل قنسرين بساقتة وخانه الحارث بن عبد الرحمن الحرشي في دمشق ووثب به هاشم بن عمر العنسي والمذحجيون في شرقي الأردن وعندما مر بفلسطين وثب عليه الحكم بن ضبعان بن روح بن زنباع واستقبل جميع القوم الحكومة الجديدة بكل ترحاب.

٤٠ - محدثات بنى أمية وميزاتهم :

كانت دولة بنى أمية عربية تتعصب للعرب وتحتقر سواهم فرغب ملوكها في الحضارة ولم يجمعوا ونسوا البداوة وسارعوا إلى اقتباس ما حسن عندهم وتكيفوا بحسب الأحوال فأحدثوا ولاية عهد الخليفة وهو حى وقسموا إدارة البلاد إلى أمصار وكل مصر إلى أقسام. فالشام حاضرة وأمصارها فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين. ومن آثارهم المجيدة في فلسطين قبة الصخرة وإطلال سرايا سليمان بن عبد الملك في الرملة مكان دار الحكومة اليوم وأشياء زهيدة أعرضنا عنه لقلّة أهميتها. لم تعمر الدولة الأموية طويلاً وعجل على سقوطها أسباب هامة منها.

١ - تعدد ولاية العهد في آن واحد فكانوا يتنافسون في الخلافة فينبت الشقاق بينهم ويطمع كل واحد في الوصول إليها ومن نالها سعى بخلع أخيه أو ابن عمه ليحرمه منها ويورثها بنيه فيمتنع الثاني ويقضى امتناعه إلى العداء والتنازع فتتشعب الآراء وتفسد البلاد.

٢ - العصبية الجاهلية : فقد نبضت في وقعة مرج راهط وانشطر العرب إلى قيس ويمن وتأجج نارها في خراسان فكان كلما تعين وال من حزب يقضى على الحزب الآخر.

٣ - ميل بعض الخلفاء ورغبتهم في طمس آثار السلف كما فعل سليمان بن عبد الملك بقواد أخيه الوليد حتى خثرت النفوس الطامحة وفترت الهمم النازعة

وضعفت آمال الأمراء بخلفائهم ولم يخلصوا لهم فثارت البغضاء ونما الكره فى صدور الأمة فانتكشت الوحدة وانقسمت المملكة إلى حزبين سياسيين لا همّ لآحدهما إلا القضاء على الآخر وتغاضوا عن الدعوة العباسية التى كانت تنتشر بنشاط وسرعة.

٤ - احتقارهم الاعاجم والخط من قدرهم مما جعلهم يحقدون على هذه الدولة لما لحقهم من الذل والصغار فكانوا يلتفتون حول كل شائر ليضعفوها ويهدموها ويبنوا غيرها عله يكون لهم فيها حظ وافر.

٥ - تولية الخلافة لفلان ليسوا أكفاء فى العقل والتدبير وسياسة الدول.

٦ - انتشار « البروباغندا » بأن أهل البيت هم أهل الملك وبنو أمية «مغتصبوه».

٧ -- انفصال أجزاء المملكة عن بعضها البعض فوسائط النقل قليلة والمخابرة بعيدة والتجنيد بسيط وأطراف المملكة ممتدة فإذا حدث فتق فى الهند كان لا يصل خبره إلى الشام إلا بعد شهور فلو جهزوا إليها حملة لما وصلتها إلا بعد سنة فصعب عليهم ضبط الثغور لعدم ارتباط العاصمة بها. أما القبائل التى سكنت فلسطين والأردن فكثر: منها جذام التى نبغ منهم موسى بن نصير فاتح الأندلس وروح بن زنباع وبقاياهم بنى صخر والعطاونة فى الكرك، ولخم ومنهم بنى عقبة فى التياها والمسدودى، وتنوخ ومنهم عرب السردية والفحيلي فى تل كلخ، وغسان وبهراء وبلى منهم البلاونة فى بنى صعب والسبع وغور بيسان وكلب ومنهم الشرارات. وقضاة ومنهم العزازمة. بكر، السكاسك، قيس، الأزد، تغلب، طى.

(٤١) بعض أبطال الدولة الأموية :

١ - معاوية بن أبى سفيان

هو رأس الدولة الأموية وبانى أركانها. كانت تلوح عليه مخايل الشجاعة من صغره فمر به رجال فقال أحدهم «سيسود هذا الغلام» فقالت أمه هند «ثكلته أمه

إن لم يسد غير قومه». اختاره النبي ﷺ لكتابة وحيه وعينه أبو بكر قائداً في فتح سورية وأمره عمر ففتح قيسارية وعسقلان ويافا واسترجع أكثر البلاد الساحلية بعد أن كر عليها الروم ثانية في أواخر خلافة عمر. وظل يترقى إلى أن استوثقت له أحكام سورية وفلسطين ثم بويع بالخلافة فصانع رؤساء العرب وداراهم وترضاهم ونظم البريد وقسم الطرق إلى منازل وجهازها بالرجال والدواب لاستلام ما يردهم وإيصاله إلى من بعدهم ولقد أحدث السياسة والتساهل في الأحكام الشرعية فاتخذ الحرس وأنشأ أبهة الملك وعمل ديوان الخاتم «تغليف الرسائل» وأنشأ أسطولاً بحرياً مؤلفاً من ١٧٠٠ قطعة ورتب له أميراً وجعل يغزو الروم براً وبحراً وحصر القسطنطينية وكاد يفتحها لولا النار الإغريقية ورأى تطلع الناس إلى الخلافة وخاف حدوث الفتنة فبايع لابنه يزيد وأحدث ولاية العهد وتبعه من بعده وكان يقول: «لو كان بيني وبين الناس شعرة ما قطعت إذا شدوها أرختها وإن أرخوها شددتها». وكان عمر بن الخطاب يقول تذكرون كسرى وقيصر ودماهما وعندكم معاوية ومن قوله: «إنى لأرفع نفسى من أن يكون ذنب أعظم من عفوى وجهل أكبر من حلمى وعورة لا أوارىها بسترى وإساءة أكثر من إحسانى» وقال: «أحب الناس إلى أشدهم لى تحبباً إلى الناس».

وقد كتب إلى على بعد وقعة صفين: «أما بعد فلو علمنا أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجننها بعضنا على بعض وإنا وإن كنا غلبنا على عقولنا فقد بقى لنا ما نرد به ما مضى ونصلح به ما بقى وقد كنت سألتك الشام على ألا تلزمنى لك ضاعة وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس فإنك لا ترجو من البقاء إلا ما أرحو ولا تخاف من القتل إلا ما أخاف وقد والله رقت الأجناد وذمبت الرجال وبحن بنو عبد مناف وليس لبعضنا على بعض فضل يستذل به عزيز ويستترق به حرٌ والسلام».

٤ - الحجاج بن يوسف «كليب»

هو من قبيلة ثقيف كان معلم مكنب الطائف ثم التحق بروج بن زنباع الجذامى وزير عبد الملك إلى أن فسد جند الخليفة فأصبحوا لا يرحلون برحيله ولا ينزلون

بنزوله فأشار عليه روح بتوليهِ الحجاج أمر العسكر فقلده إياه فالزم الجيش الطاعة وجبرهم على محافظة النظام فتأخر يوماً أعوان روح بن زنباع فجاءهم وهم على الطعام فوقف عليهم وقال لهم ما منعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين فقالوا له : انزل يا ابن اللحناء فكل معنا فقال لهم هيهات ذهب ذلك. ثم أمر بهم فجلدوا بالسياط وطوقهم في العسكر وأحرق فساطيطهم ففرّع روح إلى عبد الملك وشكاه فقال له : علىّ به فلما دخل قال له «ما حملك علىّ ما فعلت» فأجابه أنا ما فعلت بل أنت فعلت إنما يدى يدك وسوطى سوطك وما علىّ أمير المؤمنين أن يخلف لروح عوض الفسّاط فسطاطين وعوض الغلام غلامين ولا يكسرني فيما قدّمنى له فاعجب به وتقدّم في منزلته وكان ذلك أول ما عرف من كفايته.

حارب ابن الزبير وآل الأُشَلح السلاح ولا يتطيب حتى يظفر به وحصره ورمى الكعبة بالمنجنيق فأرعدت السماء فاعظم ذلك أهل الشام فأخذ الحجارة ووضعتها بيده في المنجنيق ورمى بها وقال «يا أهل الشام لا تنكروا هذا فإنّى ابن تهامة وهذه صواعقها وهذا الفتح قد حضر» ولما عين عاملاً علىّ تباله في اليمن ذهب وسأل عنها فقيل له : إنها خلف هذه القلعة فرجع قائلاً : «لا بارك الله في مدينة تسترها ذرّة».

ولما شمع أهل العراق وخشّنوا عين إليهم فذهب باثنى عشر راكباً ودخل الكوفة وبدأ بالمسجد فصعد المنبر وأعلن الحكم العرفى بخطبته المشهورة التي منها :

يا أهل الكوفة إنى لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها وإنى لصاحبها وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمام واللحى . . إلخ وانساق له العراق وبنى مدينة واسط التي دفن بها وهو من الذين وطفوا الملك لبنى مروان وأخباره طويلة يرجع إليها في المطولات. فهو بالإجمال من أعظم قواد الفتوح وولاة البلاد والجيوش.

٣ - موسى بن نصير اللخمي

كان شجاعاً تقيّاً لم تهزم له راية ولّى إفريقية فصرف همته في تعريب البربر وإدخالهم في الدين الإسلامى فغزاهم وقهرهم وأتم بلادهم فتحاً ثم أرسل مولاه

طارقاً إلى الأندلس فاجتاز البحر ثم حرق السفن وخطب قائلاً «يا ابن المفرأ! البحر من ورائكم والعدو أمامكم فليس لكم والله إلا الصبر واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مآدب اللثام وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة وأنتم لا وزر لكم غير سيوفكم ولا أقوات لكم غير ما تستخلصونه من أيدي أعدائكم» ثم لحق به فأكمل البلاد وتم له النصر ونقل الدين الإسلامى إلى قارة أوروبا ولكن سليمان بن عبد الملك قابل أعماله الجلييلة بالإساءة والكفران فعزله عن جميع أعماله وحبسـه وأغرـمـه مـالاً كـثيـراً. ومن قواد الأندلس عبد الرحمن الغافقى الذى اخترق جبال البيرينية وأوقع بالفرنسيين فى سهول بواتيه وكانت هذه المعركة الفاصلة لتقهقر العرب من الأندلس بعد حين.

٤٢ - الدعوة العباسية :

لم يـقـم من بنى العباس من يطالب بالخلافة ولم تطمح أنظارهم إليهم فنسيتهم الأمة ولم يتشبع لهم أحد فقضوا أوقاتهم بمعزل عن الحركات السياسية حتى سنة ١٠١ هـ إذ وفد عبد الله بن محمد بن الحنفية على الخليفة سليمان بن عبد الملك فخافه وأرسل إليه من سمه فى الطريق فلما قصد الحميمة^(٥) قرية محمد بن على العباسى عاذ به العلوى وبايعه وعهد إليه بالخلافة ومن هنا ابتدأت الدعوة العباسية. وقد تطورت فى دورين الأول، دور الدعوة وهو من سنة ١٠١ هـ - سنة ١٢٩ هـ نشرت فيه محبة آل البيت ومساوى بنى أمية بتأن وتريث والثانى دور العمل وفيه أعلنت الدعوة وجهر بها.

عرف العباسى أن كل محاولة فجائية يعقبها الخسران وأن هدم الدول وتأسيسها ليس بالعمل السهل وخشى إن هو أعلن اسمه أن ينقض من حوله دعاة العلويين فكتمه وأمرهم أن يدعوا إلى الرضى من آل محمد فقط ووجههم إلى خراسان فأسسوا جمعية سرية ذات فرعين الفرع الأول النقباء وهم اثنا عشر والفرع الثانى المبشرون وهم سبعون رجلاً يطوفون البلاد ويثيرون الناس ضد بنى

(٥) هى الحميمة عند طبرية على الطريق الحجازى والعراقى. كانت قرية حقيرة أقطعها الوليد بن عبد الملك إلى محمد بن على بن عبد الله عباس واسكنه إياها

أمية واتخذوا موسم الحج مؤتمراً عاماً يتداولون فيه الآراء وكانوا كلما اعترضتهم عقبات ذللوها حتى سنة ١٢٠ هـ فعظم الخلاف بين المضربة والنزارية فتنفست الشيعة وجدّت في أمرها وفي سنة ١٢٩ أعلن أبو مسلم الدعوة ولبس هو ومن معه السواد شعار العباسيين ونشروا الرايات السود «الظل والسحاب» فعرف بهم نصربن سيار فكتب إلى مروان بن محمد يقول:

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام
فان النار بالعودين تذكو وإن الحرب مبدؤها كلام
فإن لم يطفها عقلاء قوم يكون وقودها جثث وهام
فقلت من التعجب ليت شعري أيقاظ أمية أم نيام

فأجابه اقطع هذا الثألول ولم يعبأ به . أما أبو مسلم فأخذ يتقدم ويفتح البلدان ويرسل قواده فيستولون بسرعة على إقليم بعد إقليم حتى استوثقت له خراسان ولا أحد يعلم لمن هي الدعوة إلا المبشرون بها إلى أن وقع كتاب إبراهيم الإمام في يد الخليفة مروان فأرسل إلى الوليد بن معاوية بن عبد الملك عامل دمشق يأمره أن يكتب إلى عامل البلقاء فيسير إلى القرية المعروفة بالكداد والحميمة من يأخذ إبراهيم ابن محمد ويرسله إليه ففعل وأخذه من مسجد القرية وهو ملفف وحمل إلى الوليد فبعث به إلى مروان فحبسه في حران فاثبت وصيته إلى أخيه أبي العباس السفاح ودفعها إلى مولاة سابق الخوارزمي وأوصاه أن يقوم بالدولة وألا يلبث بالحميمة بل يتوجه إلى الكوفة فأخذ أبو العباس أهل بيته وسار إلى الكوفة وسنة ١٣٢ هـ ظهر أبو العباس ولقب بالسفاح وأخذت له البيعة علناً في المسجد من الصباح حتى جنهم الليل وظل نجمهم يشرف ونجم بنى أمية يغور حتى قتل مروان ومكوا جميع الأقطار

ومن تأمل في فوز العباسيين وهم جمعية بسيطة على بنى أمية وهم أصحاب الحكومة والدولة والجند والخراج يأخذه العجب ويستغرب كيف تم لهم ذلك ولكن لو عرف أن هذه الجمعية كانت منظمة ورجالها مخلصون وأن كل جديد مقبول وكل قديم منفور لزال عجبه واستغرابه.

الفصل السابع

٤٣ - فلسطين عباسية :

ينتسب العباسيون إلى العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ وهم الذين نهضوا على بنى أمية فاستأصلوا دولتهم من الشرق وبنوا دولتهم على أنقاضها فاحضعوا العصبية العربية وأذلوا مضر وعززوا نفوذ الأعاجم الذين استبدوا بالأحكام فأصبحوا هم الملوك والعرب أسراهم.

تشكلت الدولة العباسية وبعثت ولايتها إلى الأمصار فكان وإلى سورية وفلسطين عبد الله بن علي ثم ضمت الأردن إلى دمشق وتعين صالح بن علي حاكماً على فلسطين والبلقاء تحت إمرة عبد الله بن علي وكلاهما عباسي فظل تابعاً له حتى خرج عبد الله على المنصور وغلب فتعين صالح إلى مصر.

وقد امتازت الدولة العباسية عن سواها بإقبالها على العلم وترجمتها الكتب العلمية والفلسفية ونشرها في الأقاليم وتحسين المعارف ومساعدة المؤلفين وإدراج النققات عليهم وتشويق الأدباء وتشجيعهم الناس للإقبال على حرفة الأدب.. الخ.

وقد عامل هرون الرشيد نصارى فلسطين معاملة حسنة فسمح للإمبراطور شارلمان بترميم الكنائس وبناء كنيسة العذراء حيث يقوم على آثارها كنيسة الدباغة وبجانبها دير يأوى إليه زوار اللاتين وفي سنة ٧٩٦ م أهدى إلى شارلمان ساعة وفيلاً وأقمشة نفيسة وأرسل إليه مفاتيح كنيسة القيامة وتعهده إليه بحماية حجاج المسيحيين الذين يأتون لزيارة القدس.

وفي زمن خلافتي المأمون والرشيد زهت الدولة العباسية وأضاء عصرها الذهبي سياسة وآداباً وعلماً لأن مملكتيهما امتدت من الأندلس وشمال إفريقيا إلى شمال البحر الأسود والصين ونصف الهند ومن جزيرة العرب إلى حدود أنقرة فكثر

العلماء والأدباء في أيامهما وترجمت كتب الطب والفلسفة والهندسة والجغرافيا إلخ. فكانت بغداد مهد الأدباء والعلماء وعش الجامعات ومعارض الكتب والمكاتب.

وفي سنة ١٨٦ هـ هاجت فتنة بدمشق بين المضربة واليمانية وسببها أن رجلاً من بنى ألقين خرج بطعام له يطحنه في الحى بالبلقاء فمر بمقناة لرجل لخمى فتناول منها بطيخة فشتمه صاحبها فتضاربا وانحاز لكل منهما قومه فكبر الخطب وقتل رجل يمنى وتداولوا الصلح بينهم فأبى اليمانية وجمعوا أمرهم وغزوا بنى ألقين فقتلوا منهم ٣٠٠ شخص فثاروا واستنجدوا قيساً فأجابوهم وساروا معهم إلى المواليك من أرض البلقاء فقتلوا من اليمانية ٨٠٠ شخص فتحزبت الحكومة إلى اليمانية وساعدتهم فانتصر عليهم أبو الهيثام زعيم المضربة وفرق جمعهم وفي سنة ١٧٧ هـ استعلت عليه الحكومة وبددت جمعه فنامت الفتنة ثم هاجت ثانية فتلافاها الرشيد وأصلح بينهم.

وقد أقطع المأمون أخاه المعتصم «أبا إسحق» الشام ومصر وفرض على دمشق وحمص والأردن وفلسطين ٤٠٠٠ جندي يقدمونها لغزو الصائفة وقطع للفراس ١٠٠ درهم راتباً شهرياً وللراجل ٤٠ درهماً. وفي سنة ٢٢٧ هـ سنة/ ٨٤٢ م خرج أبو حرب المبرقع على المعتصم واعتصم بجبال الأردن. وسبب مخالفته، أن بعض الجند أراد النزول في بيته وهو غائب فمنعته أمراة فضربها الجندي بسوط فأصاب ذراعها. فلما رجع إلى منزله شكت إليه ما فعل بها الجندي فاخترط سيفه وقتله ثم دعا رؤساء قومه فاستجابوا له والتفوا حوله ومنهم ابن بيهس المطاع في قومه فأرسل إليه المعتصم رجاء بن أيوب الحضاري بجيش زهاء ألف رجل. فلما رآه في عالم كثيرة كره مواقعه وتربص حتى جاء موسم الزراعة فانصرف من معه من الزراع إلى أشغالهم وبقي في نفر قليل فناجزه رجاء ثم أخذه وابن بيهس اسيرين. ومن أمعن النظر في هذه الثورة وجد أن سببها الظامرى غير كاف لإعلانها لأنه ليس من السهل أن يدعو الناس رجل بسيط فيليبى جمع غفير ويحارب لأجله الحكومة ذات الحول والطول ولكن الحقيقة هى أن الخليفة

المعتصم استكثر من الجنود الأتراك فعبثوا بعبادات البلاد وطبائع أهلها فسخط العرب على الخليفة وحكومته تعصباً وغيرةً إلى أن نهض أبو حرب فشجعوه ونصروه. فلو لم تكن الغاية واحدة والكره مستحكمًا في نفوس الجميع لما اتفقوا على خلع طاعة المعتصم الجاني على العرب والحكومة العباسية باستكثاره من أخواله الأتراك في بلاطه ومنحهم السلطة الواسعة حتى تحكموا في الدولة واستبدوا بالملك واستأثروا بالأموال فكان منهم الجند والقواد والولاة وأصبح العرب وهم أصحاب البلاد غرياء والأتراك وهم الدخلاء حكام البلاد.

وفي سنة ٢٥٢ هـ عقد لعيسى بن الشيخ سليل الشيباني على الرملة فانفذ خليفته ابا المغراء واستولى على جميع فلسطين وتغلب على دمشق وأعمالها واستبد بالأموال وقطع ما كان يحمل للخليفة. فذهب سنة ٢٥٦ هـ إليه أماجور وقتل ابنه منصورًا وأخذ منه دمشق. ولم تدم عظمة الدولة العباسية طويلاً لأنها أسست من عناصر مختلفة متباينة الميول والطبائع والأخلاق فاستهوى الخلفاء مواليتهم ورقوهم من حارس ووصيف إلى قائد وأمير فلم يخلصوا إليهم ولم يرعوا هذه النعمة ولم يحفظوا ذاك الجميل وأنكروا حسن الولاء فسلبوا الخلفاء أبهة الملك وجلالته وسيطرته وأبقوا اسمه فأصبح الخليفة آلة في يدهم محدود النفوذ محجوز الإرادة ضعيف القوة فإذا ما حنقوا منه أو توسموا فيه الحزم أو النزوع إلى الاستقلال خلعه أو سملوا عينيه وقد شعر المتوكل بنفوذ الأتراك والأعاجم فهم ينقل العاصمة من بغداد الفارسية التركية إلى دمشق العربية تخلصاً من جورهم وفراراً من غطرتهم فانشد يزيده المهلبى :

أظن الشام تشمت بالعراق إذا عزم الإمام على انطلاق

فان تدع العراق وساكنيها فقد تبلى المليحة بالطلاق

وقيل انه اسنوباً دمشق وتركها فرجع إلى العراق والأصح أنه خشى نفوذ الأتراك وتخوف ان يخلعوه إن لم يدارهم فصدق ظنه وقبلوه في بغداد وقد تهادوا في العسف والاستبداد فاحتقروا الخلفاء واستصغروهم وسلبوهم حريتهم الشخصية حتى قال الشاعر :

خليفة فى قفص بين وصيف وبغا

يقول ما قالا له كما تقول البغا

وقد شددوا فى الحجر على الخليفة المعتمد فكان يطلب الدرهم فى خزانته فلم يجده فقال:

أليس من المعائب أن مثلى يرى ما قل ممثناً عليه

وتجيبى باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شىء فى يديه

ومن تبصر قليلاً ورأى كيف أن الدخيل ينزل البلاد معدماً لا يملك شيئاً
فيمتص الدماء ويختلس الأموال ثم يحكم الرقاب عرف أن كل أمة لا تسهر على
مستقبلها ولا تحافظ على كيانه فمصيروها إلى الدمار.

الفصل الثامن

٤٤ - الدولة الطولونية من سنة ٢٥٤ هـ - سنة ٢٧٠ هـ أو سنة ٨٦٨ م - ٨٨٣ م :

تنسب هذه الدولة إلى طولون الغلام التركي الذى أهده نوح بن أسد الساماني عامل بخارى إلى المأمون فلم ينل ملكاً ولكن ولد له غلام فسماه أحمد وقيل: إنه تبناه ورباه تربية عربية.

وقد نشأ عظيمًا أدبيًا يتقن اللغة العربية كأبنائها وساعده استعداده الفطرى وسما به جده فقدم مصر نائباً عن الأمير باكباك ودفعته مقدرته السياسية إلى أن صار والياً لمصر فسعى إلى الاستقلال الداخلى وأكثر من الجند والحشم وقرب العلماء والقراء وبنى جامع ابن طولون فى مصر ورتب الصدقات والمبرات فاستمال الناس واجتذب قلوبهم ولما علم وتيقن أن الدولة العباسية ضعيفة وقد أنهكتها غارات الثوار الداخلية وفتنة الزنوج العظمى طمع فيها وقطع إرسال الخراج إلى الخليفة المعتمد غير وجل واعتز بنفسه فأغار على فلسطين سنة ٨٧٨ م وضمها إلى دولته وعين والياً للرملة. فاتسع ملكه حتى جاوز نهر الفرات وبنى قلعة يافا القديمة وحاول الاستيلاء على مكة فلم يفلح. ثم قطع خطبة ولى العهد الموفق لمنافسة كانت بينهما فأمر الموفق أن يلعن على المنابر وحذف اسمه من الخطبة واعتبره خارجياً. وفى عهد إمارته سكنت البلاد من القلاقل إلى أن توفى سنة ٨٨٤ م / سنة ٢٧٠ هـ وولى الأمر بعده ابنه خمارويه وفى سنة ٢٧١ هـ كانت موقعة الطواحين على نهر روبين^(١) فانتصر المعتضد أولاً وهرب خمارويه وبينما كان جنده منهمكاً بنهب السواد خرج عليهم الكمين ووضع فيهم السيف ففر المعتضد وظل الجيشان يضطربان وليس لواحد منهما أمير فانجلت المعركة عن

(١) لم تزل آثار الطواحين هناك وقد وهم من ظنه نهر العوجاء.

خذلان العراقيين واستظهار المصريين. فذهبت البشارة إلى خمارويه وهو فى مصر فسرَّ كثيراً وبعد ذلك صالح الخليفة وتوثقت العلائق بينهما فقلده أحكام مصر والشام وحدود الروم بشرط أن يدفع ٤٥٠ ألف دينار سنوياً ويترك العواصم وقنسرين. وقد تقرب للمعتضد فقدم إليه هدايا ثمينة وعرض عليه أن يزوج ابنته «قطر الندى» بابنه فقبلها الخليفة لنفسه وجعلها أبوها بجهاز عظيم أسرف فيه وأنفق من الأموال ما أضعف ماليته فأساء إلى الأهالى ونفروهم فقتل فى الشام ذبحا ودفن فى مصر سنة ٨٩٦ م وسنة ٢٨٢ هـ وتعاقب على البلاد أبناء بنى طولون فلم يُرو لهم عمل مبرور أو شر مذكور. وسنة ٩٠٥ م وسنة ٢٩٢ هـ انقرضت مملكتهم وأخرجهم محمد بن سليمان من مصر والشام وفى سنة ٢٩٣ هـ كان عامل دمشق والأردن وفلسطين أحمد بن كيغلق فذهب إلى مصر لمحاربة إبراهيم الخليجى وأتاب عنه فى الأردن يوسف بن إبراهيم بن بغا فاغتنم القرامطة هذه فرصة وساروا إلى بصرى وادركات [اذرع] فافحشوا فى النهب واخذوا فقتلوا نائب البلاد يوسف ونهبوا طبرسا وعاثوا فى الأرض فسادا فانفذ الخليفة حسين بن حمدان إلى مقاتلتهم فانسحبوا إلى البادية وكانوا يغورون الماء خلفهم حتى لا يستطيع الجيش أن يتعقبهم لقلة المياه

٤٥ - الدولة الأخشيدية سنة ٢٢٢ هـ - ٢٢٤ هـ (٩٢٤ م) :

إخشيد لقب ملوك فرغانة فى تركستان وبعده ملك الملوك. مثل تبع اليمن وإمبراطور وملكشاه وقيصر وكسرى..

أما مؤسس الدولة الأخشيدية فهو طغج بن جُف من سلالة ملوك فرغانة القدماء كان من ممالك المعتصم فاطعة محلا فى (سر من رأى) وبعد وفاته اتصل ابنه بلؤلؤ غلام ابن طولون ثم عرفه أبو الجيش خمارويه فاعجب به وقلده دمشق وطبرية. فلما قتل أبو الجيش عاد طغج إلى المكنفى فوشى به وزير الخليفة العباس بن الحسن لأنه أبى أن يتزلف إليه فأمر الخليفة بسجنه إلى أن قضى نحبه ثم

(١) يوجد ثلاث بلاد متشابهة الاسماء وهى اذرع جنوب الكرك، اذرع ذرعا، اذرع اذرع

(١) مدينة فى العراق تدعى سامرا

هرب ابنه محمد إلى الشام واتصل بأبى منصور تكين الخادم. فظهر مقدره وهمة ودهاء فقلده عمان وجبل الشراة وتدرج فى الرئاسة فعين حاكماً للرملة سنة ٢١٠ هـ وسنة ٩٢٧ م. ثم نقل إلى دمشق فسر به الخليفة القاهر وولاه مصر سنة ٣٢١ هـ فمكث بها برهة قصيرة وصرف عنها ثم أعيد إليها فى خلافة الراضى وعهدت إليه أعمال مصر جميعها فعزل عنها أحمد بن كيغلب ومنحه الخليفة صلاحية واسعة فصار أشبه بملك مستقل وسنة ٣٢٨ هـ استولى ابن رائق^(٥) على دمشق وتوجه إلى الرملة فملكها وسار إلى عريش مصر فصادمه الإخشيد وهزمه فارتد إلى دمشق بأقيح صورة فتعقبه أخو الإخشيد أبو نصر بن طنج بجيش كثيف فاعترضه ابن رائق واقتتلوا على عين اللجون^(٦) فقتل أبو نصر وانهزم عسكره فأخذه ابن رائق وكفنه وحمله إلى أخيه الإخشيد بمصر وانفذ معه ابنه مزاحم وأصحابه بكتاب يعزيه بأخيه ويعتذر عما جرى ويأسف على ما حدث ويحلف أنه ما أراد قتله وقد قدم ابنه ليقص منه فتلقى الإخشيد مزاحماً بالجميل وخلع عليه وردّه إلى أبيه واصطالحا على أن تكون الرملة وما وراءها للإخشيد وباقى فلسطين والشام لابن رائق بشرط أن يحمل إليه الإخشيد عن الرملة ١٤٠ ألف دينار سنوياً. وفى سنة ٣٣٠ هـ هب الإخشيد من مصر لفتح دمشق فاستأمن إليه عاملها محمد بن يزداد فنقله إلى شرطة مصر وأتاب بها بدر الخرشنى وفى سنة ٩٤٢ م سنة ٣٣٢ هـ قلد الخليفة الإخشيد إمارة الحجاز وسنة ٣٣٤ هـ ٩٤٦ م توفى بدمشق ودفن بالقدس وولى الأمر بعده ابنه أبو القاسم انوجور «محمود» فاستضعفه سيف الدولة وقصد دمشق فملكها وأساء إلى أهلها فخابروا كافوراً وصى الأمير فجهز جيشاً عرمرماً وسار لمحاربة سيف الدولة فتصافا قرب الرملة وبعد جهد انهزم سيف الدولة واسترجع كافور دمشق وفلسطين.

كان أبو القاسم صغيراً وخادمه كافور وصيه فغلب عليه وتفرّد بالولاية ورشح نفسه للملك فقصده الشعراء ومدحه المتنبي بقصائد فائقة منها:

ومن مثل كافور إذا الخيل أحجمت وكان قليلاً من يقول لها أقدمى

(٥) حاكم حران وقنسرين والعواصم..

(٦) ماء يبعد عن جنين ساعتين ونصف..

أبا المسك أرجو منك نصراً على العدى وأمل عزاً يخضب البيض بالدم
فلو لم تكن فى مصر ما سرت نحوها بقلب المشوق المستهام المتيم
وكافوريات المتنبي من خيرة شعره فقد أجاد فيها آملاً أن يوليه إقليماً فلم
يظفر به وقد أشار بعضهم على كافور ليمنحه إقطاعاً فقال: «حسبكم أن من
يدعى النبوة مع محمد ألا يدعى الملك مع كافور».

إن من يطلع على تاريخ حياة كافور ويعرف كيف استوى على عرش مصر
وسورية تحدّثه نفسه بكل عظيمة. كان كافور عبداً زنجياً خصياً فاشترته الإخشيد
بثمانية عشر ديناراً وقدمته نفسه الكبيرة وشخصيته البارزة إلى أن أصبح قائداً
مشهوراً ثم عين وزيراً لانوجور ومديراً لمملكته فساس الحكومة بإدارة قوية ورأى
سديد. فلما توفى أنوجور تولى الملك بعده أبو الحسن ولم يك له من الأمر إلا اسمه
وبعد أن مات استقل كافور بمصر وتلقب بالإخشيدي فقلد ولاية مصر وسورية
والحجاز وتوفى سنة ٣٥٦ هـ وسنة ٩٥٦ م ودفن فى القدس فضعفت الدولة
الإخشيدية بعده واستولى جوهر الصقلي قائد المعز الفاطمى على مصر وانتزعها من
يد أبى الفوارس الإخشيدى وأنهى الدولة الإخشيدية بعد أن عاشت ٣٤ سنة.

وقد امتدح المتنبي ولى عهد أبى الفوارس بقصيدة عصماء منها:

فمالى وللدنيا طلابى نجومها	ومسعاى منها فى شقوق الأراقم
من الحلم أن تستعمل الجهل دونه	إذا اتسعت فى الحلم طرق المظالم
ومن عرف الأيام معرفتى بها	وبالناس روى رحمه غير راحم
فليس بحر حوم إذا ظفروا به	ولا فى الردى الجارى عليهم باثم



إذا صلت لم أترك مقالاً لقاتك	وإن قلت لم أترك مقالاً لعالم
والا فخانتنى القوافى وعاقبتى	عن ابن عبيد الله ضعف العزائم
حمته على الأعداء من كل جانب	سيوف بنى طعج بن جف القماقم

هم المحسنون الكُرُّ في حومة الوغى وأحسن منه كرمهم في المكارم
وهم يحسنون العفو عن كل مذنب ويحتملون الغرم عن كل غارم
حييون إلا أنهم في نزالهم أقل حياء من شفار الصوارم

٤٦ - بعض أبطال الدولة العباسية

جاءت الدولة العباسية والحكم مههد فلم تحتج لتوسيع حدودها أو نشر لغتها
إنما اقتصر على هدم الحكومة الأموية وبناء دولتهم مكانها وهو عمل صعب
شاق تذلل أمامه أعناق العظماء وقد قام به أقطاب عظام نذكر هنا بعضهم.

١ - أبو مسلم الخراساني

اسمه عبد الرحمن من ذرية بزرجمهر. نشأ في حصن عيسى بن معقل وكان
يختلف مع ابنه إلى المكتب فظهرت نجابته وتفوقه من صغره واتصل بالثقلاء
العباسيين فعجبوا بمعرفته وأدبه وأخرجوه معهم إلى مكة وعرجوا إلى الحبيمة
«عش الدعوة العباسية» فاهدوه إلى الإمام وانصرفوا فلما رجعوا ثانية سأله رجلاً
عاملاً يقوم بأمر خراسان فقال: إني جريت هذا الأصفهاني ظاهره وباطنه فوجدته
حجر الأرض فقلده الأمر وأرسله إلى خراسان فبث الدعوة ونظم الإدارة ثم وثب
وحارب قواد مروان وبائع للسفاح فصفت له خراسان وقال:

أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت عنه ملوك بني مروان إذ حشدوا
مازلت اسعى بجهدى فى دمارهم والقوم فى غفلة بالشام قد رقدوا
حتى طرقهم بالسيف فانتبهوا من نومة لم ينمها قبلهم أحد
ومن رعى غنماً فى أرض مسبعة ونام عنها تولى رعيها الأسد

ولما أمحت دولة بنى أمية وأسست دولة بنى العباس طمع أبو مسلم فى
الخلافة وطلب إلى السفاح أن يسمح له بالحج آملاً أن يوليئه إمارته ولن يتولاهما
آنذاك إلا ولى العهد فأذن له السفاح بالحج واعتذر إليه أن قد سبق فوليت إمارة
الحج إلى أخى المنصور فحقد أبو مسلم وحج مع المنصور وكان لا يآتمر بأمره

ولا سير خلفه ويتقدمه في الرحيل وبذل في موسم الحج أموالاً طائلة فحبيب إليه قلوب العرب واستمالهم وادّعى أنه عباسي من ذرية سليط بن العباس وكان يبدأ في مخاطبة المنصور ومكاتبتة بنفسه وخطب عمته آسيا واستخف بالمنصور فاحفظه وأحنقه إلا أنه كظم غيظه حتى توفي السفاح وخلع عبد الله بن علي فأرسله المنصور إلى محاربته فذهب إليه وقضى على جيشه وحاول المنصور أن يصرفه عن خراسان اتقاء عصيانه فأبى فاحتال عليه وقتله ثم استشار مسلم بن قتيبة في أبي مسلم فقال له الآية ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلُ اللَّهِ لَمَسَدَتَا﴾^(١) ودخل جعفر بن حنظلة على المنصور وقال له ما تقول في أمر أبي مسلم؟ فأجابه إن كنت أخذت منه شجرة فاقتل ثم اقتل فأراه إياه في البساط قتيلاً فقال يا أمير المؤمنين عد هذا اليوم أول خلافتك.

٢ - عبد الله بن علي

هو عباسي الأصل عم المنصور وناب من أنياب الدولة العباسية وركن من أركانها وعظيم من عظمائها. نادب نفسه إلى قتال بني أمية وصاحب جيش المغرب وقال جيش مروان في وقعة الزاب ونال عرش بني أمية في دمشق وهاتك أستارهم ونابش قبور خلفائهم. كان عامل الخليفة في دمشق فلما توفي السفاح دعا الناس إلى نفسه وقال لهم: إن السفاح جمع أبناء أبيه وراودهم في محاربة مروان وقال من انتدب منكم إليه فهو ولي عهدي فلم ينتدب غيري فذهبت وأيدت للسفاح الملك وشهد له بعض أخصائه ومعارفه قبايعه الجميع فسير المنصور أبا مسلم إلى محاربته والتحم الجيشان وبعد قتال شديد مزّم جيشه فذهب والتجأ إلى أخيه سليمان بالبصرة.

إن مزيمة جيش عبد الله بن علي لم تكن عن جهل وضعف تدبير وقلة جند وجبن رجال بل كل شيء كان موفوراً اللهم إلا أن الجند لم يكونوا يعتقدون بصحة قضيتهم وأنهم يقاتلون على الحق بل كانوا موقنين أنهم مبطلون في دعواهم وأن عبد الله بن علي خارجي فلم يصدقوا الحملة ولم يحاربوا برغبة ولم

(١) سورة الأنبياء الآية ٢٢.

يُثَبِّتُوا فِي الْقِتَالِ فَهَزَمُوا فَلَوْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ بِصِحَّةِ دَعْوَى قَائِدِهِمْ لَاسْتَبَسَلُوا وَنُصِرُوا
نَصْرًا مُبِينًا. وَمِنْ أَبْطَالِ دَعْوَةِ الْعَبَّاسِيِّينَ سُلَيْمَانُ بْنُ كَثِيرٍ وَأَبَى سَلْمَةَ الْخَلَّالُ وَزَيْرُ
بَنِي هَاشِمٍ ثُمَّ الْبَرَامِكَةُ وَغَيْرُهُمْ وَلَكِنَّا لَا نَقْصِدُ هُنَا أَنْ نَلْمَ بِذِكْرِ جَمِيعِ الْقَوَادِ الْعِظَامِ
وَنَقْتَصِرَ عَلَى تَرَاجُمِ هَؤُلَاءِ الْأَبْطَالِ لَتَرْسُخِ فِي ذَهْنِ الطَّالِبِ شَهْرَتِهِمْ وَيَعْلَمَ أَنَّ فِي
قَوْمِهِ رِجَالًا لَا يَقْلُونَ عَنْ رِجَالِ الْغَرْبِ الَّذِينَ يَتَغَنَّى بِهِمْ قَوْمُهُمْ .

الفصل التاسع

٤٧ - الدولة الفاطمية نشؤها ودخولها مصر وبناء القاهرة

اعتقد أبناء فاطمة الزهراء بأنهم أحق بالخلافة من سواهم وبدأوا يعملون سراً لاسترجاعها. فتسرع بعضهم وجهر بدعوته قبل أن يكون له جيش يعززه فلاقوا القتل والصلب جزاء فعلتهم.

أما الفاطميون فقد أدركوا هذا السر واختاروا إقليمًا قاصيًا عن العمران بعيداً عن مركز الخلافة لينطوى ذكرهم ويخفى خبرهم فأرسلوا داعيتهم أبو عبد الله الشيعي سنة ٢٨٠ هـ وسنة ٨٩٣ م إلى شمالي إفريقيا يدعو إلى المهدي^(٥) ولم يعلن اسمه فلما انتصف أبو عبد الله وأطاعته القبائل ناوأ الحكومة واستولى على إفريقيا ثم استقدم المهدي فسار عن طريق مصر وحل بمدينة رُقَّاده وأمر أن يذكر اسمه في خطبة الجمعة ولقب بأمر المؤمنين وقد أخذته الوحشة من أبي عبد الله الشيعي فقتله وأخاه أبا العباس بعد أن دانت له جميع بلاد المغرب. ثم تآقت نفسه لفتح مصر وقد حاول خلفاؤه من بعده ذلك فحالت دونهم حوائل إلى أن ولي الخلافة المعز لدين الله^(٥) سنة ٣٤١ هـ وسنة ٩٥٢ م فوجه همه وقوته إلى فتح مصر وسير إليها أكبر قواده جوهر. فدخلها ظافراً في سنة ٣٥٨ هـ وقضى على الدولة الإخشيدية ثم ملك البلاد وبنى مدينة القاهرة والجامع الأزهر العظيم وسير جعفر ابن فلاح الكتامي إلى الشام في جمع كبير فبلغ الرملة وحارب الحسن بن عبيد الله بن طنج فظفر به وأسره مع قواده وبعث بهم إلى جوهر في مصر ودخل البلد

(٥) هو عبد الله بن محمد وقد اختلف النسابون والمؤرخون في نسبة فمنهم من يقول أنه فاطمي وهو الصحيح ومنهم من ينكر ذلك.

(٥) كان خطيباً عالماً باللغة اليونانية واللغات الإفريقية شجاعاً قديراً في السياسة حريصاً على النفوس.

عنوة وقتل من أهلها كثيرا. وجبى الخراج وسار إلى طبرية فوجد ابن ملهم قد أقام الدعوة الفاطمية فسار عنها إلى دمشق وبعد حروب عديدة استولى عليها.

تكون في المملكة العربية حكومات كثيرة ولكن لم يجرؤ أحد على ادعاء إمارة المؤمنين واكتفوا بالسلطة الزمنية فقط فلما ظهرت الدولة الفاطمية القرشبة أهدقت بالدولة العباسية الأخطار لأنها نازعتهم الخلافة والسلطة معًا ولقبوا بأمرء المؤمنين ودعوا لأنفسهم على المنابر. أما الدول الطولونية والأخشيدية والأموية «الاندلسية» والطاهرية وغيرها فكان استقلالهم ينحصر في السلطة السياسية وظلوا يعترفون بالخلافة إلى الخلفاء العباسيين فصار للمسلمين آنذاك خليفتان عظيمان الأول عباسي على ضفاف نهر دجلة والآخر فاطمي في حوض النيل وشرعا يتنازعان السيادة وكل بلاد كان يفتحها أحدهما تنقلص عنها دعوة الآخر. وأما بنو أمية في الأندلس فإنهم تربصوا حتى عهد عبد الرحمن الناصر فخطب له على المنابر ولقب بأمير المؤمنين.

تهيبت دول الشرق الحكومة الفاطمية وخافوا بأسها وقوتها فلم يقدموا على التحرش بها لعظمتها وفتوتها. وانبرى عز الدولة بختيار البويهى فأغرى قائد القرامطة على مقاومة الفاطميين وساعده بالمال والسلاح فسار في سنة ٣٦٠ هـ إلى دمشق يطلب الإتاوة^(٥) من أهل دمشق التي كان قطعها الفاطميون فلم يحفل جعفر بن فلاح بجمعهم واستهان بهم فكبسوه وقتلوه وامتلكوا دمشق فأمنوا أهلها وطمحت نفوس القرامطة إلى هدم دولة الفاطميين والاستيلاء على بلادهم فانقضوا على الرملة واحتلوها واستولوا على ما فيها وحصروا جند الفاطميين في يافا. وقصدوا مصر وقد التفت حولهم خلق كثير منهم حسان بن الجراح الطائى أمير عرب الشام فتصافوا قرب عين شمس واقتتلوا مرات كان الظفر فيها للقرامطة فاستعظم المعز الأمر وهالة فعمد إلى الحيلة واستمال أمير العرب حسان الطائى ورشاه بمبلغ ١٠٠ ألف دينار فانسحب وتبعه العرب وثبت القرامطة إلى أن أرقهم جند المعز فانقلبوا راجعين وأتوا الرملة وشددوا الحصار على يافا فسير

(٥) كان للقرامطة ٣٠٠ ألف دينار يأخذونها سنويا من ابن طنج.

جواهر من مصر ١٥ مركبًا تحمل ميرة ونجدة للمحصورين فأخذها القرامطة ولم ينج منها إلا مركبان غنمهما الروم ومن قول ابن بهرام القرمطي :

زعمت رجال الغرب أنى مبتها فدمى إذن ما بينهم مطلوب
يا مصر إن لم أسق أرضك من دم يروى ثراك فلا سقانى النيل

وساروا من فلسطين سنة ٣٦٣ هـ إلى أنذرات ومنها إلى الإحساء وفى سنة ٣٦١ هـ سار المعز لدين الله الفاطمي من أفريقية إلى مصر ونقل عاصمته إليها وسنة ٣٦٤ هـ انهزم افتكين^(٥) التركى من موله بختيار وسار فى طائفة صالحة من جند الترك فوصل إلى حمص ومنها إلى دمشق فدخل المدينة وأخرج حاكمها ريان وقطع خطبة المعز وخطب للطائع العباسى فلما مات المعز طمع بحياسة واغتصاب بلاده وأغار على صيدا وانتصر على حاكمها وقصد طبرية فنهبها وعاث فيها فغضب الخليفة العزيز وأرسل جوهراً بجيش ضخم فانسحب افتكين إلى الشام واستصرخ القرمطي قلباه فعرف جوهراً وانصرف فسارا فى أثره فأدركاه بظاهر الرملة ونزلوا على نهر الطواحين (نهر روبين) فقطعوا عنه الماء^(٦) فتراجع إلى عسقلان فحصراه مدة ثم فسحا له فذهب إلى مصر وعلم العزيز فبرز وفرق الأموال وجمع الرجال وسار إلى محاربة القرمطى وافتكين وعلى مقدمته جوهراً فاصطدم الجيشان على مقربة من الرملة وبعد قتال عنيف انهزم القرمطي وتبعه افتكين ومن معهما فبذل العزيز مائة ألف دينار لكل من أتاه بافتكين أسيراً فأدركه المقرج بن دغقل الطائى وقد كظه العطش فأخذه إلى بيته وأكرم مثواه لما كان بينهما من الأُنس القديم. ثم أعلم العزيز به فدفع إليه الجعالة وتسلمه فأحسن إليه وقربه وأعطاه الخيام وأعلى مكانه وأعاد إليه من كان يخدمه وحمله معه إلى مصر وجعله من أخص أعوانه. أما القرمطي فقد بعث إليه العزيز رسولاً يدعوهُ ليحسن إليه فلم يأمن وخاف الغدر فعين إليه ٢٠ ألف دينار سنوياً. وفى

(٥) يسميه الأتراك أنوشتكين والدروز نشتكين.

(٦) كان ينحدر الماء إلى الرملة من عين يردة وهى تبعد ١٥ كيلو متر من شرقها وآثار القناة باقية

للآن.

سنة ٣٦٨ هـ تغلب المفرج بن دغفل بن الجراح الطائي على الرملة وناحتيتها وأظهر طاعة العزيز من غير أن يتصرف بأحكامه فعظم شأنه وكثر جمعه وعاث في الأرض فساداً فجهز العزيز بالله العسكر وأمر عليها القائد يلتكين فسار مجدداً إلى الرملة وقد التف حوله القيسية «العرب» فقابله جيش المفرج وكان منظماً وبعد حرب قصير فر ابن الجراح إلى إنطاكية والتجأ إلى أميرها اللخمى التنوخى. فانقضت خلافة العزيز وداخلية البلاد في اضطراب واختلاف مع أنه كان حليماً عادلاً غير متعصب كثير التسامح لا يفرق بين المذاهب والأديان فكان كاتبه الخاص عيسى بن نسطورس مسيحياً ونائبه في دمشق منشأ يهودياً وقد اعترز المسيحيون واليهود في خلافته وهجاه شاعر فقال:

تنصر فالتنصر دين حق عليه زماننا هذا يدل

وقل بثلاثة عزوا وجلوا وعطل ما سوامم فهو عطل

فيعقوب الوزير أب وهذا الـ عزيز ابن وروح القدس فضل

فامتعض وغضب ولكن عفا عنه فأطال لسانه أحد الشعراء وغض من هيبه الملك وقال:

زبارجى نديم وكلسى وزير

نعم على قدر الكلب يصلح الساجور

فبلغه الخبر وعرف القائل فقال لابن كلس قد اشتركنا في الهجاء فشاركنى في العفو وتوفى سنة ٣٧٦ هـ وعهد إلى ابنه أبى على المنصور الملقب الحاكم بأمر الله ولغرابية أطوار هذا الخليفة نفرد له نبذة خاصة.

٤٨ - الحاكم بأمر الله

ولى الخلافة سنة ٩٩٦ م سنة ٣٧٦ هـ وعمره إحدى عشرة سنة ونصف فأوصى به والده أرجوان الخادم وجعله مدبر دولته فتغلب عليه الحسن بن عمار شيخ قبيلة كتامة وسيدها وبغى على الخليفة وتحكم فى المملكة وتلقب بأمين الدولة

وهو أول من تلقب فى الدولة الفاطمية وعبث بالخليفة واستصغره فتبسطت كتامة فى البلاد ومدوا أيديهم إلى أموال الرعية فأنف أرجوان وصى الحاكم وكاتب بعض القواد والعمال لاستخلاص البلاد منه فسار حاكم دمشق منجوتكين إلى مصر فاذاع ابن عمار أنه عصى الخليفة وندب العساكر لمحاربتة وأمر عليها أبا تميم سليمان بن جعفر بن فلاح فتصافا قرب عسقلان وأسروا منجوتكين وهزم جمعه وبعث به أبو تميم إلى مصر فغضب أرجوان وثار فى مصر وأخذ السلطة من يد ابن عمار وباع الحاكم ثانية فطمع المفرج الطائى ونزل على الرملة ونهب ما وجدته فأنفذ إليه أرجوان جيش بن الصمصامة فاسترد الرملة وهرب المفرج الطائى من بين يديه ثم ثار ثانية فملك الرملة وما والاها فاستبشر أبو القاسم المغربى وزبر شرف الدولة وانسل إليه وحبب إليه الخروج عن طاعة الفاطميين وحسن له أن يبايع سواهم فراسل أمير مكة الشريف أبا الفتوح وخطبه بأمير المؤمنين ورغبه فى القدوم إلى الرملة ليبايع له بالخلافة فاستناب بمكة وحضر وخطب بأمير المؤمنين ففرق الحاكم وراسل المفرج وابنه حسان ومجدهما وترضاهما وضمن لهما الإقطاع الكثير والعطاء الجزيل فعدلا عن الشريف ورداه إلى مكة وعادا إلى طاعة الحاكم الذى جهز عسكرياً إلى الشام بقيادة على بن جعفر وأمره أن يكبس بنى طي. فلما وصل الرملة أزاح حسان وأباه المفرج وعشيرتهما عن تلك الأراضى وأخذ ما كان لهم من الحصون بجبل الشراة ونهب أموالهم وذخائرهم واستأنف السير إلى دمشق. ثم أمن الحاكم المفرج وأكرمه ووضع عليه من سمه فارتاح من شغبه. ومن أعمال الحاكم المتناقضة التى تشهد بضعف عقله وهوسه أنه ادعى الألوهية وسمى نفسه الحاكم بأمره واضطهد الديانة الإسلامية وأمر بسب الصحابة وترك صلاة التراويح ونشر مذهباً جديداً أباح فيه زواج الأخ بأخته وحرّم أكل الملوخية لأن معاوية بن أبى سفيان كان مغرمًا بها وأكرم النصارى واستوزر منهم فهد بن إبراهيم الميحيى ثم اضطهدهم واليهود فأمر بهدم كنيسة القيامة فى القدس وغيرها من الكنائس ثم أمر بعماريتها على نفقته وسلب أموالهم وأمرهم أن يلبسوا السواد شعار العباسيين احتقاراً لهم.

ونهى النساء عن الخروج من بيوتهن وقد أجمع الشعب على كرمه وتوقوا بطشه فضررت منه أخته ست الملك وتوقعت نقمته فاحتاطت لنفسها واتفقت مع القائد ابن دواس على قتله فأمر من اغتاله قرب المقطم وأخفى جثته. ومن آثار شيعة الحاكم فى سورية وفلسطين الأمة الدرزية التى تنتسب إلى أنوشتكين الدرزي ومحمد بن إسماعيل التميمي الداعى وهما المبشران بألوهية الحاكم ومذهب التقمص الذى صادف هوى فى نفوس القرامطة «الدروز» فاعتنقوه. وبعد أن فقد الحاكم جمعت ست الملك الناس وأحسنّت إليهم ورتبت الأمور وبايعت للظاهر لإعزاز دين الله وجعلت الأمر فى يد ابن دواس تطميناً له ثم أمرت بقتله وأعلنت للقواد أنه هو الذى قتل سيدهم ومدّت يدها إلى الملك فاستبدت به.

وسنة ٤٠٢ هـ استطال حسان الطائي واستفحل أمره فى فلسطين وعقد حلفاً مع صالح بن مرادس أمير بنى كلاب وسان بن عليان واتفقوا على أن يقتسموا سورية بينهم فيكون من حلب إلى عانة لصالح ودمشق وملحقاتها إلى سنان ومن فلسطين إلى مصر لحسان فاستولى صالح على حلب وبلادها وحصر حسان الرملة وامتلكها ومن تأمل قليلاً فى هذا الحلف يجده منطوياً على أسرار خطيرة لأن هؤلاء الرجال كانوا أمراء القبائل العربية فى عصرهم ويشبهون فى الحالة الراهنة ابن سعود وخزعل وابن الشعلان وابن مهيد.. الخ. وقد رأيت مما مرّ بنا إن أسماء القواد والعمال كانت أجنبية ولم يبق للعرب حظ فى دولتهم فنقموا هذه السياسة وعقدوا حلفاً عربياً صرفاً ضد الأعاجم الذين كانوا يحكمون رقاب قومهم ويسومونهم سوء العذاب. وقد تنبه الوزير المهلبى إلى هذه الأخطار وأشار إلى ما ترمى إليه الحكومة من سوء الإدارة بإقصاء العرب وتقريب الأجانب.

وقد لمح المتنبى فى شعره إلى أن البلاد العربية أصبحت أعجمية فقال قصيدة منها:

ولكن الفتى العربى فيها	غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنة لو سار فيها	سليمان لسان بترجمان

فمن هذا يظهر أن البلاد العربية والشعب العربي انفصل عن حكومته وسادت عليه العناصر الأخرى فكان يشكو ويتألم ولكن بلا جدوى لأنهم كانوا غير قادرين على دفعهم والخلفاء لا يأخذون بيدهم فعمدوا هذا الحلف وحاولوا إثبات حقهم وكان يجب على الخليفة الظاهر أن يؤازرهم ولكنه سخط وغضب ثم جهز قائدة أنوشتكين البريدى بجيش كبير فسار إلى فلسطين ودلف إليه حسان وصالح فتصافوا في سهل الأقحوانة^(٥) وبعد قتال عنيف قتل صالح وابنه الأصغر وأرسل أنوشتكين رأسيهما إلى مصر واستولى على جميع البلاد ونجا نصر بن صالح فأسس في حلب الدولة المرداسية واستكان حسان حتى سنة ٤٣٣ هـ ثم نهض مع بنى كلاب وثاروا ثانية ولكنهم لم يفلحوا وسنة ٤٦٠ هـ كثرت الزلازل بمصر والشام فانثلم سور القدس وانهدم أكثر منازل الرملة وهلك تحت الردم خلق كثير فتحولت المدينة إلى قرية وانشقت صخرة بيت المقدس وسنة ٤٢٩ هـ سمح الخليفة المستنصر بتعمير كنيسة القيامة وهادن ملك القسطنطينية.

وفى أيام هذا الخليفة اجتاز عرب بنى هلال فلسطين وعبروا مصر وقد بولغ فى قصصهم حتى اختلط الصحيح بالفساد ولكن ابن الأثير وابن خلدون ذكرا ما تورده هنا بعد التمهيص فقالا: إن المستنصر استوزر الحسن بن علي من قرية يازور (قرب يافا) ولم يك من أهل الوزارة بل كان قاضياً على الرملة فأكرم العلماء وبجلهم فاحبوه وساعده الحظ فارتقى الوزارة ونال الإمارة بجده وعلمه واتفق أن والى إفريقية المعز بن باديس قطع خطبة العلوى سنة ٤٤٠ هـ وخطب للقائم العباسى فحنق المستنصر وتهده فغلظ المعز فى الجواب وخرج عن مألوف المخاطبات مع اليازورى وكتبه بصنيعته «وليس بعبده» فعاتبه فلم يرجع وطغى فلما أن قدمت قبائل بنى هلال زغبة ورياح وسليم وعدى وخفاجة وأميرهم مؤنس ابن يحيى المرداسى انتهز المستنصر ورجاله هذه الفرصة وأصلحوا ما بينهم وأزالوا أحقادهم وأعطوهم أموالاً ووجهوهم إلى القيروان وعامدوهم بأن يعطى لهم كل ما يفتحونه ووعدوهم بالمدد والمساعدة فدخلت العرب إفريقية وكتب اليازورى إلى

(٥) القحوانة قرب طبرية على شاطئ البحيرة.

المعز: «أما بعد فقد أرسلت إليك خيولاً فحولاً ورجالاً كهولاً ليقضى الله أمراً كان مفعولاً» فجاسوا الديار وعاثوا فيها وامتلكوها وظلوا في حروب مستمرة حتى أواخر سنة ٤٥٧ هـ فاصطلموا زنانة وتم لهم النصر.

وفي عهد المستنصر بالله كثرت الاضطرابات في مصر فاستقدم الخليفة بدر الجمالي حاكم عكا لإصلاح ما فسد فنشط بدر ودخل مصر في جيش من أهل فلسطين ففتك بجند الأتراك ولكن الخليفة لم يتعهد بلاد سورية فشغرت وهب ملكشاه السلجوقي لامتلاكها وفي سنة ٤٨٧ هـ توفى الخليفة المستنصر وكانت مدة خلافته ستين سنة وأربعة أشهر.

٤٩ - الدولة السلجوقية

زحف من تركستان إلى البلاد الإسلامية قبائل متعددة كانت خاضعة إلى الأمراء السلاجقة الذين انقسموا فيما بعد إلى دول ثلاث: خراسانية وسورية وآناضولية. وقد اشتهر طغرل بك حفيد سلجوق بالشجاعة والبطانة وساعده الحظ والاجتهاد إلى أن دخل بغداد وخطب له على منابرهما واخضع من تمرّد على العباسيين ولكنه توفى عقيماً فانتقل ملكه إلى ابن أخيه السلطان ألب أرسلان الذي امتد نفوذه واتسعت حدود بلاده واستولى على حلب فلما قضى خلفه ابنه ملكشاه فهم بفتح مصر واستئصال الدولة الفاطمية وسير سنة ٤٦٣ هـ وسنة ١٠٧٧ م أحد قواده اتسز «اقسز» بن أوق الخوارزمي إلى فلسطين ففتح مدينة الرملة وحاصر القدس وفتحها وملك ما يجاورهما من البلاد خلا عسقلان وقطع الخطبة الفاطمية وأحيا الخطبة العباسية وفي سنة ٤٦٨ هـ حاصر دمشق وفتحها ومنع الشيعة أن يجهرروا في آذانهم بفقرة «حي على خير العمل» وأن يؤذّنوا كالسنين وفي سنة ٤٦٩ هـ سار لفتح مصر فقابله أمير الجيوش بدر ومعه جمع كبير من العرب فهزمه وقتل أخاه وأكثر أصحابه فعاد «اتسز» منهزماً إلى الرملة ثم سار منها إلى دمشق وقد خالف أهل القدس حاكمهم فنهد إليهم وحصر المدينة ففتحها عنوة ونهبها وقتل أهلها حتى من التجأ إلى المسجد الأقصى وكف عن عاذ بالصخرة. وفي سنة ٤٧١ هـ أقطع السلطان ملكشاه الشام لأخيه تاج الدولة تتش فكف

هجمات المصريين عن البلاد وقتل «اتسز» لأنه لم يستقبله وبعد وفاة ملكشاه استقل في سورية ودعا لنفسه وفي سنة ٤٨٢ هـ نهضت عساكر مصر لاسترداد سورية فلم يتوافقوا إلا لفتح عكا وبعض بلدان فلسطين فعين أمير الجيوش عليها الأمراء والعمال وفي سنة ٤٨٦ هـ فتحوا مدينة صور. ولما توفي «تنش» انقسمت مملكته إلى قسمين كانت قاعدة إحدهما حلب وملكها ابنه رضوان وحاضرة الأخرى دمشق وسلطانها دقاق. فشق رضوان أخاه وسار إلى فلسطين ليفتحها فجاء إلى نابلس والقدس ورجع خائباً ثم مات دقاق ملك سورية واستبد بالملكة أتابكه «مملوكة» «طفتكين» وأسس ملكاً لولده بوري المنتسبة إليه هذه الدولة وقد وهم بعضهم فظنها دولة سلجوقية والواقع أنها بورية وهكذا ظلت الدولتان السلجوقية والفاطمية في عراق وصادم فإذا ما استضعفت إحدهما الأخرى كانت تغير على بلادها وتقتطعها فتتربص الثانية حتى يوهن عدوتها فتق أو طارئ جديد فتتال به غرة وتهب بخفة وتسترد منها ما سلب. فباغتتهم الصليبيون وهم منهوكون القوى وبلادهم فوضى وجيوشهم قد سئمت الحرب وملته وزهدت في القتال والدفاع وطما عليهم السيل الغربى وأيقظهم التيار الأوروبى فغمر بلادهم وحكم فى رقابهم وطردهم من أوطانهم وسلب أطيب رقادهم حتى قبض الله لهم صلاح الدين فأخذ ثأرهم ونفى عارهم واسترد استقلالهم ونجاهم من عذاب أليم.

الفصل العاشر

٥٠- الصليبيون

توالى على العرب فى فلسطين لنزع السيادة منهم هجمات كثيرة أعظمها الحملات الصليبية الأوروبية التى كان الباعث لها أسباباً خطيرة لا يسعنا تفصيلها فى هذا الموجز بل نكتفى بسردها مختصرة فنقول: ظهرت هذه الحرب لعامة شعوب أوروبا بمظهر دينى فقط فأشاعوا أن السلجوقيين أهانوا حجاج المسيحيين واعتدوا عليهم غير أن التواريخ العربية لم ترو هذا الخبر قطعاً بل ذكرت أن المسيحيين كانوا ينعمون فى حريتهم مثل المسلمين وما كان يقتصره بعض الملوك مثل الحاكم الفاطمى من الظلم والجور كان يشمل المسلمين والمسيحيين على السواء ولكن هذه الحروب كانت منطقية على أمور سياسية كما ورد فى خطاب البابا أوربانوس الذى حرض به الممالك التجارية على اغتنام هذه الفرصة ويقال: إن روم القسطنطينية خافوا سلجوقى الأناضول فاستغاث إمبراطورهم بالبابا ووعدته أن يضم كنيسته إلى كنيسة روما ويقال: إن الحكومات التجارية حرصت على أسواق الشرق لما اضطربت العلاقات بين آسيا وأوروبا فهبت تدافع عن مصالحها. وقيل أن أيدى أمراء المقاطعات فى أوروبا لاسيما فى انكلترا كفت وألغيت امتيازاتهم فأخذوا يبحثون لهم عن بلاد أخرى يستعيضون بها عن مقاطعاتهم. ومما هو جدير بالذكر أن أوروبا كانت حينئذ مسوقة بتيار دينى وهوس مسيحي وكان ذلك الوقت زمن الفروسية والنجدة فنذر كل فارس أن ينقذ الأراضى المقدسة من أيدى المسلمين ويغيث الضعيف والمظلوم. وهذا الشعور الدينى كان عاملاً عظيماً فى الحروب الصليبية لأنه عز على أبناء المسيح فى أوروبا أن يروا أقدس بقعة لديهم فى يد عدوهم. فلما زار القدس بطرس الناسك الأقرنسى فى أواخر القرن الحادى عشر وشهد خشونة التجبر وذاق مرارة التحكم التهب فى صدره نار الحمية وقابل

بطريك القدس فحدثه بهذه الشدة والقساوة ووعدته أن يستبدل هذا الذل بالعز
وصمم على إثارة نفوس زعماء أوروبا إذا هو لم يمت فلما رجع أعلن ما رآه وحدث
البابا بما عاين ولمس فعقد الاجتماعات وأرسل المناشير وخطب ووعظ وأقنع الأسم
الأوروبية وهاجهم وحرصهم على فتح فلسطين والاستيلاء على الأماكن المقدسة
ولكننا نضرب صفحاً عما يتعلق منها بأوروبا ونحصر بحثنا بما جرى في فلسطين
لأن هذا المختصر لا يتحمل التظويل فنقول كانت فلسطين قبل قدوم الأفرنج
محطة للنوائب لأنها توالى عليها الزلازل وفتكت بها الحروب والفتن وأهزلتها
المجاعات بل كانت شبه كرة يتلقفها فريق ويتخطفها آخر فيوماً تكون تحت
النفوذ العباسي ويوماً في يد الفاطمي يتنازع عليها القواد ويغتصبها الأمراء
ويقتسمها العمال وليس للخلفاء إلا الخطبة والسكة والطراز وأصحاب الأقاليم
والبلاد هم السلاطين والملوك يحكمون ويجبون الأموال ويعلمون الحروب ويؤيدون
الخلافة ويتمسكون به ليهبهم الألقاب ويخطب لهم على المنابر.

فزحفت جموع أوروبا إلى سورية باذلة أرواحها ومهج بنيها وحملوا على الشرق
تسع حملات تخللها كثير من النجداث بعضها هوى في الطريق والبعض الآخر
وصل فلسطين.

الحملة الأولى: سنة ١٠٩٦ م أو سنة ٤٩٠ هـ

كانت الحملات الصليبية خليطاً من الفرسان "Knights" والجنود المنتظمة
والمقطوعة تسير جماعات بمواشيها كالقبائل الرحالة فلا قائد يتعهدهم ولا أمير
يدبر شؤونهم كأنهم قطع من البشر ساقهم التمعص الديني إلى الموت.

اجتمع في فرنسا سنة ١٠٩٥ م جمهور مختلط يبلغ عددهم مائتي ألف نفس
بلا رابطة تجمعهم ولا ألفة تمسكهم إلا عاطفة رسم الصليب «+» المنقوش على
سلاحهم وصدورهم. فساروا إلى ألمانيا فالنمسا فهنغاريا فالأستانة وهناك أحصى
عددهم فإذا هم النصف والباقي تخطفه أمل البلاد فقتلوه ومنهم من مات جوعاً
أو ضل عن الطريق ومنهم من رجع فانطفأ أمله بإنقاذ القبر المقدس. فاستأنف

الباقون السير برأ إلى الأناضول فصدّهم السلاجقة إلا أنهم عجزوا عن إيقافهم. وبعد قتال عنيف استولوا على إنطاكية سنة ٤٩١ هـ وسنة ١٠٩٦ م ومنها انحدروا إلى المدن الساحلية كطرابلس وبيروت وصيدا وصور وعكا ويافا مُجدّين في سيرهم مصممين على فتح بيت المقدس فلما عرف الفاطميون بقدومهم ورأوا الخطر المهدق بهم طلبوا مصالحتهم على شرط أن يسهلوا الطرق لمن أراد زيارة القدس من المسيحيين فرفض الأفرنج وقصدوا الرملة فذهب إليهم نفر من أهالي بيت لحم ورحبوا بهم وحثّوهم على قتال الفاطميين فصعدوا من الساحل إلى القدس وكان عددهم ٤٠ ألف مقاتل فحاصروها وتحملوا من المشاق والصعوبة ما أزعجهم.

٥١ - فتح القدس:

كانت القدس قبل الفتح الصليبي في يد سلاجقة الشام فخرج عسكر الخليفة الفاطمي بقيادة الأفضل بن بدر الجمالي واستولى عليها أماناً في شعبان سنة ٤٨٩ هـ فدخلت في ملك المصريين وأنابوا عنهم فيها أفتخار الدولة فاتاها الإفرنج وحاصروها نيفاً وأربعين يوماً وعانوا صعوبات شديدة نأتى على أجلها.

١ - قلة الماء: فإنهم كانوا ينقلونهُ من البيرة وعين كارم ولقتا.

٢ - نفاذ الذخيرة: إننا قد شهدنا أثناء الحرب العامة ما كان مجموعاً لتأمين المجاعات ومع ذلك فقد شكا الجند الجوع والعطش وكانت الحكومة المحلية تحرسهم والشعب يؤازرهم فكيف بجماعات غرباء في بلاد يمسّتهم أهلها ويقبحون أعمالهم وينكرون فظائعهم.

٣ - لوازم الحصار: فإن المحاصر يحتاج إلى أخشاب وأدوات أخرى وهؤلاء الدخلاء لم يحضروا معهم شيئاً من ذلك وكانت البلاد قاحلة والأحراج بعيدة عن القدس ولولا قدوم السفن الإيطالية التي كانت معها كثير من الأخشاب لما قدروا على بناء الأبراج ولما استطاعوا التسلق على جدران المدينة ولكنهم ذللوا كل هذه الصعوبات وحاصروا المدينة ودخلها غود فرى من باب السامرة وهو أول الداخلين ثم فتحت جميع الأبواب فملكوا القدس عنوة يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان

سنة ٤٩٢ هـ وسنة ١٠٩٩ م وليث الفرنج يقتلون ويفتكون فى نساء وأطفال وشيوخ ومرضى المسلمين أسبوعاً ويقدر ما قتل منهم فى المسجد الأقصى ما يربو على ٧٠ ألف نفس وفيهم أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم ممن جاوروا بيت المقدس وما ندرى لو تجلى السيد المسيح وآهم يرتكبون تلك المخازى والمنكرات ماذا عساه يقول لهم وهو القائل «أحبوا أعداءكم» ولو أنا قايسنا بين دخول عمر ابن الخطاب الهدوى وبين دخول غودفرى الافرنسى الذى عاش فى القرن الخامس بعد عمر لخجل الفرنج من سيرة قائدهم وفظائمه وافتخر العرب بعدل خليفتهم ومآثره.

فلما رأى المسلمون ما حل بهم استجاشوا الجموع لمحاربة الفرنج واسترجاع بيت المقدس فهتف الأبيوردى بقصيدة عصماء منها:

وشر سلاح المرء دمع يفيضه	إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فهيا بنى الإسلام إن وراءكم	وقائع يلحقن الذرى بالناسم
وكيف تنام العين ملء جفونها	على مفوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام يضحى مقلهم	ظهور المذاكى أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم	تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
وكم من دماء قد أبيحت ومن دُمى	توارى حياءً حسنهما بالمعاصم
وتلك حروب من يغيب عن غمارها	ليسلم يقرع بعدها سن نادم
أرى أمتى لا يشرعون إلى العدى	رماحهم والدين واهى الدعائم
فليتهم إن لم يذودوا حمية	عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم

فهاجت نفوس المصريين وحشد الأفضل أمير الجيوش عساكره وسار إلى عسقلان وأنكر على الفرنج ما فعلوه وتهددهم فعاجلوه وهزموه وقتلوا من جيشه كثيراً وغنموا ما فى المعسكر من مال وسلاح فانسحب إلى عسقلان ومنها إلى مصر فحصر الفرنج عسقلان وأخذوا من أهلها ٢٠ ألف دينار قطيعة لهم وعادوا إلى

القدس متخاذلين فأسسوا مملكة لاتينية صغيرة على شكل الإقطاع الأوروبي القديم واختاروا غودفري أميراً عليهم وشرعوا يفتحون ما بقى من مدن فلسطين فعاجل غودفري أجله ودفن في كنيسة القيامة على يمين الداخل ويوجد هناك سيف يزعمون أنه سيفه ولا يعلم حقيقة ذلك الزعم وانتخب بعده أخوه بلدوين ففتح مدينة ارسوف أماناً وحيفاً وقيسارية وقتلوا أهلها. ثم فتحوا كافة مدن الساحل خلا صور وعسقلان وظلوا في حروب مستمرة مع الفاطميين وبوريى دمشق فلم يظفر أحدهم بالأخر وعجز المسلمون عن رد غاراتهم لأن بلادهم كانت منقسمة إلى إمارات وملوك عديدة واتفق أن استحکم الخلاف بين السلاجقة فشغلوا عن مقاومة الأجانب بمحاربة بعضهم بعضاً حتى إن «يكتاش بن تتش» أخا ملك سورية وايتكين الحلبي صاحب بصرى خالفاهم فاطمان الصليبيون وظنوا أنهم ملكوا البلاد فبنوا قلعة الشوبك والكرك وحصون عثليت وصفد وطبرية. وفي سنة ٥١٩ هـ انضم أمير العرب ديبس بن صدقة إلى الفرنج وحارب معهم العرب والمسلمين وفي سنة ٤٩٦ هـ سير الأفضل أمير الجيوش مملوك أبيه سعد الدولة لمحاربة الفرنج فلقيهم بين الرملة ويافا وبعد قتال عنيف كبا به الجواد فقتلوه وهزموا جنده وملكوا ما في خيامه فارسل الأفضل ابنه شرف المعالي في جمع كثير وصادمهم قرب يازور وهزمهم وأثنى فيهم وأسر كثيراً من زعمائهم وأرسلهم إلى مصر وفتح الرملة وعزم أن يذهب إلى فتح القدس فجاءت نجدة صليبية من البحر فقبض عزمه وخارت قوته فانسحب إلى عسقلان واحتفى بها فحصرهم ثم قتلوا راجعين إلى القدس

وفي سنة ٥٠٢ هـ سار طغتكين إلى طبرية فحارب ابن اخت بلدوين وانتصر منه وأسره ثم هادن بلدوين أربع سنوات. وفي سنة ٥٠٧ هـ نزل طغتكين بجيشه الأقحوانه وحارب الفرنج فخذلهم وغرق منهم خلق كثير في البحيرة ونهر الاردن فاستغاثوا بفرنج طرابلس وإنطاكية فأنجدوهم وأعادوا الكرة ولكنهم جبنوا والتجأوا إلى جبل غرب طبرية فحصرهم طغتكين ٢٦ يوماً ثم سار إلى بيسان فنهب بلاد الفرنج بين عكا والقدس. وفي سنة ٥١٢ هـ خف طغتكين لمحاربة

الفرنج فلقبهم بين دير أبوب وكر بصل (فى حوران) ودخل طبريا ونهبها وما حولها وقصد عسقلان واتفق مع الجيش المصرى المربط فيها ثم عاد إلى دمشق وهكذا ظل المسلمون والصليبيون فى كروفر حتى سنة ٥٤٧ هـ وسنة ١١٥٣ م فانقض الفرنج على مدينة عسقلان وفتحوها ونزعوها من يد الفاطميين فاستراحوا من غزواتهم وغاراتهم. ثم قام بعد بلدوين الأول بلدوين الثانى والثالث والرابع والملك أمورى ولكن همهم أخذت تضعف وتفتروهمم الوطنيين تقوى وتستمر لأن حماسة الصليبيين تلاشت وانطفأت حرارتها فزال المحرك الذى ساقهم لإنقاذ البلاد والقبر المقدس مما رأوا من فساد الرهبان وأطماع الأمراء الذين رجعوا إلى سيرتهم الأولى فاختلفوا وانشقت كلمتهم وانصرف كثير منهم إلى بلادهم وتخاصم الباقون على التاج والألقاب والسلطة والأموال وتفاقم بينهم الخلاف والانقسام ووجبت شمسهم بقدوم بطل الشرق السلطان صلاح الدين فذك عرشهم ونكس أعلامهم.

الفصل الحادى عشر

صلاح الدين الأيوبى مؤسس الدولة الأيوبية

٥٢ - حالة العالم الإسلامى

قبل أن نشرح سيرة السلطان صلاح الدين نمهد للقارئ الأسباب التى ساعدته عَلَى بلوغ هذا المقام العالى فنقول: كان العالم الإسلامى فى سبات عميق فالأشراف يتنازعون الخلافة حتى لا يكاد يمر عام إلا ونسمع أنه خطب لفلان عَلَى منابر اليمن أو الحجاز أو مصر ولآخر فى شمال إفريقية أو العراق أو طبرستان إلخ. والأمراء والملوك اقتسموا البلاد فاقتطع بنوزنكى «ممالك السلاجقة» ولاية الموصل وامتدوا إلى سورية واشتهر منهم نور الدين بمناهضته للفرنج فامتلك دمشق سنة ٥٤٩ هـ واختار أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين قائدًا عامًا لجنوده.

فلما اختلت أحكام مصر وغلب الخلفاء عَلَى أمرهم تواتب الأمراء وطمعوا فى الوزارة فتولاهما فى سنة واحدة أربعة ونهض أمير الصعيد زرغام وغصبها من شاور الذى التجأ إلى دمشق وطلب إلى نور الدين أن يساعده بقوة عسكرية لاسترجاع منصبه بشرط أن يعطيه ثلث حاصلات البلاد خلا إقطاعات العساكر ويظل شيركوه بعساكره فى مصر «احتلال عسكرى» فأرسل مع أسد الدين شيركوه فدخل مصر وقتل زرغامًا وعين شاورًا محله فنكت وعده واستعان بالصليبيين عَلَى اخراج أسد الدين من بلاده فأجابوه وردوا الجيوش الشامية.

وفى سنة ٥٦٢ هـ سار أسد الدين ثانية إلى مصر بجيش مجهز ففتح ثغر الإسكندرية واثخن فى الصليبيين وعساكر مصر وفتح الصعيد وجبى أمواله وأخيرًا اتفقا عَلَى أن تبرج جنود نور الدين والصليبيين مصر بشرط أن يدفعوا إلى شيركوه خمسين ألف دينار سوى ما جباه من الأموال فتمت المعاهدة ورجع إلى الشام. لكن

الصليبيين نقضوا وتواطأوا مع المصريين عَلَى أن يكون لهم بالقاهرة شحنة تحرس أبواب المدينة ويعطى لها معاشاً سنوياً مائة ألف دينار من واردات مصر فتجاوزوا هذا الحد وتجبروا وطمعوا فى استملاك البلاد وأرسلوا جنداً للاستيلاء عَلَى مدينة بلبس وأفحشوا فيها وحاصروا القاهرة فاستغاثت الخليفة العاضد بنور الدين واستنجده فلباه بإرسال أسد الدين مع جيش كبير مجهز بالمهمات وأعطى لكل جندى علاوة عَلَى راتبه عشرين ديناراً فساروا حتى قاربوا مصر فرحل الفرنج عنها واستمر أسد الدين فى سيره حتى قدم القاهرة فدخلها ورضى عنه العاضد لكن شاور أخذ يماطل فى قطاع الجند وثلث البلاد ففرغ صبر صلاح الدين وفنك به فخلع العاضد على شيركوه خلع الوزارة ولقبه الملك المنصور. وبعد شهرين وخمسة أيام من تاريخ وزرته توفى ﴿ حَتَّى إِذَا فَرَخُوا بِمَا آوُتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ﴾^(١) فهب أمراء الأجدد يطالبون منصبه وكل منهم جمع أصحابه ليغالب عليه فاختار العاضد يوسف صلاح الدين ابن أخى أسد الدين وولاه الوزارة وخلع عليه مراسيمها ظاناً أنه صغير السن قليل الاختبار و الدربة فيتمكن منه بما يريد ويستميل الجند ويخرجه من بلاده ويسترد استقلاله. وطمع الفرنج فى صلاح الدين وحاولوا امتلاك مصر فساروا إلى دمياط وحاصروها سنة ٥٦٥ هـ وسنة ١١٦٩م فقاومهم صلاح الدين وأغار على بلادهم الشامية وناوأ الكرك فخافوا العقبي وارتدوا عَلَى أعقابهم فاقترافهم وكبس عسقلان والرملة ونهب ريف غزة وفتح فرضة ليلة «العقبة» ثم أرسل اخاه شمس الدولة إلى اليمن ففتحها وتوغل هو فى السودان وضمه إلى مصر فدبت الغيرة فى صدر نور الدين وخشى أن يتفق صلاح الدين والفاطميون ويخلعوا طاعته فطلب إليه أن يقطع خطبة العاضد ويخطب إلى المستضى العباسى ابتداء جمع الكلمة فتردد صلاح الدين قليلاً ثم أسر سنة ٥٦٧ هـ وسنة ١١٧١ م بلبس السواد شعار العباسيين وخطب فى الجوامع للمستضى وقطع خطبة الفاطميين فانقرضت الخلافة الفاطمية بعد أن دامت

(١) سورة الأنعام الآية ٤٤

٢٦١ سنة فلم تطب نفس نور الدين وخاف العقبي فاستوحش صلاح الدين وسعى ليبقى الفرنج حاجزاً بينهما وكـم حاول نور الدين الاجتماع به فلم يتوفق لأنه كان إذا ما اقترب منه قفل راجعاً إلى مصر متملاً بالأعداء وظل يراوغ أحدهما الآخر حتى توفي نور الدين واستخلف بعده ولده الملك الصالح إسماعيل فخطب له صلاح الدين وضرب السكة باسمه وتربص متربصاً حصول فتنة أو خلاف في بيت زنكي فلما حدث أسرع إلى دمشق وفتحها وهو يظهر الطاعة إلى الملك الصالح الذي كان يخاطبه بالملوك ثم فتح قلعة حمص وبعلمك وحماه وغير ذلك.

وفى سنة ٥٧٣ هـ سار صلاح الدين إلى ساحل الشام فوصل عسقلان وبـث السرايا للغارة والإرهاب وانفرد بثلة قليلة من الجند فباغته الفرنج على نهر روبين وفتكوا بجنده فرجع مخذولاً وأرسل إلى أخيه توران شاه يقول:

ذكرتك والخطى يخطر بيننا وقد نهلت منا المثقفة السمر

نجونا من الموت الوحي غير مرة وما يثبت إلا وفى نفسها أمر

وفى سنة ٥٨٠ هـ بنى الفرنج حصناً منيعاً بمخاضة الأحزان (جسر بنات يعقوب قرب صفد) فعز ذلك على صلاح الدين فواقعهم وبعد معركة شديدة أسر فيها حكام الرملة ونابلس وطبرية وجنين. فتح الحـضن وهدمه وكان فخر هذا النصر إلى فرخشاه ابن أخى صلاح الدين الذى غشى الوغى وهو يتمثل:

فإن تكن الدولات قسماً فإنها لمن يرد الموت الزؤام تؤول

ومن هوّن الدنيا على النفس ساعة وللبيض فى هام الكماسة صليل

إن الحركات الحربية بين الصليبيين والوطنيين كانت تدور شرقى القدس على الكرك والشوبك لأنهما فى طريق الحج وجسر اتصال بين الشام والحجاز ومصر ومن جهة غربها على عسقلان لأنها محطة الارتباط بين مصر ودمشق فمن يملك هذين المركزين كان يقطع المواصلات ويعوق الحركات وقد أدرك الصليبيون مكانة هذه النقاط فامتلكوها واحتفظوا بها وحصنوها فحجزوا ما بين مصر والشام وضيقوا مجرى تنفسهما بل داخلهم الغرور وطمعوا فى مهاجمة مكة والمدينة المقدستين

للقضاء على الدين الإسلامي فسار البرنس ارنا (رينو) Renaud صاحب الكرك إلى تيماء في سنة ٥٧٧هـ وسنة ١١٨٢م مستطلاً فسمع بذلك عز الدين فرخشاه وإلى دمشق وسار مجدداً إلى الكرك فنهب بلادها وصد ارنات عن التقدم ولكن في سنة ٥٧٨هـ نضجت فكرة فتح الحجاز في دماغ البرنس ارنات وعزم على خضد شوكة المسلمين فعمل أسطولاً وجمع قطعه مفككة وحملها إلى بحر إيالة ثم ركبها وشحنها بالمقاتلة وسيرها في البحر الأحمر وحصر من في إيالة ومخر من معه بحر عيذاب وأفسدوا السواحل فعرف الملك العادل وأمر قائد أسطوله لؤلؤاً بمطاردته فسار وبلغ إيالة وقتل من عليها وتبع من في البحر بمراكبه وجنده فأدركهم في ساحل الجوزاء وأوقع بهم فاعتصموا بشعاب البر فأخذ خيلاً من الأعراب وأركبها جنده وما زال يقاتلهم حتى ظفر بهم وأسروا منهم كثيراً ونحروهم وسار صلاح الدين من دمشق إلى طبريا فخيم في الأقحوانة ونزل الفرنج طبريا فشد فرخشاه على بيسان وفتحها وغنم ما فيها ثم أغار على جنين واللجون ومرج عكا.

وعاود الكرة ثانية فغزا بيسان وخربها وأغار على الكرك ولما صدر عنها نهب مدينة نابلس وأحرقها ونهب كل ما على طريقها ونهب سبسطية وجنين وفي سنة ٥٨٢هـ انحاز كونت (قمص) طرابلس إلى صلاح الدين فوعده بالناصره وضمن له أن يجعله ملكاً مستقلاً وأطلق من عنده من أسراء. وقد طاش سهم البرنس أرنات فغدر بعهدده بعد الهدنة وأغار على قافلة عظيمة كان فيها أخت صلاح الدين فنهبها وأسروا رجالها. فغضب الأفضل بن صلاح الدين وغزا بلاد عكا وحارب الأعداء في قرية صفورية فكسروهم وقتل عدداً من شجعانهم ولكن جميع هذه المواقع مع الفرنج لم تكن سوى مناوشات ومقدمات لمعركة فاصلة إما أن تكون له أو عليه.

٥٢ - معركة حطين (*)

رأى صلاح الدين الفرنج قد أسسوا أربع مقاطعات في داخل مملكته: الأولى مقاطعة القدس والثانية طرابلس الشام والثالثة إنطاكية والرابعة الرها وارفأ وأن

(١) قرية صغيرة واقعة فوق تل يشرف على غرب بحيرة طبريا

تلك المقاطعات بؤرة ثورات وفساد فى قلب مملكته. وكان أشدهن تنكيلاً برجاله وأنقلهن عليه مقاطعة فلسطين وأعظم أبطالها وأعندهم البرنس ارناط صاحب الكرك الذى حاول احتلال الحجاز وتعرض لأخت صلاح الدين وكرر نكته لليهود مما أسخط المسلمين وأحفظهم على صلاح الدين فأطالوا ألسنتهم وفوقوا إليه سهام السياب واللعن وقالوا: «ترك قتال الفرنج وأقبل على المسلمين يقاتلهم ويفتح بلادهم». فتحركت لذلك غيرة صلاح الدين واستفز الناس للجهاد وجمع جيشاً عرمرماً وعسكر فى سهل الاقحوانة واستشار فأشار عليه بعضهم بترك منازلة الأعداء والاكثفاء بشن الغارات وأشار عليه الآخرون بملاقاتهم ومناجزتهم فعزم على المناجزة والدخول مع الفرنج فى ملحمة كبرى فسار إلى طبرية وفتح المدينة دون القلعة وأحرق ما فيها من الذخائر الفاضلة عن حاجته واحتفظ بمنايع المياه ولما أحس الفرنج بعمله استخفوا به وبجيشه وساروا إلى ملاقاته ففى ٢ تموز الموافق ٢٤ ربيع الآخر فاشتد عليهم العطش من حمارة القيظ وتقابل الفريقان فى سهل قرية لوبيا وعزم الفرنج على ورود الماء فأدرك صلاح الدين مرادهم وصدهم عنه وأمر بإحراق العشب والأشواك فأخذ منهم الظمأ كل مأخذ وحملوا حملات عنيفة كادوا يزيلون بها المسلمين لولا ثبات أبناء فلسطين الذين استماتوا فى حومة الوغى حتى هب عليهم ريح النصر وكسروا الفرنج وركبوا أقيقتهم وطحنوا جيشهم حتى لم تقم لهم بعدها قائمة وتقدر قتالهم فى حطين بثلاثين ألفاً خلا الأسرى فقد أسروا كثيراً من أبطالهم منهم الملك (Guy) غاى ورنو (ارناط) صاحب الكرك وبعد أن فرغ المسلمون من القتال فائزين جلس صلاح الدين فى خيمته وأحضر ملك الفرنج ورنو صاحب الكرك وأجلس الملك إلى يمينه وأعطاه ماءً مثلوجاً فشرب وأعطى فضله البرنس ارناط فغضب السلطان وقال للملك إن هذا الملعون لم يشرب بإذنى فينال أمانى ثم التفت إلى البرنس وذكره بذنوبه وعدد عليه عوراته وقام إليه بنفسه وضرب رقبتة وقال كنت نذرت مرتين أن أقتله إن ظفرت به الأولى حينما أراد المسير إلى مكة والمدينة والثانية لما أخذ القافلة غدرًا ثم أمر به فسحب إلى خارج المكان وباسط الملك وأمنه.

كانت معركة حطين من المعارك الفاصلة التى ختمت الحروب الطويلة بين الشرق والغرب وجدير بأهل فلسطين أن يجعلوا يوم السبت الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ عيداً سنوياً وتذكاراً روحياً عظيماً فإن فيه خضدت شوكة الجيش الصليبي وقلَّ حده وقويت جموع الوطنيين وانتعشت نفوسهم فعادوا إلى طبريا وتسلموا قلعتها من زوجة صاحبها أمناً ووفى لها صلاح الدين ثم سار إلى عكا وامتلكها وجاء الملك العادل من مصر وفتح حسن مجدل يابا (مجدل الصادق) ويافا وساحت عساكر السلطان فى البلاد ففتحوا الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا فالتشقيف وغيرها من البلاد المجاورة ثم سبسطية ونابلس واجتمع عسكر الملك صلاح الدين بجنود أخيه العادل وساروا إلى عسقلان وفتحوها وبثوا السرايا فى أطراف البلاد المجاورة ففتحوا الرملة واللد وغزة والخليل وبيت لحم وبيت جبرين. وأمر قائد أسطوله حسام الدين لؤلؤاً أن يقطع طريق البحر ويتصيد مراكب العدو ويمنعها أن ترسو على سواحل البلاد وأرسل رسلاً لمفاوضة أهل القدس كي يسلموا المدينة فرفضوا فنهد إليهم بجنده وخيم على التكهفورية بين المحطة وبركة ماملا وظل خمسة أيام يطوف حولها لينظر أى الجهات أسهل للمهاجمة ثم انتقل بجيشه إلى الشمال الغربى جهة المسكوبية وباب العمود وباب الباهرة وشدد الحصار فسلمت المدينة يوم الجمعة فى ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ وفى ٢ تشرين أول سنة ١١٨٧م على شروط منها:

أن يؤخذ عن كل رجل ١٠ دنانير والمرأة والولد ديناران فدية ومن لم يدفع حتى أربعين يوماً يصبح مملوكاً للعرب فبذل باليان عن فقراء قومه ثلاثين ألف دينار ووضع صلاح الدين على أبواب البلدة أمناً ليأخذوا ما ضرب على الفرنج وأظهر من العدل والعظمة ما شهد له به الأعداء فسمح لنساء الملوك والأميرات بحشمتهم وخدمتهم ولم يأخذ من البطريق إلا عشرة دنانير ولم يشره إلى ما كان معه من الأموال والذخائر وعامل نصارى العرب معاملة حسنة وترك لهم أموالهم وأملأهم وسمح لهم أن يشتروا متاع الإفرنج وقد وهب لمظفر الدين كوكبورى ألف مملوك من الفرنج فأعتقهم ووهب أيضاً لأخيه العادل ولكثير من الأمراء أمثال ذلك ووزع الأموال والدواب على الضعفاء ورفق بالفقراء فسمح لهم بالخروج من باب

العمود وأرسل معهم جنوداً لإيصالهم إلى المدن التي كانت لا تزال فى أيديهم فأنكرهم إخوانهم وأبوا قبولهم وأغلقوا الأبواب فى وجوههم وأرسلوا خلفهم من نهب متاعهم. فقاموا فى القيافى وتشتتوا فى أنحاء البلاد فرثى لهم عدوهم العربى ورحمهم وأغلظ لهم صديقهم الغربى وجفاهم مشايعهم الأفرنجى ولو أنا قابلنا هذا العمل بما أتاه الفرنج قبل ٨٨ سنة لرأينا الأخلاق والإنسانية والمكارم وعزة الملك وكبر النفس جلية فى أعمال صلاح الدين وشهدنا القساوة والفظاعة والتوحش والتعصب واضحاً فى أفعال غودفرى الذى قضى على ألوف من المسلمين.

أكمل صلاح الدين الأيوبي عمله وشرع ينظم المدينة فأزال كل أثر صليبي فى الصخرة والمسجد الأقصى وكسر الصور والتماثيل الصغيرة والصلبان التى نقشوها ونقل إلى المسجد الأقصى المنبر الذى أمر بصنعه نور الدين زنكى فى حلب وبلغ فى إتقانه فاستغرق عمله عدة سنوات وكان بين صنعه ونقله إلى القدس ٢٠ سنة وأمر بعمارة المسجد الأقصى وتحسينه وترصيفه بالفسيفساء والرخام وغير ذلك مما يحتاج إليه وجعل كنيسة القديسة «حنة» مدرسة للشافعية (الصلاحية) وأخذ قسماً من منزل البطريرك وحَوَّله إلى جامع وخانقاه للصوفية (الخانكية). وفى سنة ٥٨٤هـ فتح الملك العادل قلعة الكرك والشوبك وسار صلاح الدين إلى صفد فامتلكها وذهب من فيها إلى صور وفتح حصن كوكب بعد عناء والتحقيق فرنجه بصور حتى غصت بالمهاجرين وانقلب افراط صلاح الدين وتساهله مع الفرنج وبالأعلى عليه حتى قال ابن الأثير (لم يكن لأحد ذنب فى أمر صور غير صلاح الدين فإنه هو الذى جهز إليها جنود الفرنج وأمدها بالرجال والأموال من أهل عكا والقدس وعسقلان) فأصبحت مركزاً لحملاتهم ونجداتهم ولكن سورية ومصر أصبحت متصلة بعضها ببعض لا يفصلهما تخم ولا يحجز بينهما عدو.

٥٤ - الحملة الصليبية الثالثة

كان العالم الإسلامى يظن أن الحروب الصليبية قد انتهت ولم يدر أن وقوع القدس فى يد صلاح الدين أحدث تأثيراً عظيماً وصدى سيئاً فى نفوس الغربيين

فقام منهم رجال كثيرون وحرصوا قومهم على استرجاع القدس وانتزاعها من أيدي المسلمين فنجحوا وأجمعت أمم أوروبا وحكوماتها ثمانية على محاربة الشرق الأدنى وإعلان النفي العام لاسترجاع القدس فهب ريكاردوس البطل الشهير الملقب بقلب الأسد وترك عرشه في إنكلترا رغبة في إنقاذ بيت المقدس ونهد إمبراطور ألمانيا بربروسا (ذو اللحية الحمراء) وآزرهما فيليب أوغسطس ملك فرنسا ففرق ملك الألمان في نهر سالون قرب أنطاكية ورجع فيليب إلى فرنسا بعد فتح عكا وقام بالمهمة قلب الأسد.

تكاثرت جموع الفرنج في صور فتحمسوا وجددوا نشاطهم واضطربت النار بغتة في صدورهم فساروا بجموعهم إلى عكا فخف لصددهم صلاح الدين فسبقوه لأنه كان وقتئذ موعوكا فمر بكفر كناوخيم على تل كيسان وامتدت ميمنته إلى تل العياضية وميسرته إلى نهر المقطع وأنزل الأثقال في قرية صفورية واستمرت الحرب بين الفريقين وحدثت موقعة طاحنة انهزم فيها قسم من الوطنيين وفاز الباقون وظفروا بعدوهم ثم انتكست صحة صلاح الدين فرحل إلى الخروبة (تل الفخار) حيث توفي أحد قواده ضياء الدين عيسى الهكاري العلمي الحسني فنقل إلى القدس ولما أبل صلاح الدين عاد إلى مخيمه القديم (تل كيسان) فوجد الفرنج يجدون في حصار عكا وقد احتاطت بها أبراجهم فاخترع على بن عريف النحاسين الدمشقي نفطاً أحرق به الأبراج الثلاثة فاطمأن السلطان ورجع إلى الخروبة ونقل أثقال المسلمين إلى قرية الدامون (سيمون) الواقعة على بعد ٣ فراسخ من الخروبة وقد ذكر ابن الأثير أن نصارى العرب كانوا مأموري إعاشة جيش صلاح الدين وخزنة أمواله وكان مركزهم في مدينة حيفا وظل الحرب سجلاً إلى أن قدم فيليب ملك فرنسا فجذ في قتال مسلمي عكا وشدد في حصارهم فكان صلاح الدين يركب يومياً من شفا عمرو ويشاغلهم بالقتال ليفرج عن البلد فلما أتى قلب الأسد تحول صلاح الدين ونزل عليهم لئلا يتعب عسكره من الغدو والرواح وفي ١٧ جمادى الأخرى استولى الفرنج على عكا سلماً بشروط غدروا ولم يفوا بها وانحدر قلب الأسد جنوباً وعسكر صلاح الدين بجانبهم من جهة الشرق فالتقوا في مدينة ارسوف (على مقربة من حرم على بن عليم) واضطربوا فهزم جيش المسلمين وأخذ

الفرنج يفتحون البلاد الصغيرة حتى إنهم دخلوا يافا ولم يجدوا فيها أحداً. أما صلاح الدين فإنه استشار قواده في شأن عسقلان فقرروا هدمها لمكانة موقعها الحربى ولعجزهم عن حمايتها ولأن من يستولى عليها يستطيع أن يقطع الطريق بين مصر ودمشق وقد ذكرنا سابقاً أن صلاح الدين كان يرسل نجداته وجيوشه عن طريق البادية خيفة هجمات الحصون الساحلية. فهدم صلاح الدين مدينة عسقلان وباع أهلها كل ١٢ دجاجة بدرهم وناقل إلى الرملة فحرب حصنها وهدم قسمًا من اللد وخرب قلعة الاطرون. فأخذ الركيز كونراد قلب الأسد على تمكين أعدائه من هدم وتخريب عسقلان ولكن قلب الأسد لم يعبأ بتقريبه ومال إلى عقد هدنة وفاوض الملك العادل وكان يدخل معسكر المسلمين ويطرب إلى موسيقى العرب ويعجب بنغماتها وبعد المذكرات اتفقا على شروط وهى:

— أن يتزوج الملك العادل أخت قلب الأسد أرملة ملك صقلية وتكون القدس وما فى أيدي المسلمين من بلاد الساحل للملك العادل وعكا وما فى أيدي الفرنج من البلاد لأخت قلب الأسد مضافاً إلى أقطاعها فى بلادها ووافق على ذلك صلاح الدين إلا أن القيسيين والأساقفة حالوا بين ذلك ومنعوه فانتقضت المفاوضة وعادت البلاد إلى الحرب فتناجز صلاح الدين الفرنج حتى الشتاء ثم انسحب إلى القدس فتبعوه إلى الاطرون ففزع منهم وأمر بعمارة سور بين القدس وتجديد ما رث منه وكان ينقل الحجارة بنفسه مع العمال وأحكم المحل الذى ملك منه البلد وأتقنه وقوّاه وأمر بحفر خندق خارج السور وسلم كل برج إلى أمير فرجع الصليبيون إلى الرملة ومضوا إلى عسقلان وشرعوا فى عمارتها لما لها من المركز الحربى والتجارى.

وفى سنة ٥٨٨هـ استولى الفرنج على حصن الداروم^(١) ورجعوا إلى قرية بيت نوبة ومنها إلى قلونية فردتهم سرايا المسلمين فأغاروا على قافلة بجوار الخليل وأوقعوا بها ونهبوها. فغضب لذلك صلاح الدين وحاصر يافا وملك المدينة دون

(١) بين غزة والعرش ونظنه تل العجول وفى جنوب غزة محل يدعى باب الداروم يؤدى إلى ذلك التل الذى يبعد فرسخاً من البحر كما ذكر.

القلعة ثم تركها وعاد إلى الرملة وفي شهر شعبان الموافق لشهر أيلول من السنة المذكورة عقدت بين المسلمين والفرنج هدنة على شروط منها :

١ - أن تظل عسقلان خراباً وتبقى أملاك صلاح الدين في يده وأملاك الفرنج في أيديهم وهي يافا وقيسارية وارسوف وحيفا وعكا وأعمالها جميعاً أما اللد والرملة فتبقى (مناصفة) مشتركة بين الفريقين.

٢ - وأن تكون الهدنة ٣ سنين و ٨ شهور.

٣ - وألاً يتعرض الصليبيون لبيت المقدس.

٤ - وأن يسمح صلاح الدين لزوار الفرنج بدخول القدس فأتى الزوار إليها وزاروها فعلاً وسمى هذا الصلح (صلح الرملة) وبعد انعقاد الهدنة رحل قلب الأسد إلى عكا ومنها إلى إنكليرا فتفقد صلاح الدين القلاع والحصون ثم ذهب إلى دمشق بعد أن أناب على القدس الأمير جورديك ولكن فاجأته المنية في صفر سنة ٥٨٩هـ الموافق شهر شباط سنة ١١٩٣م فدفن في القلعة ثم نقل إلى جوار الجامع الأموي وقبره مشهور ولا بد هنا من أن نذكر صفحة من حسنات هذا البطل العظيم والقائد الكبير فنقول :

إنه وإن كان صلاح الدين كردياً^(٥) فإنه كان من عظماء رجال الإسلام وقد خدم العرب خدمات جليلة وأظهر من محاسن الشيم ما خلد ذكره فمنها :

١ - معاملته الحسنة للصليبي بيت المقدس مع أنهم من الد أعدائه.

٢ - ملاطفة أسرى حطين وتقديم الماء المثلوج إلى الملك.

٣ - إكرام وفادة أرملة رنو صاحب الكرك لما جاءت تطلب ابنها.

٤ - حفظه للعهود واستكباره غدر الفرنج ونكثهم بها وعفوه عمن أراد قتله. إلا أنه كان مفرطاً في الحلم وكل شيء تجاوز حده انقلب إلى ضده فبان قواده طمعوا فيه وأخذوا يخالفون أمره.

(٥) ذهب كثير من المؤرخين أن بعض القبائل العربية نزحت إلى بلاد الأكراد فامتزجت بالقبائل الكردية ويرجعون بنسب صلاح الدين إلى الحسن بن علي بن أبي طالب

إن صلاح الدين لم يكن قائدًا فقط بل كان رجل أخلاق ودين يغار على الإسلام ويدافع عنه بكل غيرة وإخلاص فقد جمع كلمة المسلمين المتفرقة وألف بين قلوبهم وأخرج الأجانب من ديارهم وأباد الفاطميين وأيد كلمة العباسيين وبنى المدارس والرباطات ومات ولم يترك في خزينته سوى دينار وأربعين درهماً فمن للشرق اليوم بمثل هذا البطل العظيم ينهض به من كبوته وينقذ أهله من براثن الموت والشقاء.

٥٥ - صلاح الدين ومواسم فلسطين وشيء عن القبائل:

فتح الفرنج البلاد فأخذوا يظلمون العرب مسلميهم ومسيحيهم فنزع بعضهم إلى الأقطار العربية الخارجة عن سلطة الفرنج فلما استجاش صلاح الدين الملوك والأمراء والقبائل وصدم الفرنج في وقعة حطين وأزاحهم عن البلاد شغرت أكثر مدن فلسطين فأسكنها القبائل وأقطعها لهم فتوطن القدس مؤقتًا قبائل بني حارث وكانت منازلهم خارج المدينة عند القلعة وحارة بنى مرة في جهة الغرب الشمالي إلى سوق الفخر «خان الزيت» وحارة السعدية لبني سعد^(١) ويلي عقبة الشيوخ من جهة الشمال حارة بنى زيد وحارة الجرامنة سوق القطنين ثم وزعهم على البلدان التي حول القدس فأخذ بنى زيد ١٩ قرية شمال رام الله والحق بهم بنى مرة وهم ثمانى قرى وبنى سالم وهم فى أربع قرى وعهد إليهم بحماية برج مجدل يابا «مجدل الصادق» وماء نهر الأعوج والطريق بين القدس ونابلس. وأنشأ لهم موسماً فى مقام النبى صالح يقام فى جمعة زفة البيارق «الجمعة الحزينة» فى القدس وأعطى بنى حارث ١٧ قرية جنوب بنى زيد وعمل لهم موسماً فى النبى عنبر يوم الجمعة المذكورة واختص الأمراء الجرامنة بسواحل يافا والعراق ووادى الصرار وبنى عمير وأخذ بنى حمار ١١ قرية وجعل لهم جميعهم موسم النبى صالح فى الرملة وأخذ بنى صعب ٢٨ قرية والحق بهم الشعراوية وعين لهم موسماً فى

(١) منهم دار نجم وغيرهم كان لهم حراسة باب الخليل ومفتاحه فى يدهم وكان لهم مضافة فى

حيهم.

أبى العون وعلى بن عليم ثم تحول زمانه واختلفت عن المواسم الأخرى وأنشأ بغزة موسم الداروم وعمل إلى بدو غزة موسم المنطار وإلى بدو عسقلان وأطرافها موسم الحسين وعين إلى عرب المساعيد والمشالخة والصقر موسم أبى عبيدة بن الجراح وجعلها جميعها تابعة لموسم النبی موسى الذى جمع له بنى مالك وهم ٢٤ قرية وبنى حسن وهم ١٣ قرية وجبل القدس وهم ٢٢ قرية والوادية وهم ٩ قرى وعززهم بجبل الخليل وجبل نابلس الذين يردون متعاقبين إلى القدس. وتتوافد قبائل شرقی الأردن إلى مشهد النبی موسى فتصادف جميع هذه المواسم عيد الفصح الذى يأتى فيه الأوروبيون لزيارة القدس فتكون آنذاك الأهالی فى نفیر عام قد تجمهروا فى شعبات أخذ عسكر بنى صالح بنى زید وبنى عنیر بنى حارث وبنى صالح الرملة ورویین یافا وحسین عسقلان ومنطار العربان وداروم غزة وأبى العون بنى صعب وأبى عبيدة الغور ونبى موسى القدس مستعدين بسلاحهم وذخائرهم ومؤونتهم لمفاجأة الطوارئ فإذا ما حدث فتق فزعوا لرثقه لأن السلطان صلاح الدين ألف من غدر الصليبيين ونكثهم بالعود ما جعله يحتاط ويخشى إن هم دخلوا القدس زواراً ينقلبون جنوداً ويحتلون المدينة ويمتلكونها سلماً فأنشأ هذه المواسم موافقة لأيام عيدهم لتكون القدس حينئذ غاصة بأهالی الخليل ونابلس المجاورة وتكون البلاد كأنها ثكنة عسكرية متأهبة لرد كل غارة ودفع كل عداء. وبهذا العمل استطاع أن يامن غدر الأجانب ويعصم البلاد من التعديات المتكررة ولما جاء الملك الظاهر بيبرس ومن خلفه من الملوك استحسنوا رأيه ونظموا هذا العمل وهو نظر بعيد وفكر صائب يستحق عليه الشكر الجزيل والثناء الخالد لانه عيد استقلال البلاد وذكرى خلاصها. وجدير بالأمة أن تستفيد من هذه المواسم الوطنية قوائد اقتصادية واجتماعية.

٥٦ - فلسطين والدولة الأيوبية سنة ٥٩٠ هـ - ٦٤٨ هـ وسنة ١١٩٣ م - ١٢٥٠ م؛

أسست الدولة الأيوبية على عظمة صلاح الدين ودفنت بدفنه لأنه ألف بين عدة خيوط غير مؤتلفة ولا متفقة فانتقضت من بعده وقد أحس صلاح الدين بهذا

الخطر الذى يتهدد دولته فجمع القواد والعساكر غير مرة وأخذ عليهم عهد الطاعة لولده الأكبر الملك الأفضل نور الدين واقطعه دمشق والساحل وبيت المقدس وبلبك وصرخد وبصرى وبانياس وسورية الغربية فلما توفي صلاح الدين انتكحت الغزل وانتشرت جماعاته أفراداً وطمع بعضهم ببعض ونسوا عدوهم الغريب فاستقل الملك الظاهر فى حلب وسورية الشمالية وربض الملك العزيز فى مصر واستولى عليها وطمع الملك العادل أخو صلاح الدين فى الكرك والشوبك واحتفى بهما. فأصبحت فلسطين بهذا التقسيم موزعة بين ثلاث دول الملك الأفضل والملك العادل والفرنج ولكن هذه الحالة لم تدم طويلاً لأن الملك العادل ولع بإغراء بنى أخيه على بعضهم بعضاً وأنساهم عهد صلاح الدين إلى الأفضل ومناهم بالملك فتشوف كل منهم إلى حصر السلطة فى يده والقضاء على ما سواه. فتنبه لذلك الملك الظاهر وقال للأفضل «أخرج عمنا من بيننا فإنه لا يجىء علينا منه خير ونحن ندخل لك تحت كل ما تريد» فرفض الأفضل وظل منصاعاً لدسائس الملك العادل فحنق العزيز وسار إلى دمشق وحصر الأفضل بها فاستنجد عمه العادل واستحثه فاتاه بجند كثيف وترددت بينهم الرسل على أن يضم إلى العزيز القدس وما جاورها فرضى وقفل راجعاً ولكنه عاد إليها ثانية فلم يحل بطائل. ثم اتفق الأفضل والعادل على فتح مصر وضمها للأفضل مع دمشق فسارا وملكا القدس من واليها سنقر الكبير وجاسوا بلاد مصر فاذنلب العادل عن الأفضل ونكث عهده. ومالاً العزيز سراً وتوسط فى الصلح على أن تظل البلاد كما كانت بشرط أن يقيم هو فى مصر فنجح وبعدئذ أقنع العزيز وراوده على فتح دمشق واستخلاصها من الأفضل ففعلاً وأخذها منه وعوضاه قلعة صرخد فاستوطنها وشكا أمره إلى الخليفة الناصر فقال :

مولاي إن أبا بكر وصاحبه عثمان قد أخذنا بالظلم حق على
فانظر إلى حظ هذا الاسم كيف لقي من الأواخر ما لاقى من الأول
فأجابه الناصر :

غضبوا علياً حقه إذ لم يكن بعد النبي له يثرب ناصر
فاصبر فإن غدا عليه حسابهم وابشر فناصرك الإمام الناصر
فلما رأى الصليبيون الخلاف مستحكماً بين العرب هاجموهم فناهضهم العادل
وخيم على عين جالوت «بين جنين وبيسان» ثم رحل إلى يافا وملكها. وبعد أن
توفي الملك العزيز سنة ٥٩٦ هـ ولى الأفضل الديار المصرية فخافه الأمير جركس
«جهاركس» وفر إلى بيت المقدس وتغلب عليها ثم انضم إليه ميمون^(٥) القصرى
حاكم نابلس فقويت شكوته وأرسلوا إلى العادل فجاء وأخذ البلاد من الأفضل
وعوضه ميفارقين وبلاداً أخرى ولكنه لم يسلمها له.

وفى سنة ٥٩٧ هـ حدث زلزال هدم قسماً من عكا ونابلس وفى سنة ٦٠٠ هـ
تحرك الفرنج ونهبوا قرى الأردن فنهد إليهم العادل وعسكر قرب جبل طور
الناصرية ثم عقدوا معاهدة على ما يأتى.

- أن يأخذ الفرنج الناصرة ويافا ويتنازل العادل لهم عن البلاد المشتركة بينهما
كالد والرملة وغيرهما.

ثم فى سنة ٦٠٩ هـ خرب الملك العادل حصن كوكب «قرب طبريا» ومحا
أثره وبنى حصناً على جبل الطور ثم خربه الملك المعظم سنة ٦١٤ هـ مخافة أن
يملكه الفرنج لأنهم ثاروا وملكوا بيسان وعاثوا فى البلاد. ثم توفي العادل بعد أن
قسم البلاد بين أولاده فجعل الملك الكامل على مصر والملك المعظم على جميع
سورية فسار الملك المعظم وهدم أسوار القدس لعجزه عن حمايتها وخوفه أن
يحتلها الفرنج ويمتنعوا بها وعمل أبواب الخشب التى على باب المسجد وأوقف
لمسجد الخليل حاصلات قريتي دوره وكفر البريك. وفى سنة ٦٢٥ هـ سار الملك
الكامل بعد وفاة أخيه المعظم وامتلك القدس ونابلس ثم تأخر إلى تل العجول^(٦)
مشاقاً لإخوانه فقابله الملك الأشرف وحذره عاقبة الخلاف فرضى ولكن نفسه
كانت تحدثه بامتلاك جميع البلاد غير ملتفت إلى النجيدات والحملات الصليبية

(٥) المنتسبة إليه المدرسة «المامونية»

(٦) تل يبعد إلى الجنوب من عزة ١٥ كيلو متر تقريباً وربما كان حصن الداروم.

المتعاقبة التى حاولت استرجاع القدس ولم تفلح. فلما استحكم وأعلنت المشاجرة بين أبناء العادل تسابقوا إلى مرضاة الفرنج ابتغاء التفريغ إلى بعضهم البعض فجاء فريدريك إمبراطور ألمانيا سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م وعقد معه الكامل هدنة على هذه الشروط:

١ - أن يسلم إلى الفرنج بيت المقدس مع بعض ملحقاتها بشرط ألا يعمر السور الذى خره الملك المعظم ولا يتصدوا لقبة الصخرة ولا للجامع الأقصى.

٢ - أن تظل «الرساتيق» الخليل ونابلس وطبريا والغور فى يد المسلمين. فتم هذا الاحتلال السلمى الذى لم يصادف قبولاً من الفرنج لأن الإمبراطور فريدريك كان محروماً من البابا وغضب المسلمون على الكامل لأنه سلم القدس للفرنج بلا داع يستند عليه إلا ليتقوى بهم على إخوانه وأبناء عمه. وفى سنة ٦٣٥ هـ توفى الملك الأشرف ملك دمشق وعهد بها إلى أخيه الملك الصالح إسماعيل وفى سنة ٦٣٦ هـ أعطى الصالح أيوب سنجار والرقعة إلى الملك الجواد وأخذ منه دمشق فطمع بمصر وسار بعساكره ليأخذها فغدره الملك الصالح إسماعيل والملك المجاهد «صاحب حمص» وهجما على دمشق وأخذها فلما بلغ الصالح أيوب الخبر وهو بالغور تفرق عنه جنوده فقصد نابلس ونزل بها فصار إليه الملك الناصر صاحب الكرك وأمسكه فاعتقله فى الكرك وأكرمه ثم جاء القدس فحصرها وفتحها وخرب قلعتها التى بناها الفرنج وخرب برج داود وعاهد الصالح أيوب وتحالفا على الصخرة بأن تكون مصر للصالح وسورية للناصر إذا هما امتلاكها فتوجهها إلى مصر وفتحها فخاف الصالح إسماعيل وسلم الفرنج سنة ٦٣٨ هـ صفد والشقيف وفى سنة ٦٤١ هـ اتفق الصالح إسماعيل والناصر داود مع الفرنج واعتضد بهم وسلموا إليهم طبريا وعسقلان فعمروا قلعتهم ثم أباحا لهم القدس فغضب الصالح أيوب واستدعى الخوارزميين المنهزمين من وجه المغول وجنكيز خان.

٥٧ - الخوارزمية:

ينتسب هؤلاء القوم إلى بلاد خوارزم شرقى بحر قزوين وهم تتر كانوا أصحاب حكومة ودولة فلما طم عليهم سيل المغول وأباد حكومتهم ساحوا فى البلاد يقتلون

وينهبون كل من اعترض طريقهم بلا تفریق بين دين ومذهب وصدق أن كان الناس فوضى قد انقسموا على أنفسهم وتفرقت كلمتهم فأصبح كل زعيم لا يهتم سوى الاستئثار بالسلطة ولو بهدم أهله وذويه فمصلحته الشخصية فوق كل شيء إذا زاحمه قريبه استعان عليه بعدوهما الذى يجهز عليه بعد القضاء على ابن عمه فيكون بذلك كالباحث عن حتفه بظلفه قد طعن نفسه وهدم عشيرته وأهله الأقربين بمعول حب الذات والنفوذ.

ظل جنكيز خان المغولى يدحرج الخوارزميين وهم ينحدرون أمامه ولم يعقبوا حتى إذا وصلوا العراق جمعوا فلولهم ونظموا صفوفهم وأخذوا يتوسلون إلى الملك الصالح أيوب بقربى الدين لظنهم أنه أقوى الملوك فاستدعاهم إليه لمحاربة الفرنج وبنى عمه فاتفقوا معه على شرط أن يقطعهم الاقطاعات ويسكنهم البلدان فساروا إلى غزة سنة ٦٣٢ هـ وانضموا إلى أمير العساكر المصرية وقاتلوا الفرنج وعسكر الشام بظهر غزة فهزموهم واستولى الملك الصالح أيوب على غزة والسواحل وفتح القدس وقطع رؤوس الكهنة وخرّب القبر المقدس والقي الرعب فى قلوب الأهلين.

ثم بدر الصالح إلى دمشق وحاصرها وفى سنة ٦٤٣ هـ فتحها وخاس بعمره مع الخوارزميين فنقموا عليه وحالفوا الملك الصالح إسماعيل عم الصالح أيوب وانضم إليهم أمراء المصريين والملك الناصر داود صاحب الكرك وحصروا دمشق فقلت بها الأقوات وقاسى أهلها شدة عظيمة ولكن واليها حسام الدين قام فى حفظها خير قيام فانخذل المتحالفون وردوا على أعقابهم خاسرين فهاجم الصالح أيوب شرقى الأردن واستولى على مدنه وتسلم الكرك سنة ٦٤٧ هـ وفى سنة ٦٤٥ هـ استعاد المسلمون عسقلان وطبريا من الفرنج فتحمس أهالى أوروبا وجردوا حملة صليبية سنة ١٢٤٨ م بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا فعرجت على مصر وحاصرت دمياط فغلبهم المصريون وشتتوا شملهم ففر أكثرهم إلى فرنسا والبعض الآخر إلى عكا ومكث لويس ملك فرنسا ٤ سنوات فى فلسطين وهو يحصن قيسارية ويأفا مخافة أن يأخذها منه الوطنيون ولم تحدثه نفسه بمهاجمة القدس وأخيراً رجع إلى فرنسا مخذولاً ولم يبق للصليبيين بعد ذلك قائمة لأنهم مكثوا فى البلاد أدلاء

غرباء ضعفاء حتى سنة ١٢٩١ م وسنة ٦٩٠ هـ فسلموا عكا وصور وصيدا وبيروت وعثليت وانطرطوس وتركوا فلسطين وودعوها الوداع الأخير بعد أن دامت حروبهم قرنين وهم القوم الأشداء البواسل الذين عضدتهم أمم أوروبا أجمع فلم يظفروا بما أملوا وظلت البلاد عربية وانتهت روايتهم بالخسران.

٥٨ - أضرار الحروب الصليبية بفلسطين وفوائدها

هل أفادت الحروب الصليبية فلسطين أو أضرتها؟

ليس من السهل الجواب على هذا السؤال لأنه يفتقر إلى تفصيل ولكننا نجمل البحث فنقول:

تضرر الشرق عامة وأهل سورية وفلسطين خاصة بالحروب الصليبية أكثر مما استفادوا ولكن الفرنج جنوا منها نفعا أرجح من أضرارهم. وهذه نبذة من مضارها الجسيمة.

١ - أنها أشعلت نار التعصب الدينى بين المسلمين والمسيحيين وزرعت النفور بين الأهالى ونظن أن مداخله الفرنج فى أحوال سورية وفلسطين أضرت ببعض المسيحيين الوطنيين فأفسدت عقيدتهم الوطنية ومنتهم بأحلام جميلة فإذا هى سراب. وقد رأوا بأم أعينهم أن مسلمى العرب قد أحسنوا ورفقوا بمسيحي العرب فى حين أن الفرنج قد أساءوا إليهم وأنكروهم.

٢ - أن هذه الحروب الطاحنة أضعفت روح القومية العربية فى نفوس نصارى الشرق وزادوا ولاء لبنى دينهم الأجانب وأكرم بنصارى فلسطين العرب الذين حافظوا على جنسيتهم ولغتهم ونبذوا التعصب الدينى وراءهم ظهرياً ولزموا إخوانهم مسلمى العرب وأثبتوا أنهم من أبناء غسان وطى وتغلب الذين هم من صميم العرب.

٣ - فظاعة الحرب وسفك الدماء وتخريب البلدان والمدن وقطع الأشجار وتعطيل الأرض وانتشار الوباء وهدم المنافع العمرانية وبعبارة أخرى. القضاء المبرم

عَلَى الحركة الاقتصادية ولذلك ارتفعت أسعار الحاجيات ستة أضعاف ما كانت عليه سابقاً.

٤ - تلطيخ الدين المسيحي والازدراء بتعاليمه ومبادئه لأن مسيحي الصليبيين كانوا أبعد الناس عن دينهم. وقد أجمع المؤرخون عَلَى أن المسلمين تقيّدوا بالفضائل الدينية وراعوا المصلحة الإنسانية أكثر من الفرنج الناكثي اليهود والقاتلي الأسرى والذين أفحشوا في سفك الدماء لما دخلوا القدس وحرقوا الديانة المسيحية في مهدها ولكنهم ذهبوا وخلفوا بقايا كثيرة من جنسهم مما سنوضحه في تاريخ قبائل وأسر فلسطين. فبعض الألقاب الموجودة في بيت لحم والناصرة والقدس وبيت جالا وغزة ويافا تدل عَلَى أن حاملها ليسوا عرباً ولكن اصطبحوا وطبخوا في معمل العربية وتزوجوا بنساء شرقيات عربيات وتوطنوا في البلاد واندغموا في أهلها وكذلك يوجد قبيلة بدوية خلف الجوف تدعى «صليبيه» شقر الوجوه لا يتزوج العرب منهم ويدعون أن أصلهم صليبيون كما ورد في تاريخ سينا والمقتطف.

أما الآثار الصليبية فلم يبق إلا قليلها: منها كنيسة الصلاحية وبقايا كنيسة البيرة والدير في الرملة وحصن عثليت وقلاع صفد وطبرية والشوبك والكرك. ولم يؤثر على لغة السكان ولهجتهم بل ظل العرب عرباً يخاطبون الفرنجة عند الحاجة بواسطة الترجمة ولم يتعلم أحد الفريقين لغة الآخر لما بينهما من سابق العداوة المتأصلة فكان إذا تغلب فريق عَلَى مدينة نزح عنها الآخرون ولكن لما طال بهم الأمد امتزجوا قليلاً فخف الكره والبغض كما ورد في رحلة ابن جبير الأندلسي ومما قاله عن مدينة بانياس أثناء زيارته لسورية:

«هذه المدينة ثغر بلاد المسلمين وهي صغيرة ولها قلعة يستدير بها تحت السور نهر يفضى إلى أحد أبواب المدينة وله مصب تحت أرجائها ولها محرث واسع في بطحاء متصلة يشرف عليها حصن للفرنج يسمى «هونين» بين الفرنج والمسلمين ولهم في ذلك حد يعرف بحد المقاسمة ويتشاطرون القلة عَلَى السواء

ومواشيها مختلطة ولا حيف يجرى بينهم.. الخ. ثم جاء إلى تينين في عجلون حيث يقدمون فيه والضرائب «جمارك» فقال والضريبة دينار وقيراط سورية ولا اعتراض على التاجر ثم مَرَّ بضياح كثيرة وعمائر منتظمة سكانها كلهم مسلمون يؤدون للفرنج نصف غلتهم وديناراً وخمسة قراريط جزية على كل رأس ونزل بضیعة من ضياح عكا الناظر فيها من المسلمين مقدم من جهة الفرنج فأضاف القافلة ضيافة حافلة وزار مدينة عكا ونزل بالخان ووصف كتاب الفرنج والسفن والمرفأ ومركزها التجارى وكثرة سكانها ثم ذهب إلى صور ومنها إلى الأندلس.

أما ابن بطوطة فجاء إلى فلسطين بعد ختام الحروب الصليبية من مصر عن طريق الساحل فقال: «إنه قدم قطية حيث تؤخذ فيها الزكاة وتفتش أمتعة التجار «جمرك» وهناك كتاب ومجباها كل يوم ألف دينار ذهب ثم جاء غزة فوصف عمارتها وأسواقها ومساجدها وعلماءها ومنها عطف على خليل الرحمن فقال إنها مدينة صغيرة الساحة وذكر مسجدها وموقعها الطبيعي وعرج على تربة يونس عليه السلام ثم زار بيت لحم وقال إنهم يضيفون الغرباء وأتى القدس فوصف قبة الصخرة ودهش بها وذكر فضلاء القدس وعلماءها وروى أن الأمير سيف الدين تنكيز حاكم دمشق جر الماء إلى القدس وسافر ابن بطوطة إلى عسقلان فوجدها خراباً يباباً [ولا ندري لماذا لم يزُر عسقلان لما كان في غزة] ثم سافر منها إلى الرملة فقال إنها كثيرة الخيرات حسنة الأسواق وبها الجامع الأبيض وذكر بعض علمائها منهم مجد الدين النابلسي. ثم خرج منها إلى نابلس وقال إنها مدينة عظيمة كثيرة الأشجار مطردة الأنهار من أكثر بلاد الشام زيتوناً ومنها يحمل الزيت والصابون إلى دمشق الشام وبها تصنع حلواء الخروب ثم ذهب منها إلى عجلون فوصفها واجتاز غور أبى عبيدة ومر بمدينة عكا ومنها إلى صور فمكث في سورية مدة ورجع إلى زيارة الحجاز فركب بصحبة الأمير محمد بن شيخ قبيلة المعجامة فمر بذراعاه ثم بصرى وزيّاء «جيزة» واللجوم وحصن الكرك ووصفه وبالغ في مناعته».

٥٩ - فرسان مار يوحنا «الاسبتاليون»

أسس الصليبيون هذه الفرقة وألقوا لتدريب الجرحى والمرضى وخدمة الإنسانية البحتة «كالصليب الأحمر» فاتخذوا سمة خاصة وهى رسم صليب دى ثمانى نقط على جنب لباسهم الأيسر وجعلوا دير مار يوحنا فى سوق اقليموس جنوب كنيسة القيامة مستشفى لمواساة الضعفاء ثم تغيرت مهمتهم أثناء الحروب وأصبحت عسكرية محضة حتى إنهم كانوا أشد الجنود الصليبية على صلاح الدين وأكثرهم نكاية بجنده وأثبتهم أمامه ولما خرج الفرنج من القدس تحولوا إلى صور ثم إلى عكا وهناك استماتوا فى الدفاع عن الصليبيين ولكنهم جلا وسكنوا جزيرة رودس حتى أخذها منهم العثمانيون فنزحوا إلى مالطة ولا يزال منهم جماعة تمثلهم وتحىي ذكرهم فإنهم أنشأوا فى القدس مستشفى عيون فى البقعة واقماً بين بركة السلطان والمحطة ولا أحد ينكر ما له من الخدمات والأيدى البيضاء على سكان البلاد بمعالجة عيونهم ومداواتها ويؤمه فى عهدنا هذا ألوف من الناس للاستشفاء. ولهم أيضاً مضافة (Hospice) فى آخر شارع الخانقي بالقرب من سوق حان الزيت.

٦٠ - فرسان الهيكل

تألفت فرق صغيرة أخرى غير فرسان مار يوحنا أهمها فرسان الهيكل (الداوية) وكانت مهمتهم حماية الزوار وإيصالهم إلى القدس وحراستهم من تعدى المسلمين غير أنهم تحولوا إلى فرقة عسكرية شديدة اليأس والشكيمة واتخذوا الجامع الأقصى مقراً لهم وجعلوه مخزناً لطعامهم وأسلحتهم وبنوا فيه محلات أخرى فاستبدوا وظلموا وولعوا بالتهب والسلب ولذلك أنزهرهم صلاح الدين بأنه لا يأسر أحداً منهم إلا قتله ونقم عليهم البابا والناس أجمعون فتلاشوا وانقرضوا.

أتى الصليبيون ففتحوا البلاد وتمكنوا بها إلى أن قبض الله للشرق البطل الكبير صلاح الدين رأس الأسرة الأيوبية ففضى عليهم وفتح معظم البلاد العربية ثم أورثها أخاه وأبناءه وتداولوها حتى سنة ١٢٥٠ م وسنة ٦٤٨ هـ حيث ضعفت

شوكتهم وتقلص نفوذهم ودالت دولتهم فقتل الملك الظاهر بيبرس توران شاه سنة ٦٤٨ هـ وانتخب بعده «شجرة الدر» وهى الملكة الوحيدة التى توجت فى الممالك الإسلامية العربية وضربت السكة باسمها وخطب لها فنقر أمراء دمشق وانضموا إلى الملك الناصر يوسف صاحب حلب فأعلنوا طاعته ودخلت جميع بلاد سورية فى حكمه فعظم الخبر على المصريين وخلصوها وولوا أمرهم عز الدين ايبك «المملوك» ولقبوه بالملك المعز فتزوج شجرة الدر ليرضى الشعب ولكنه لم يرق لهم هذا العمل واختاروا الملك الأشرف موسى بن يوسف صاحب اليمن وقرروا أن يكون ايبك أتابك جنده فغضبت دولة دمشق الأيوبية وسار الملك الناصر يوسف إلى مصر وحاول الاستيلاء عليها ولكنه فر منهزمًا واحتدم الخلاف بين مصر الأيوبية تحت إمارة المماليك ودمشق الأيوبية البحتة إلى أن أصلح بينهم الخليفة العباسى على أن يكون الحد الفاصل بينهما نهر الأردن. ثم ثار ايبك سنة ٦٥٢ هـ وخلع الأشرف واستبد بالملك فشق ذلك على المماليك ورحلوا إلى دمشق وأطمعوا صاحبها فى ملك مصر واستحثوه فسار إلى غزة وهناك اتفقوا على أن يكون حد الدمشقيين العريش. وفى سنة ٦٥٧ هـ قدمت عساكر هولاكو التتارى وتملكوا الشام وقتل الملك الناصر ابن الأشرف سنة ٦٥٩ هـ فانقرض ملكهم من الشام كما انطفى من مصر.



الفصل الثانى عشر

فلسطين فى حكم الممالك

٦١ - الممالك البحرية

الممالك جمع مملوك وهم الجماعة الذين دخلوا خدمة الملوك والأمراء فترقوا من خادم إلى ملك ومن أجير إلى أمير ويرجع أصلهم إلى الأسرة المغولية من سكان أواسط آسيا. فالسلجوقيون والخوارزميون والمماليك والعثمانيون من فصيلة واحدة بعضهم نزح بعياله ومواشيه إلى حدود المملكة العربية خشية بطش جنكيز خان أو غيره وبعضهم كان يجلب ويباع فى العواصم أو يقدم هدايا للملوك والأمراء من كان منهم قويًا ذكيًا كان يقدمه جده ومقدرته فيلبس التاج ويؤسس مجددًا باسقا ومن كان منهم ضعيفًا عاش خاملًا ومات خادماً ومن يتصفح تاريخ الحكومات العربية ويستقصى حوادثها يدرك لأول وهلة سراً خطيراً وهو أن جميع الدول كانت تستكثر من الخدم (المماليك) وتكرمهم وتقربهم وترقيهم وتمنحهم ألقاب الأمراء وتقطعهم البلاد فيستبدون ويتحكمون ثم يؤسسون حكومات تكون فروعاً للجذع الذى نبتوا عليه فإذا ما عظموا قطعوا عنه غذاءه وأصبحوا -وهم العبيد- أصحاب البلاد. وما من دولة إلا ارتكبت هذه الغلطة فانقرضت وتلاشت جميعها على أيدي ممالكها وخدمها ولم تتعظ واحدة منها بالأخرى وليس هذا بعجيب لأننا معاصر الشرقيين بسطاء القلوب مخلصون سمحون متساهلون لا توقظنا عظة الادهار ولا تنبهنا حوادث الاعصار شأننا فى جميع أمورنا وأعمالنا ولو أنا طفنا بيوت الأسر الكبيرة لكشفنا ذلك السر ولاطلعنا على أمور توضح لنا أسباب رقى أولئك الممالك ونجاحهم وإليك أيها القارىء الكريم مثلاً:

يأتى السيد العربى بخادم أو خادمة إلى بيته فيجعله فرداً من العائلة ويشركه فى أمره ويدلله ويطلعه على أسرار البيت وعورات أهله ودخائله فيعرف فقره

وغناه ومقامه الحقيقي والظاهري ويتدخل بينهم فيجدهم أحزاباً يستعين به أحدهم على الآخر ويتقوى به أضعفهم ويستند عليه أعجزهم فيحترم ويكرم ويتنافسون في استمالته إليهم حتى يصبح مستشاراً لا خادماً فيخالفهم ويخاشنهم، أما الغربيون فيظل خادمتهم خادماً لا يعرف من أمرهم شيئاً وليس له عليهم من سبيل. وربما طرده لأقل ذنب اقترفه أو خطأ جناه ولو كان طفيفاً.

تشعبت الدولة الأيوبية وطمع بها كثير وأصبحت البلاد لمن غلب فاستكثر الملك الصالح الماليك وقربهم منه وولاهم الإدارات فاستفحل أمرهم وقويت شوكتهم وسطع نجمهم وأيدهم السلاح الذى بين أيديهم فنالوا المناصب العالية وأصبح الحل والربط منوطاً بهم فاحتقروا آخر ملوك الأمويين وخلعوه واستبد بالملك أيبك الجاشنكير أول ملوك الماليك البحرية الذين لقبوا بهذا اللقب لأن مقرهم كان فى جزيرة النيل عند نقطة سميت بالبحر لاتساعها تمييزاً لهم عن الماليك الجراكسة.

٦٢ - قطز الملك المظفر

ولى السلطان قطز الملك سنة ٦٥٧هـ وهو الثالث من ملوك الماليك البحرية ولم يدم سلطانه سوى أحد عشر شهراً لأن هولاكو زحف بجموع كالجراد فدخل بغداد (دار السلام) وقضى على حضارتها ومدنيتها الباهرة وأنا نسطر هذه الفاجعة الأليمة المحزنة فنقول: كان هولاكو تترياً من أحفاد جنكيز خان وله حكومة قوية فاستدعاه مؤيد الدين العلقمى وزير المستعصم لفتح بغداد قلباه وهاجم البلاد العربية وكان لا يأتى إلى بلد أو مدينة إلا وقتك بأهلها فتكاً ذريعاً فلا يترك رجلاً ولا امرأة ولا طفلاً ولا شيخاً إلا قتله فوصل بغداد وحصرها وضيق عليها فخرج الوزير مؤيد الدين بن العلقمى (مسبب هذه النقمة) إليه وتوثق منه لنفسه وعاد إلى الخليفة المستعصم وقال له: إن هولاكو سيبقيك فى الخلافة كما فعل بسلطان الروم فى (الأناضول) ويريدان يزوج ابنته من ابنك أبى بكر وحسن له استقباله فخرج المستعصم فى جمع من أكابر أصحابه ونزل فى خيمة ثم استدعى الوزير الفقهاء والأمائل فاجتمع هناك جميع سادات بغداد والمدرسون وظلوا

يخرجون إلى التتر طائفة بعد طائفة حتى تكاملوا وكان منهم محيي الدين ابن الجوزي وأولاده فأمر بقتلهم جميعاً ثم مدوا الجسر ودخلوا بغداد وأعملوا السيف في أهلها وهجموا على دار الخلافة وقتلوا من كان فيها من الأشراف ولم يسلم إلا الصغار ودام القتل والنهب نحو أربعين يوماً وقتل الخليفة ولم يعرف طريقة اغتياله ثم نودي بالأمان.

هكذا ختمت الخلافة العباسية البغدادية التي أجلها واحترمها وهابها السلاطين والملوك فداها هؤلاء البرابرة بأرجلهم القذرة سنة ١٢٥٧م و ٦٥٦هـ بعد أن عمرت خمسة قرون ونيفاً وتركت من المآثر الجليلة ما برزت بها على الأولين وبذت السابقين.

انقضت هذه الصاعقة أو الفاجعة بل الطامة على العرب فذعروا واستسلموا وتمرد هولاءكو فاستولى على العراق وتقدم غرباً وجنوباً إلى سورية ففر الملك الناصر من دمشق بأولاده ونسائه وأتباعه ونفائس ذخائره إلى بركة الكرك (زيراً) فجاء نائب هولاءكو القائد كتيغا وتسلم دمشق بأمان ثم بحث عن الناصر حتى عرف مقره فأمسكه وبعث به إلى هولاءكو فقتله وانقرضت به الدولة الأيوبية الدمشقية ثم زحف التتر إلى عجلون وفلسطين وقدموا غزاة وامتلكوها فالتقام الملك قطز وصحبته المنصور صاحب حماة والتحم الجيشان في الغور على عين جالوت بين بيسان وجنين فكانت موقعة كبرى قتل فيها كتيغا وأسر ابنه ثم قتل وتأثر قلولهم ببيرس وما زال يفتك بهم حتى أخرجهم من البلاد ورجع فقتل الملك المظفر قطز واستوى على العرش.

٦٣ - الملك الظاهر بيبرس البندقدارى

لا ريب أن السلطان بيبرس هو أعظم الممالك وأشداهم بأساً فإنه حكم فلسطين وحارب ما بقى فيها من الصليبيين وانتزع منهم الشوبك والكرك وفتح قيسارية وأرسوف وصفد وذبح أهلها وفتح يافا واهتم بالأماكن المقدسة ورسم قبة الصخرة وزاد في أوقاف الحرمين الشريفين الأقصى والخليل وفي سنة ٦٦٨هـ سنة

١٢٦٩م عمّر مسجد النبي موسى وزاد فيه ورتب موسمه وحسنه وقاوم التتر وصد هجماتهم عن سورية وفلسطين.

٦٤ - انتقال الخلافة العباسية إلى مصر

ومن الأعمال الجليلة التي قام بها الملك بيبرس نقله الخلافة العباسية من العراق إلى مصر فإنه لما استأصل هولاكو شأفة الأسرة العباسية المالكة في بغداد ذهب إلى مصر رجل بغدادي أسمر اللون اسمه الإمام أحمد وادّعى أنه عباسي فقبله بيبرس لغرض سياسي ودعا إليه القضاة في مصر فأثبت نسبه أمامهم وبايعوه بالخلافة ولقبوه المستنصر وكانت العامة تلقبه بالزراطيني ثم أرسله إلى بغداد فقتله التتر قبل وصوله. ومات الملك الظاهر بيبرس في دمشق ودفن بالقرب من الجامع الأموي.

بدأ شأن الخلافة في الضعف منذ عهد الرازي سنة ٣٢٢هـ الموافق سنة ٩٣٤م عند ما فصلت عنها السلطة الزمنية واستبد الملوك والأمراء وأصبح الخلفاء شيوخ زاوية يتبرك بهم بل هدفاً للسجن والقتل فجاءهم هولاكو وأبادهم وثل عروشهم فنقلوا إلى مصر وزادوا ضعفاً فوق ضعفهم حتى بلغ من الملك الناصر أن نفى الخليفة المستكفي إلى قرية قوص ومن ملوك هذه الدولة السلطان الملك المنصور قلاوون الذي فتح طرابلس الشام واستردها من الفرنج بعد أن مكثت في أيديهم ١٨٥ سنة ثم خلفه ولده السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل الذي هدم قبور خلفاء الفاطميين في مصر وبنى مكانها خاناً دعاه الخان الخليلى بقرب مشهد الحسين وفتح عكا وقتل أهلها وخرّبها وتسلم عثليت وفي عصره سنة ٦٩٠هـ خلت سورية وفلسطين من الفرنج.

٦٥ - محمد بن قلاوون

ولى الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد أن خلع مرتين وعمر في القدس المساجد وأنشأ المآذن وصد هجمات ملك التتر قازان الذى أوغل في البلاد وتجاوز حدود فلسطين فوجس الناصر وجهاز سلاو وبيبرس الجاشنكير بجيش لمحاربتهم فأجهزوا عليهم وردوهم على أعقابهم منقلبين.

ولا حاجة للإفاضة في هذا المختصر عن سيرة كل ملك من المماليك البحرية لأنه لم يحدث بفلسطين شيء جدير بالذكر غير خلع الملك هذا وتعيين ذاك مما لا يهم القراء معرفته.

٦٦ - المماليك الجراكسة أو دولة المماليك الثانية

كانت منازلهم في سيبريا حول بحيرة بيكال فهجروها واستوطنوا بلاد الجركس وقفقاسية وما وراءها فاستقدمهم الملوك والأمراء واصطفوهم واستكثر منهم العباسيون وبنو أيوب والمماليك البحرية فقضوا على سلطتهم بأسلوبهم العجيب وهو تنصيب الأحداث والضعفاء من أبناء الملوك على سدة السلطنة لسهولة نزعها منهم ثم يكفله أحدهم ويدير شؤون المملكة فيستبد بالسلطان ويترىص له ويخلعه وأول ملوك المماليك الجراكسة.

٦٧ - أبو سعيد برقوق (الظاهر)

هو أحد موالى بنى قلاوون النابيهين ساعده جده فبرز على أقرانه ونال حظوة عند أسياده فأغدقوا عليه نعمهم وأحلوه صدر مناصبهم وأعلامها فجنحت نفسه للعرش ونهج منهج أسلافه المماليك فاختار حاجي الصغير ابن السلطان شعبان وكفله وناب عنه في المملكة وما زال به حتى خلعه واستوى على عرشه فانتقض عليه الأمراء وبعد عراك شديد تغلب عليهم وشردهم فالتجأ أحدهم منطاش إلى آل الفضل عرب الأمير محمود القاعور واحتتمى بهم فدافعوا عنه وحاربوا معه وأخيراً أخذوا له الأمان وسلموه فخاص برقوق بعهدته وفتك به فصقا له الجو وقرت عينه بالملك. وفي سنة ٧٩٦هـ كان ناظر الحرمين الشريفين ونائب السلطنة بالقدس شهاب الدين الأمير أحمد بن اليعموري (وله أسرة في الخليل والشام) فأبطل المظالم والمكوس التي عملها سواه ولما زار الناصر فرج بن برقوق القدس رأى على نيابتها ونظارة الحرمين حاكماً واحداً فلم يستحسن ذلك وجعل لكل منهما مأوراً خاصاً فتعين الأمير ناصر الدين النشاشيبي ناظراً للحرمين فقط وأسرته في القدس كبيرة ومشهورة.

اشتهر من التتر ثلاثة ملوك عظام الأول جنكيز خان مؤسس الدولة والثاني هولاكو مييد مجد العرب وطافىء سراج مدينتهم ومحرق مكتباتهم ومدارسهم فى بغداد والثالث تيمورلنك ملك سمرقند الذى اجتاح البلاد وفتح خراسان وتركستان والهند وفارس واخترق الأناضول وأسر السلطان العثماني بايزيد ثم انقلب إلى سورية سنة ٨٠٣هـ فأمر فرج بن برقوق سائر النواب بالتوجه إلى حلب ليمنعوها منه ففعلوا ولكنهم عجزوا عن رده وصد غاراته فحاربهم وانتصر عليهم وفتح حلب وأمعن فى النهب والقتك وسفك الدماء البريئة وسار إلى الشام فامتلكتها وأحرقها ونكل بأهلها وأحرق الجامع الأموى وفتك بالأهالي وعاث فى الأرض فسادا.

ولما ولى السلطان الملك الظاهر خشقدم عمر قناة السبيل وأجرى بها ماء العروب إلى القدس ومن ملوك هذه الدولة السلطان قايتباى الذى عمر كثيراً وطالت سلطنته وقد حدث فى عهده وقائع عمومية نذكر بعضها باختصار فمنها:

أنه فى سنة ٨٧٨هـ نشبت فتنة فى الخليل بين الأكراد (الحموريين) وبين الدارية (التميمية) المنشعب منهم سكان قرى تنى النبى صالح ودير نظام وتميمبو نابلس فقتل من الفريقين ثمانية عشر رجلاً. ومنها الفتنة التى حدثت بسبب كنيسة اليهود وتشد متعصبو المسلمين إلى أن تفاقم الخطب. وفى سنة ٨٨٠هـ خيم السلطان على بركة الجاموس قرب الرملة فسرق له اللصوص «بقجة» قماش من الخيمة التى كان نائماً فيها فاستدعى شيخ بنى صعب حرب الجيوسى وحبسهُ ثم غرّمهُ مالاً.

ومما يدل على ضعف الحكومة وقتئذ أن حاكم القدس قتل جماعة من بنى زيد فهجم عصبتهم وأعوانهم ونهبوا المدينة ودخلوا المسجد شامرى السلاح وهرب من وجههم الحاكم فتمردوا وكسروا باب السجن وأخرجوا منه المساجين.

وسنة ٨٨٨هـ اختلف السلطان قايتباى والسلطان بايزيد العثماني فجمعوا من فلسطين الجنود (تجريدة) وصرفوا لهم المعاشات فأخذوها ونكلوا عن الحرب.

وفى سنة ٨٩٤هـ حضر أبو العويس أمير عرب الجرامنة (جد العويسات فى بيراماعيل والبرج) وطرح مظلمة على الفلاحين فعارضه نجم الدين بن جماعة (من أجداد دار الخطيب) واسترحم من الدوادار^(٥) أن يمنعه قلبى طلبه.

وفى ١٩ ربيع الأول سنة ٨٩١هـ الموافق ٧ كانون أول تساقط الثلج فى القدس من يوم الثلاثاء حتى يوم الخميس فتراكم كثيراً مثل ثلجة سنة ١٩١٩م وفى هذه السنة حدث خلاف بين حاكم غزة وحاكم القدس وتداخل بينهما السلطان وأصلح ذات البين وظلت البلاد فى انحطاط حتى التهمها الأتراك العثمانيون.

(٥) هو الدمدار (قائد المؤخرة) والبيشدار (قائد الطليعة).

القسم الثالث

فلسطين ايلة عثمانية

الفصل الثالث عشر

٦٩ - تمهيد

إن دولة حكمت فلسطين وخفقت راياتها على ربوعها أربعة قرون لجديرة بأن نخصص لها باباً ندون فيه أعظم المواقع وأشهر الحوادث التي جرت في أيامها ولا بأس من أن نبدأ بحثنا بذكر خلاصة عن أصل هذه الدولة وما وقف إليها من الأعمال الجليلة دون سواها من الدول الأخرى.

(أ) حاول العرب فتح القسطنطينية ودك عرش الرومان والقضاء على مملكتهم فسلخوا جزءاً كبيراً من جسم إمبراطوريتهم ولم ينفذوا إلى قلبها فبقيت ذات حول وقوة تكافحهم وتنازعهم البلاد ثم طمع سلجوقيو الأناضول في القسطنطينية وتلاهم التتر فهاجموا الرومان من الشمال والشرق والجنوب وفتكوا بهم فتكا ذريعاً فلم يقدروا عليهم فلما نجم الأتراك العثمانيون فتحوا الأناضول وتوغلوا في أوروبا وحاصروا الآستانة من كل الجهات وبعد حروب طويلة دامية دخلوها عنوة سنة ٨٥٧هـ وسنة ١٤٥٣م واستولوا على ممالك الرومان في أوروبا وآسيا.

(ب) أصلهم: كان وسط آسيا مهد القبائل التركية ومصدراً للأمم التي كانت تبدو صغيرة ثم تنتشر فنزداد عظمتها كلما نأت عن بلدها الأصلية كحجر يلقي في بركة ماء فتتسع دائرته كلما بعدت عن مركزها أو كصخر انحط من على فكلما طال في جريه زادت سرعته واشتد انحداره. أما الأتراك العثمانيون فهم من جبل التتر (القبيلة الطورانية) الذين سكنوا حدود الصين ثم زحفوا إلى تركستان

فتجنبيهم الأكاسرة وهابوا صولتهم فلما فتح العرب إقليمهم احتك الأتراك بهم واقتبسوا مدنيّتهم ودانوا بالدين الإسلامي في القرن الحادى عشر وأشهر هذه القبائل السلاجقة الذين ينتسبون إلى جدهم سلجوق والعثمانيون الذين ينتسبون إلى السلطان عثمان الغازى وهو الحجر الأول فى أساس دولتهم.

(ج) تكوّنهم: فى سنة ٦٨٧ وسنة ١٢٨٨ بدأت نواة الدولة العثمانية تتشكل فى الأناضول على أصل الدولة السلجوقية وما زال يمتد جذرهم ويبسق فرعهم حتى تغلبوا على إخوانهم واحتازوا الملك دونهم ومدوا ظلهم إلى البلقان وفينا عاصمة النمسا وامتلكوا العراق وسورية ومصر وإيران وشمال البحر الأبيض ولم يبقوا عند هذا الحد كأسلافهم السلاجقة أو الدول الإسلامية الأخرى بل تعدوا طورهم وضنوا على العرب بالخلافة (السلطة الروحية) وتطلعوا إلى اغتصابها منهم. فإن العرب قبلوهم ممجّاً وهذبوهم وصقلوهم وربوهم وعلموهم الدين الإسلامى الحنيف وعرفوهم عبادة الله عوضاً عن عبادة الأصنام ولقنوهم اصطلاحات علمية وفنية فلم يرع الأجانب لهم هذا الجميل وغلبوهم على تلك المملكة الواسعة التى فتحوها بجدهم ونشاطهم وروحهم الدينية وسلبوهم إياها وهذا يشبه ما حدث للرومان مع برابرة الألمان الذين ظهروا من أحراج أوروبا الشمالية فسطوا على مدينتهم وانتزعوها من أيديهم.

فاز الترك على العرب بيد أنهم سلكوا شريعة نبيهم محمد ﷺ ودخلوا فى دينهم واقتبسوا تقاليدهم فأصبح الأتراك وهم الغالبون مغلوبين لارتباطهم باللغة العربية الدينية وزيارة البلاد العربية لأداء فريضة الحج فهذه العلائق المتينة ربطت الأتراك بالعرب وأخضعتهم إليهم إلى أن قام الحزب الوطنى فى أنقرة وقرر أن تتلى خطب الجمعة فى البلاد التركية بلغتهم فدفنوا بهذا الحكم لغة محمد ﷺ.

٧٠- نشوء الدولة العثمانية حتى فتحها فلسطين

مؤسس هذه الدولة أرطغرل بن سليمان شاه التركمانى سلطان بلاد ماهان قرب بلخ من جنكيز خان وارتحل إلى بلاد الروم ببعض قبائل الترك فلما انتهى إلى

الأناضول رأى جيشين يلتطمان ويتحاربان فعلا نشراً من الأرض ليراقب حركاتهما الحربية ولما آنس من أحد الفريقين ضعفاً وخذلاً هب بفرسانه لنصرته واعمل السيف فى الجيش المنتصر فهزمه وبّد جيشه وبعد أن انكشف الغبار علم أن من أنجده كان الأمير علاء الدين سلطان قوفية^(١) الذى شكره على نجده وصنّيعه وأقطعه عدة مدن واتخذ ركنه وعماده فى حروبه وغاراته وأغدق عليه النعم ومنح قبيلته لقب (مقدمة السلطان) ولما توفى ارطغرل خلفه ولده عثمان وأخذ لقب بل مثل، أمير، لورد، فيكونت، وأجيز له ضرب النقود وأن يذكر اسمه فى خطبة الجمعة فخرج إلى قمة الرقى تدريجاً حتى قدم التتر وقتلوا الملك غياث بن السلجوقى فاتسع المجال لعثمان ولقب نفسه (بادشاه آل عثمان) واتخذ مدينة يكي شهر عاصمة له وخلفه ابنه اورخان فاستولى على جزء من أوروبا ونظم الجندية بمشورة وزيره خير الدين باشا الذى جمع الشباب من أسرى الحرب فرباهم تربية أنستهم أصلهم وجنستهم وباركهم شيخ طريقة البكتاشية المقيم فى أماسية وسماهم (يكي جارى) الجيش الجديد فتحرف الاسم إلى انكشارى فكان هذا العمل من أكبر العوامل لتثبيت دعائم هذه الدولة الفنية وقد سلك هذه الخطة فردريك الكبير ملك الألمان إذ نظم الجيش فرجع شأن بروسيا وأرهب ممالك أوروبا.

ارتقى جيش العثمانيين الجديد (يكي جارى) وزاد عدده فاخترق قلب البلقان ومكدونيا وفتح الآستانة.

وفى عهد السلطان سليم تحالف ملك مصر قانصوه الغورى وشاه إيران إسماعيل واتفقا على محاربة العثمانيين فسار السلطان سليم بجيش إلى بلاد العجم وفتح بعض ولاياتها وأقاليمها ثم انثنى إلى محاربة الملك الغورى فتصادف الجيشان فى مرج جابق (قرب حلب) ولم يصبر المصريون على مدافع الأتراك وانهزموا فقتل ملكهم وأسر الخليفة واستولى السلطان سليم على مدن سورية ثم تقدم إلى فلسطين فالتقى بجيش طومان باى قرب اللجون فحمل عليهم بجيشه وردهم على أعقابهم واستولى على فلسطين وفتح مصر ففضى على آخر ملوكها

(١) إحدى الإمارات السلجوقية المتجزئة من مملكتهم بعد انحلالها.

وضمها إلى ملكه فى سنة ٩٢٣هـ وسنة ١٥١٧م وقسم مصر إلى أقسام إدارية ووزع النفوذ بين الأمراء فكان كل منهم رقيباً على الآخر وقفل راجعاً إلى الآستانة مستصحباً محمد المتوكل آخر خلفاء بنى العباس الذى تنازل للسلطان سليم عن الخلافة وسلمه الآثار النبوية الشريفة: البيرق والسيف والبردة وأعطاه أيضاً مفاتيح الحرمين الشريفين فصارت الآستانة من ذلك الوقت مقر الخلافة الإسلامية وأصبح كل سلطان عثمانى خليفة لرسول الله ﷺ وأميراً للمؤمنين فجمع السلطان سليم السلطتين الزمنية والروحية وحصرهما فى نفسه وفى أحفاده من بعده ولم يك عمله هذا حرصاً على الدين أو حماية للإسلام وحسب ولكن أراد أن يستأصل منازعيه ويوحد كلمة المسلمين ويجعل لهم إمبراطورية عظمى.

٧١ - السلطان سليمان وما بعده من الأحداث

لو تتبعنا تاريخ هذا الخليفة لوجدناه مملوءاً بالأعمال الجسيمة والمآثر الجليلة الخالدة ولكننا نقتصر على ذكر ما يتعلق بفلسطين فمن مآثره فيها: وأعماله الحميدة سور القدس الذى أنشأه سنة ١٥٤٢م وسنة ٩٤٥هـ ولا يزال اسمه منقوشاً على صفحاته. ومنها عمل باب قبة الصخرة الغربى. وفتح باب السيدة مريم. وسد الباب الذهبى (شرقى الحرم). ومنها عمارة بركة السلطان الواقعة على طريق المحطة من باب الخليل. وهو الذى نظم القوانين، فلقب بالقانونى وكان سلطاناً عظيماً وإدارياً حازماً وبطلاً قديراً وصلت تركيا فى أيامه إلى ذرا مجدها حتى إنه هدد المجر واوستراليا وملك سائر بلاد البلقان وأصبح البحر الأسود بحيرة تركية تحيط به الأقاليم العثمانية من كل جهاته ودخل قى طاعته خير الدين باشا بارباروس فولاه قيادة الأسطول وأوقع الرعب فى دول أوروبا البحرية. وفى عهده خرج حاكم سورية وفلسطين جان بردى الغزالى فاستولى على قلعة دمشق وأعلن العصيان فأرسل إليه السلطان أحد قواده فرحات باشا وعاجله فأخمد تلك الفتنة وقطع رأس الغزالى.

وفى أواخر القرن السادس عشر فشا استعمال التبغ فى سورية ومصر وأقبل الجميع على تدخينه. وفى ذلك القرن استولى الأمراء المعنية على نابلس وأطرافها

وعينوا عليها ولاية من قبلهم وسار الأمير فخر الدين إلى نهر العوجاء وحارب بدو الساحل وبدد جموعهم ولكن أهل بلاد حارثة^(١) حاصروه في قلعة جنين وأخرجوه منها.

وفي هذا القرن عظم شأن الانكشارية واستبدوا بالملوك فأخذوا يخلعون من شاءوا ويولون من أرادوا وفي سنة ١٧٦٤م عصى أمراء جبل نابلس الحكومة فاستنجد والى الشام عثمان باشا الكرجى بالأمير يوسف الشهابى فأمدّه بجيش كثيف من أهالى لبنان وحاصروا عاصمتهم (قلعة صانور) فلم يستطيعوا فتحها فقال شاعر جرار:

عرب ودروز أجونا صايلينا من العرقوب أجونا صايلينا

وقال شاعر اللبنانيين:

جيننا بلاد جدى ما وصلها عرب ودروز والدولة تصلها

عربستان يا رب نصلها بحق البيت أو ما زاره صحابة

٧٢- خروج الأمير على المصرى والشيخ ظاهر العمر

فى أثناء الحرب الروسية العثمانية أرسلت روسيا أسطولاً إلى البحر المتوسط وأثارت الشيخ ظاهر العمر وعلى بك المصرى الملقب بشيخ البلد فخرجاً على الدولة وحشد على بك الجنود وأرسلها مع محمد بك المكنى (بأبى الذهب) إلى الحجاز فاحتل جدة وطرد الشريف من مكة ودعى له على المنابر وضرب السكة باسمه. أما الشيخ ظاهر العمر فإن أصله من الحجاز جاء أجداده الزيدانية فى الفتح الإسلامى الصلاحى وكانت اقطاعاتهم خمس قرى وهى: بيت اكشا والنبنى صموئيل والجيب وبين نابالا وبيت جنينا فسكنوا فى القرية الأولى ثم رحل جده زيدان ونزل فى شفا عمرو فأكرمه محافظ القلعة وظل يتقدم إلى أن تعين ولده عمر على عكا ثم خلفه ابنه ظاهر المشهور فاتفق مع المتأولة حكام صور وبلاد بشارة

(١) ناحية مؤلفة من ٣٥ قرية تابعة إلى جنين.

وخالف الدولة فسير إليه والى دمشق جنداً فاستصرخ زميله على بك المصرى وزين له الخروج على سورية والاستيلاء عليها فجهاز إليه عشرة آلاف مقاتل مع القائد إسماعيل بك وأمره بطاعة الظاهر فساروا إلى فلسطين وقابلهم أبناء الظاهر فى يافا باحتفاء وأتوا بهم إلى عكا فحاول ظاهر العمر أن يوجههم إلى طريق الحج ليقوموا بوالى دمشق فأبوا وعاد بهم قائدهم إلى يافا فاشخص على بك المصرى عسكرياً آخر بقيادة أبى الذهب وانضم إليه عسكر ظاهر فكانوا ستين ألف مقاتل وحاربوا والى الشام فلم يثبت أمامهم وولى هارباً فاستولى أبو الذهب على دمشق واعتزم على أن يمتلك بقية البلاد غير أن القائد الأول إسماعيل حول عزمه وأفسد إخلاصه فرجع إلى مصر موالياً للدولة مغاضباً على بك ومزاحمه فغلبه على أمره وألجأه أن يفر إلى ظاهر العمر فى عكا ومن هناك استنجد الأسطول الروسى فساعدهما من البحر وامتلكا صور وصيدا وطرذا الوالى درويش باشا^(١).

ثم اتفقا على محاربة أبى الذهب ودلفا إلى مصر فقابلهم قرب غزة وحاربهم فكسرهم وجرح على بك فى وجهه وأخذ أسيراً فلافقه أبو الذهب ولكنه مات من جرحه. ولما رجع الظاهر إلى عكا مخذولاً عفا عنه السلطان وولاه آيلة صيدا وعكا فلم يخلص نيته فخرج إليه أبو الذهب من مصر بعسكر كثيف وخيم حول غزة وحاصر كريم بن ظاهر العمر فى يافا ٦٠ يوماً ففتح المدينة عنوة ونهب أموالها وقتل من كان فيها وأقبل على عكا ففر ظاهر منه ملتجئاً إلى عرب عنزة.

ولما مات أبو الذهب رجع الشيخ ظاهر إلى عكا واحتلها فسير إليه السلطان العثمانى الأميرال حسن باشا فهدد ظاهراً بالحرب إن لم يؤد ما عليه من الأموال فلم يلتفت إلى طلبه بل رده ردّاً قاسياً فحاصره وضيق على المدينة وضبطها وأسره واجتز رأسه وأرسله إلى السلطان ومن آثار ظاهر العمر سور عكا وسراية شفا عمرو وبعض مساجد وعمارات أخرى.

(١) من أجداد آل رضوان فى غزة الذين تحدر منهم أكثر من عشرة باشاوات وصدور عظام.

إن من استقصى حوادث هذا المختصر وجد أن البلاد كانت مضطربة فتارة فى حالة سلم وهدوء وطوراً تهيج فيها نار الحرب والثورة وتكثر فيها الخوارج وما السبب إلا تنافر الأمة والحكومة فإذا تفاهما ساد السكون وأمن الناس وإن ساء ظن الأمة بحكومتها اختل الأمن واثارت الفتن ونشأ عن ذلك ما لا يحمد عقباه من سفك الدماء وقتل النفوس البريئة.

كانت حكومة سورية فى القرن الثامن عشر حكومة لا مركزية أى القطاعات أو حكومة أمراء ومشايخ يقوم كل منهم بحكم منطقته فكان مشايخ أبو غوش أو البراغثة يحكمون بنى مالك وبنى حسن وبنى زيد وبنى مرة وبنى سالم فإذا اختلف اثنان كانا يتقاضيان عند الشيخ «العدلية» ويقبلون حكمه لا محالة. ومن خالف عادات البلاد أو أدخل بتقاليدهم يسجن فى سجنهم وكان الشيخ أو الأمير يجبى الضرائب ويقدم المقطوع عليه للوالى ويأخذ الزيادة وإذا حدثت فتنة أو خيف من وقوعها كان يطلب الوالى المعاونة من أمراء منطقته فيخرجون بأنفسهم ومن ورائهم رجالهم وفرسانهم. فالشيخ أو الأمير يحكم مقاطعته كما يحكم الأمير ايلته وكثيراً ما كان يستبد هؤلاء المشايخ بالفلاحين ابتغاء مرضاة الأمراء والولادة فادى هذا النظام إلى انتشار الفوضى واختلال الأمن وسبب للحكومة خسراً كبيراً فى الأموال والرجال. وقد تنبّهت الحكومة لهذه الأضرار الناجمة فعمدت إلى إضعاف قوة المشايخ والأمراء وأيدت الجزائر فى عكا وأشارت إليه بإبادة المنتقدين ونصر ولايتها المخلصين لكنها لم توفق إلى إنجاز هذا العمل إلا سنة ١٢٨٧ هـ وسنة ١٨٧٣ م حيث ألغت الإمارات ومناطق النفوذ وأدارت البلاد بموظفيها. وهذا الأسلوب يشبه ما فعله لويس الحادى عشر فى فرنسا فإنه مازال بالأمراء والنبلاء حتى قضى على سلطتهم وخلص من نفوذهم الذى كان حاجزاً بينه وبين الشعب.

٧٣ - أحمد باشا الجزائر

هو رجل بشناقى الأصل من بلاد اليوسنة كانت نفسه نزوعة إلى الأعمال الجليلة وتذليل الصعاب فبعثت به الحكومة إلى مصر ليستأصل شوكة المماليك

الذين كانوا شجراً في حلقتها فاتبع سياسة إلقاء بذور الفساد والفتن بين المشايخ والأمراء وفاز بأمنيته وكان طائش السيف ظالماً بطاشاً استحل الموبقات وولغ في النفوس فسخط عليه عامة الشعب والحكام ففر ملتجئاً إلى الأمير يوسف الشهابي ليتبع أمراء سورية بممالك مصر.

وفي سنة ١٧٧٠ م أنيطت به المحافظة على مدينة بيروت فحصنها ومنع أهل الجبل من دخولها وأزمع على العصيان ففطن لذلك الأمير يوسف وباغته وهم أن يبطش به فقابلته الجزار بالخضوع والطاعة واستمهلته ٤٠ يوماً ثم جاهر بالكفران فغلب على أمره ولم يفلح. وحدثت بينه وبين علي بن ظاهر العمر وقعت خذل فيها على وفر من البلاد فقتل وزالت إمارة أهله واستحوذ الجزار على ما كانوا يملكون من المقاطعات واتخذ عكا عاصمة له وبنى عليها سوراً ثانياً وجامعاً كبيراً هو خير حسناته وآثاره.

وما فتئ الجزار يقتل ويذبح ويثير بعض المشايخ على بعض حتى أصبح من أكبر ولاية وأبطال سورية فزادت ثقة الدولة به واعتمدت عليه في تنفيذ غاياتها وتكثير وارداتها فازداد بطشه وصنع وتدأ «خازوقاً» كان يجلس عليه من خالفه أو عانده فارهب الناس وأخاف أهالي البلاد لأنه كان لا يثبت على حال مع صديق أو عدو فبينما نراه اليوم يحسن إلى رجل ويعطف عليه إذا به غداً قد أصبح فريسة لسيفه وهدفاً لسهام انتقامه. فيروى أنه ذهب لأداء فريضة الحج فبلغه ما جعله يرتاب في أهل بيته فلما رجع شواهن في النار ومات الجزار سنة ١٨٠٤م بعد أن بلغ من العمر ٨٤ حجة ودفن في عكا في الجامع الذي بناه.

مر على فلسطين قرنان ونصف وهي نائمة لم يحدث فيها شيء سوى ما انتابها من الحوادث الداخلية البسيطة فأغفلها التاريخ وجاءت عرضاً في أخبار غيرها وهيئات أن تكون فلسطين الصغيرة عضواً في جسم مملكة واسعة الحدود ولها نصيب في صفحات التاريخ لاسيما إذا خلست من الحروب أو الانقلابات السياسية وتجردت من النهضات الأدبية كظهور نوابغ وعظماء في العلم والشعر والأدب.

الفصل الرابع عشر

فلسطين في القرن التاسع عشر

٧٤ - بونابرت في فلسطين

ظلت فلسطين منذ فجر التاريخ والأرياح الآسيوية تقذف إليها أمواج القبائل المتلاطمة غير أن تلك الريح تبدلت وهب عليها من الغرب ريح عاصف فرماها بالإسكندر وبومبي وغودفري وقلب الأسد ونابليون بونابرت أكبر القواد وأشهر نوابغ الحرب الذى ترقى من ضابط بسيط إلى قائد «جنرال» وإمبراطور عظيم فحارب إيطاليا والنمسا وروسيا وأسبانيا وزلزل عروش ملوكهم واستولى على كثير من بلادهم وممالكهم ولم يبق أمام دولة فرنسا إلا إنكلترا التى ظلت تناصبها العداة وتحرك عليها الدول فاثارت غضب الفرنسيين وأخذوا يفكرون فى القضاء عليها فلمعت بارقة أمل إلى نابليون وخطر له أن ينشئ حكومة شرقية يزاحم بها إنكلترا فكتم ما فى نفسه وطلب لزملائه أن يجهزوا له جيشاً ليحتل به مصر مجرى تنفس الإنكليز ويسد عليهم طريق الهند ويجز ناصيتهم فجهزوا له جيشاً وأسطولاً واستصحب معه ١٢٢ رجلاً من المتخصصين فى جميع العلوم لدرس القطر المصرى وتسلس خلسة وهبط مصر فأخذها ونظم إدارتها فاستشاط الإنكليز غضباً وشجعوا الدولة العثمانية على محاربة الفرنسيين واسترجاع مصر ووعدهم بالمناصرة فأمر العثمانيون الجزائر والى عكا بأن يتقدم إلى مصر فذهب وامتلك العرش فاغتاظ نابليون من ذلك وجعل يعد حملة ليفتح بها فلسطين وسورية وينقض على الهند فاسترقق بعضاً من علماء الدين الإسلامى ليستعين بمركزهم الدينى على تنفيذ مآربه السياسية وفى سنة ١٧٩٩ سار الجنرال كليبر Kleber إلى فلسطين فقابل قائد جيوش الجزائر قاسم بك خارج العريش وحار به وشتت جمعه

وأخذ ذخائره ولحقه نابليون باثني عشر ألف مقاتل فاحتل العريش وأمن أهلها ثم سار إلى غزة^(١) مفتاح فلسطين الجنوبي فتسلمها بلا حرب وأتى بعد ذلك إلى الرملة^(٢) فأرسل فرقة من جيشه لمهاجمة يافا الغاصة بجنود الجزائر المؤلفين من عرب وأتراك ومغاربة وأرنؤوط وأكراد وجركس فحاصروا المدينة مدة ثم فتحوها فانسحبت الحامية إلى بعض الخانات وأبوا التسليم قيل أن يؤمنهم على حياتهم فأجابهم إلى طلبهم القائد الأفرنسي فاستأمن له أربعة آلاف شخص فساقهم إلى المسكر ولما رآهم نابليون سأل قائده عن هذه الجموع المحتشدة فأخبره أنها حامية المدينة انتهى سلمت إليه أماناً وقبلهم حقناً للدماء فبهت وحرار في أمره وقال ماذا تريدون أن أفعل بهذا العدد؟ أعندكم زاد يكفيهم ألكم مراكب تنقلهم لمصر أو فرنسا؟ ومن يتولى خفارتهم إذا أرسلناهم؟ يجب أن تعطوا الأمان إلى الأطفال والنساء والشيوخ لا للرجال الأشداء المقاتلين ثم استشار ضباطه في قتلهم فخالقوه ولكنه أصر على رأيه وأمر بهم فقتلوا رمياً بالرصاص في ١٠ آذار سنة ١٧٩٩ م.

وأمر بقتل مرضى جنده وجرحاهم ولم يوار سواتهم ولعمري إن هذا لمن أظفح الفظائع التي تنسينا همجية الآشوريين وقساوتهم مع أسراهم وتذكرنا ببربرية جنكيز خان وهولاكو وتيمور لنك واثيلا الذين كتبوا تاريخهم بمداد أحمر وسطروا صفحات أيامهم بأسوأ الذكري وأوحشها ومهما اعتذر عنه التاريخ وسرد له حججاً قاطعة تبيح له قتلهم ليتخلص من مؤونتهم أو لأنه أسر بعضهم في غزة والعريش وأطلقهم بشرط ألا يحاربوه ثانية فإن كل هذه الأعذار لا تبرر عمله.

١ - لأنه عاش في القرن التاسع عشر عصر المدنية كما يقال لا في أيام الهمجية.

٢ - ولأنه جاء من فرنسا مهد المدنية وأم الحرية ذات العواطف البشرية الرقيقة.

(١) ومكث مدة في بناية آل رضوان «ماوى الدرك» اليوم.

(٢) كان مركز أركان حربه دير اللاتين وقد دخلنا غرفته فوجدناها بسيطة.

٣ - ولأنه ظهر في الثورة الفرنسية وكان غصناً من دوحة دعائها الذين كان شعارهم الحرية والمساواة والعدالة والأخوة.

ولكن ليس من السهل أن نقسو في الحكم على نابليون فقط فإننا لو وضعنا في مركزه لودندورف وجوفر وفوش والنبى ولم يجدوا من يسوق الأسرى إلى مصر ولم يكن لديهم طعام يكفيهم لجوزوا لأنفسهم قتلهم وإعدامهم وما قتل ٤٠٠٠ شخص في حكم الطبيعة إلا كجمل دب على سرب نمل فداسه وحطمه وأباده.

٧٥ - نابليون والقدس

عجب رجال الدين من نابليون كيف أهمل القدس ولم يبال بها مع أنها البلد التي يجلبها المسلمون والمسيحيون وغاب عنهم أن نابليون ما كان ينظر إليها إلا من الوجهة العسكرية ولذلك لم يجوز لنفسه أن يركب بجيشه الأهوال قبل أن يمهد السبل ويقضى على الجزار عدوه العنيد فطلب من حامية القدس تسليمها فأجابته بأن مدينة القدس تابعة لعا فمتى فتحتها تسلم إليك، فتركهم وشأنهم وانصرف لحصار عكا عاصمة فلسطين وحصنها المنيع وبعث بمنشور إلى أهل مصر نرويه بالحرف الواحد كما ذكره زيدان وثقلت أنظار القارئ إلى أسلوب بوناپرت الذى اتخذه لإرضاء المصريين والمسلمين وهيئات أن ينجح ساسة الغرب بتملقهم بعد أن أدرك الشرقيون نياتهم ومقاصدهم.

٧٦ - منشور نابليون (*)

بسم الله الرحمن الرحيم سبحانه مالك الملك يفعل فى ملكه ما يريد هذه صورة تمليك الله سبحانه وتعالى جمهور فرنساويين لبندر يافا من الأقطار الشامية. نعرف أهل مصر وأقاليمها أن العساكر الفرنسية انتقلوا من غزة ثالث وعشرين شهر رمضان ووصلوا الرملة فى ٢٥ منه فى أمن واطمئنان وشاهدوا عسكر أحمد باشا الجزار هاربين بسرعة قائلين الفرار الفرار ووجدوا فى الرملة ومدينة اللد مقداراً كبيراً من مخازن البقسماط «الكعك» والشعير ووجدوا أيضاً ١٥٠٠ قرية

(٥) تاريخ مصر الحديث.

مجهزة تجهزا الجزائر ليسير بها إلى إقليم مصر مسكن الفقراء والمساكين ومراده التوجه إليها مع العربان الأشرار من سفح الجبل ولكن تقادير الله تقسده المكر والحيل وما كان قصده سوى سفك الدماء مثل عادته فى أهل الشام وناهيكم ما هو مشهور عنه من التجبر والظلم والجور فإنه تربية المالك الظلمة المصريين وفاته أن الأمر لله وكل شىء بقضائه وتدبيره.

وفى السادس والعشرين حلت طلائع الفرنسيين بندر يافا من الأراضى الشامية وأحاطوا بها وحصروها من الجهة الشرقية والغربية وأرسلوا إلى حاكمها وكيل الجزائر أن يسلمهم القلعة قبل أن يحل بهم وبمسكرهم الدمار لكنه لخشونة عقله وفساد رأيه وسوء تدبيره لم يرد. وفى ذلك اليوم أى ٢٦ من شهر رمضان تكامل العسكر الفرنسي على محاصرة يافا وانقسم ثلاث فرق توجهت فرقة منهم على طريق عكا على مسافة أربع ساعات من يافا وفى سبعة وعشرين منه أمر حضرة سارى عسكر الكبير بحفر خنادق حول السور لعمل متاريس متينة واستحكامات حصينة إذ عرف أن سور يافا ملآن بالمدافع الكثيرة ومشحون بعساكر الجزائر الوفيرة.

وفى ٢٩ منه ناهز حفر الخنادق النهاية وصار على مسافة ١٥٠ خطوة من السور فأمر سارى عسكر أن تنصب المدافع على المتاريس وأن توضع أهوان القنابر بإحكام وأمر بنصب مدافع أخرى بجانب البحر لمنع الصلة بين عسكر البر والمراكب التى أعدها عسكر الجزائر فى المينا للهزيمة والفرار ولما رأى عسكر الجزائر المحاصرون فى القلعة أن عديد الفرنسيين قليل أغراهم الطمع فخرجوا إليه من القلعة مسرعين ظناً منهم أنهم يتغلبون على الفرنسيين فهجم عليهم الفرنسيون وقتلوا منهم كثيرين وأجبروهم على الدخول إلى القلعة ثانية وفى يوم الخميس غاية شهر رمضان أشفق حضرة سارى عسكر وخاف على أهل يافا إذا دخلت عساكره بالقهر والقوة فأرسل إليهم مع رسول خطاباً هذا مضمونه.

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له بسم الله الرحمن الرحيم»

من حضرة سارى عسكر برتبة كتخدا العسكر الفرنساوى إلى حضرة حاكم يافا نخبركم أن حضرة سارى عسكر الكبير بونا برته أمرنا أن نعرفكم فى هذا الكتاب أن سبب مجيئه إلى هذا الطرف هو إخراج عسكر الجزائر فقط من هذا البلد لأنه تعدى بإرسال عسكره إلى العريش ومرابطته فيها والحال أنها إقليم مصر التى أنعم الله بها علينا فلا تجوز له الإقامة بالعريش لأنها ليست من أرضه فقد تعدى على ملك غيره.

وتعرفكم يا أهل يافا أننا حصرنا بلدكم من جميع أطرافه وجهاته وضيعنا عليه بآلات الحرب والحصار والمدافع الكثيرة والكلل والقنابر وفى برهة ساعتين يخرب سوركم وتبطل آلات حربكم ونخبركم أن حضرة سارى عسكر لمزيد رحمته وحنؤه خاف عليكم من سطوة عساكره المحاربين فإنهم إذا دخلوا عليكم بالقوة والقهر أهلكوكم جميعاً ولذلك أمرنا أن نرسل إليكم هذا الخطاب تأمييناً لأهل البلد ولاسيما الضعفاء والفقراء والغرباء وأن تؤخر ضرب المدافع وإطلاق القنابر ساعة واحدة وإنى لكم لمن الناصحين وهذا آخر خطاب بيننا».

فجعلوا جوابنا حبس الرسول مخالفين بذلك الشريعة المطهرة المحمدية والقوانين الحربية فتميز سارى عسكر من الغيظ وهاج واشتد غضبه وأمر بإطلاق المدافع والقنابر ولم يمض إلا اليسير حتى خرست مدافع يافا وانقلب عسكر الجزائر فى وبال وخسران وعند الظهر انخرق سور المدينة وارتج له القوم ونقب من الجهة التى ضربت منها المدافع ولا مرد لقضاء الله ولا مدافع وفى الحال أمر حضرة سارى عسكر بالهجوم وفى أقل من ساعة ملكت العساكر الفرنساوية البندر والأبراج ودار السيف فى المحاربين وحمى الوطيس وكثر القتل وفى يوم الجمعة غرة شوال وقع الصفح الجميل من حضرة سارى عسكر الكبير ورق قلبه لاسيما على من كان فى يافا من أهل مصر فأعطاهم الأمان وأمرهم بالعودة إلى الأوطان وكذلك أمر أهل دمشق وحلب بالرجوع إلى بلادهم ليعرفوا مقدار رحمته ومزيد رأفته وقتل فى هذه الوقعة أكثر من أربعة آلاف من عسكر الجزائر بالسيف أما الفرنساويون فلم يقتل منهم إلا القليل وسبب ذلك أن سلوكهم إلى القلعة كان

فى طريق أمينة خافية عن العيون وأخذوا ذخائر كثيرة وأموالاً غزيرة واستولوا على المراكب التى فى الميناء ووجدوا فى القلعة نيفاً وثمانين مركباً وقد فات الجزار وعساكره أن آلات الحرب لا تدفع مقادير الله فاستقيموا عباد الله وارضوا بقضاء الله ولا تعترضوا على أحكام الله وعليكم بتقوى الله واعلموا أن الملك لله يؤتية من يشاء والسلام عليكم ورحمة الله.

وبعد أن أتم بونابرت أعماله وخططه الحربية سار إلى عكا فوصلها فى ٢١ أذار وحصرها خمسين يوماً وكان الجزار يتعهد الدفاع البرى والاميرال الإنكليزى سدنى سميث يتولى الدفاع البحرى فلم يستقد الفرنسيون شيئاً لأن الجنود العثمانية كانت تفد بكثرة على الجزار حتى غصت بهم عكا واستماتوا فى الدفاع بعد أن سمعوا ما فعله الفرنسيون بحامية يافا فخاب أمل نابليون وجرب أن يستميل إليه الأمير بشير الشهابى أو يؤلف جيشاً من الدروز فلم يظفر بموالاة أحد لأنهم كانوا يخافون بطش الجزار وشدته.

وفى أثناء حصار عكا أرسل نابليون فرقاً إلى الناصرة وصفد وامتلكها وحدثت معركة بين الفرنسيين وجنود الأتراك حول جبل طابور «الطور» فشهد نابليون المعركة بنفسه مع كليبر وهزم العثمانيين هزيمة منكرة.

ذكر المطران الدبس أنه أتى قوم من المتأولة إلى نابليون فولاهم قسماً من هذه البلاد وولى الشيخ صالح بن ظاهر العمر مدينة صفد.

ولكن ثبات الجزار وعناده وشجاعته الفائقة غرست الخيبة فى نفس نابليون فقذف آخر سهم من كنانته وجمع جنوده وخطب فيهم خارج أسوار عكا كما خطب فيهم تحت ظل الأهرام وعلى ثلوج جبال الألب فقال:

«هذه المدينة هى مفتاح الشرق فاعلموا حرج مركزكم ووطدوا عزائمكم على امتلاكها لأن بامتلاكها تسلمون لدولتكم مفتاح الشرق فندخل القسطنطينية عاصمة قيصرية الروم ونملك شرق أوروبا وشمالها فاعلموا ذلك واخلصوا نياتكم» فلهب حماسهم ونشاطهم وهجموا مستميتين فاقتحموا الخنادق وثغروا الأسوار وهزموا

الحامية ودخلوا البلدة حتى بلغوا سبيل الجامع الكبير وانتزعوا طاسة من طاساته وهي موجودة في متحف باريس فظهر الجزار بنفسه وأخذ يحرض جنوده على الثبات وكان يفتك بكل من يعمد إلى الفرار فاستبسلوا وكافحوا نابليون وجنده وردوهم خائبين بعد ما لمع لهم النجاح وكادوا يظفرون بامنيتهم. وفي ٢٣ آيار سنة ١٧٩٩م فك نابليون الحصار عن عكا وقفل راجعاً إلى مصر بعد أن اعتذر إلى جيشه بأنه قهر العدو عند جبل طابور وشتت شمل الأتراك وأخذ كل مدافعهم ومؤناتهم ولا يرى من ضرورة لإطالة البقاء في سورية فعاد خائباً مخذولاً وقد فتكت الأمراض والطاعون بمعسكره المغلوب وطلق العربان وبعض الأهالي يتخطفونهم ويطاردونهم ويقلقون راحتهم وقد أظهر نابليون من الشفقة والعطف ما جعلنا نذكر تلك الشيمة السامية فإنه أركب بعض جنوده حصانه الخاص ومشى على قدميه. وقد وصل مصر ولم يمكث بها طويلاً وبرحها إلى فرنسا وترك القائد كليبر وكليلاً عنه فظلت الجنود الفرنسية تكرر وتفر حتى أوائل سنة ١٨٠١م وجلت عن البلاد.

٧٧ - ثورة نابلس :

كانت مناطق فلسطين الإدارية منذ ابتداء القرن التاسع عشر كما يأتي :

القدس وملحقاتها تابعة لإيالة عكا ، ونابلس وبلادها ملحقة بالشام فاتفق أن فرض والى الشام ضريبة جسيمة على أهل نابلس فرفضوا دفعها بجرأة وقوة فلم يأبه الوالى لهم بل شرع في تحصيل الأموال غصباً فثار أهالي جبل نابلس سنة ١٨٢٩م وقاوموا سلطة الوالى وامتنعوا عن دفع الأموال فطلبت الدولة إلى والى عكا عبد الله باشا أن يمدد إليها فصعد بالأمر ولقى النابلسيين شمالي فلسطين مستعدين وقد تحصنوا في قلعة صفد فحاربهم عبد الله باشا وعجز عن اخضاعهم فاستنجد بالأمير بشير الشهابي اللبناني فأتى برجالهم وانضم إليه وحاربوا النابلسيين وردوهم على أعقابهم فاعتصموا بقلعة صانور الواقعة بين جنين ونابلس وحاصروهم عبد الله باشا وضيق عليهم فكانت النساء تغمس اللحف بالزيت

وتشعلها وتقذف بها ليلاً خارج السور كي يبصر رجالهن العدو ويرمونه بالرصاص.

وفى أثناء ذلك هجمت طائفة من عرب الصقر على عسكر عبد الله باشا لتمنعهم الاستقاء فطاردهم الأمير بشير وهزمهم إلى قرية عجة شمالى صانور وأحرق كثيراً من القرى وأخيراً ضعف المحصورون وذاقوا من العناء والتعب ما زهدهم فى القتال فسلموا. وليس من المعقول أن شزيمة قليلة غير منتظمة ولا مدربة تقدر أن تعصى وتقاوم ولاية عكا التى كانت تمدّها وتساعدّها الدولة العلية بكل قوتها ولا غرو فإن قسماً كبيراً من أهالى البلاد انضم إلى عبد الله باشا وحارب رؤساء الثورة - أسرة جرّار الذين لم يكن معهم سوى حزبههم وحسب. ولم يبرح عبد الله باشا البلدة حتى خرب القلعة وقسماً كبيراً من السور ليأمن ويطمئن أنه إذا حدثت ثورة أخرى لا يجد الثوار حصناً يلتجئون إليها.

٧٨ - إبراهيم باشا فى فلسطين :

ولد محمد على باشا فى قولة بلد الإسكندر المكدونى من عائلة ارثوودية وانخرط فى سلك الجنديّة وجاء مع حملة عثمانية سنة ١٢١٣هـ / ١٧٩٩م لإخراج الفرنسيين من مصر كما جاء صلاح الدين مع أسد الدين شيركوه فترقى وساعدته الظروف كما ساعدت ظاهر العمر والجزار وغيرهما فعينه خسرو باشا برتبة «سر جشمة» قائد فرقة وتقدم إلى أن رسخت قدمه فى وادى النيل ونفذت كلمته فانتخب والياً «حاكماً» على مصر سنة ١٢٢٠ هـ وسنة ١٨٠٥ م فاجهز على المماليك فى وقعة القلعة الشهيرة سنة ١٢٢٦ هـ وسنة ١٧١١ م وتاقت نفسه إلى توسيع سلطته والاستيلاء على سورية وفلسطين وتأسيس مملكة مستقلة فتخوفت منه الحكومة وعزلته وولت سواه فأبى عليها واستمال رجال الباب العالى وأغدق عليهم نعمه فأقروه فى منصبه ولكنه عرف أن الأخطار محدقة به وعزم على محو أعدائه الداخلين وسعى فى إبادة المماليك ففروا من وجهه إلى الصعيد والعرش وخان يونس وتبعهم الفقراء الذين أثقل كاهلهم بالضرائب والأعشار والسخرة

«العونة» فطلب إلى والى عكا عبد الله باشا أن يرد المصريين ولا يقبلهم فى بلاده لئلا يفسدوا عليه عمله فأغلظ عبد الله باشا عليه الجواب فساءه هذا الأمر البسيط وعده جرماً كبيراً وجناية عظمى وجهز جيشاً بقيادة ابنه إبراهيم باشا سنة ١٨٣١م فأبحر فى عمارة بحرية ونزل بيافا وكان قد سبقه جنده برأ ففتحوا العريش وامتلكوا غزة والرملة ويافا وذهب بعضهم لفتح القدس فقاتلهم جماعة أبى غوش ومن معهم من الرجال وصدوهم فاتجهوا نحو طريق وادى الشعير ونابلس فذلوا العقبات التى اعترضتهم وعبدوها وفتحوا نابلس والقدس ثم سار إبراهيم باشا بجنده إلى حيفا وجعلها مركزاً لأركان حربه ومستودعاً للذخائر والمعدات وشدد فى حصار عكا وأعانه الأمير بشير الشهابى فخافته الدولة وبعثت جيشاً لمحاربته فهب إبراهيم باشا لمناجزته فالتقى به قرب حمص وبدد شمله فقال الشاعر العربى «الجندى».

من مبلغ الأتراك أن جموعهم هزمت وأن حسينهم ولى إلى فذاع صيته وفتح عكا وامتدت فتوحاته إلى ما وراء قونية وأخذ رشدي باشا قائد الجيوش التركية أسيراً سنة ١٢٤٨ هـ وسنة ١٨٣٢م وتقدم إلى ضواحي مدينة بروصة ولولا تدخل الدول و تهديدها ووعيدها لدك عرش العثمانيين واستولى على مملكتهم. وفى سنة ١٨١٧م قدمت عصابة من الوهابيين إلى حوران وهددوا دمشق فأعدت لهم الدولة القوة وردتهم من حيث أتوا.

٧٩ - ثورة أمراء فلسطين ومشايها :

قدم إبراهيم باشا البلاد وهو يظهر أن عبد الله باشا خرج على الخليفة وقد أرسله السلطان ليؤديه ويجازيه على عصيانه فصدقه البعض وأذعنوا إليه حتى انجلت لهم نيته ووضح مقصده وكلفهم بجنود وأموال لا قبل لهم بها فندم أمراء الإقطاعات على سكوتهم واجتمعوا فى قرية بيت وزن «غربى نابلس» واتفقوا على محاربته ومقارعته فنكت جماعة منهم. ومالوا مع إبراهيم باشا فساعدوه ودلوه على الطريق والمياه فعاجل المخالفين قبل أن ينظموا حركتهم وفتح طول كرم ثم نابلس وعطف على القدس فاحتلها وقد تهافت الأهالى على قتاله من كل جانب

فهاجمهم وكسر جمهور القبائل الشمالية عند شعفاط ولكن أهالي الخليل هزموه عند برك سليمان وحصلوه في القدس فاستعاد نشاطه وقارعهم ثانية فظفر بهم ودوخ البلاد وقتل من قتل وشنق من شنق وتزلف إليه البعض وهابه السكان فأصبحوا خاضعين لدولته وأوامره يقدمون الجنود ويدفعون الضرائب بلا ممانعة فبنى قشلاق باب الخليل واتخذ القدس له عاصمة ومكث يحكم في البلاد ١٠ سنوات وفي سنة ١٨٤٠ م سنة ١٢٥٦ هـ خذلتها فرنسا وضغطت عليه دول التحالف فاضطرت له للتخلي عن جميع فتوحاته وسمحت له بمصر ولاية ممتازة يتعاقب عليها نسله من بعده بشرط أن تظل خاضعة للآستانة فقبل مكرها وتقدم أحفاده إلى أن صاروا ملوكاً.

٨٠ - حرب القرم :

طارت شرارة من فلسطين فأذكت حرباً ضروساً بين الدول الكبرى وسلمت هي منها كقنبلة انبثقت من فوهة مدفع فلم تضره وانفجرت في شرق أوروبا وقققاسية فخريتهما. وأسباب هذه الحرب كثيرة منها؛ التنافس المستمر بين قسّس الارثوذكس واللاتين وتسابقهم إلى حيازة الأماكن المقدسة في فلسطين ومن خلفهم روسيا تؤيد الارثوذكس وفرنسا تعضد اللاتين لا لشفقة إنسانية أو عاطفة دينية ولكن لسيط نفوذهما في الشرق وللتدخل في شؤون الدولة العثمانية فرجحت كفة فرنسا سنة ١٧٤٩م وفازت بعقد معاهدة مع الدولة العثمانية نصت على أن لفرنسا الحق بحماية مسيحيي الشرق فاشتد أزر الكاثوليك واستولوا على الكنائس وتصرفوا بها تصرف المالك المستقل فاستاء الارثوذكس وغضبت حاميتهم روسيا وأخذت تسعى بنشاط لإلغاء هذه المعاهدة ومحق هذا النفوذ. فلما شغلت فرنسا بحروب الثورة الأهلية دفعت روسيا قسّس الارثوذكس وكهنتهم إلى التحرش بالكاثوليك فتعدوا على حقوقهم وسلوبهم إياها فامتعضت فرنسا وصبرت كارهة إلى أن تعين نابليون الثالث وفاوض الدولة العثمانية وكاشفها برد حقوق أهل ملته المغصوبة فألف الباب العالي لجنة من أشخاص مختلفي المذهب وأناط بهم فصل هذا الخلاف بمقتضى المعاهدات الدولية القديمة فاجتمع الأعضاء وتذاكروا مرات ثم قرروا في ١٤ ربيع الثاني سنة ١٢٦٨ هـ و ٤ شباط سنة ١٨٥٢ م أن

للكاثوليك الحق في امتلاك بعض الأماكن المقدسة دون غيرهم فعارضت روسيا وحالت دون إنفاذ هذه الاتفاقية وهددت الباب العالي بالحرب إذا هو لم يعدل عن رأيه. وأصررت فرنسا على التمسك بحقوقها فترددت الدولة حينئذ ثم جازمت ونفذت مضمون قرار اللجنة الأخيرة. ف اتخذت روسيا هذا العمل ذريعة لتطبيق وصية بطرس الأكبر «الاستيلاء على استانبول والمضايق» وأرسلت البرنس منشيكوف سفيراً غير اعتيادي إلى الأستانة ليخاير المايين في شأن الأماكن المقدسة فذهب وياشر مناوراته السياسية وطلب بالبحاح شديد احترام معاهدة خونكار القاضية بان يكون لروسيا الحق بحماية جميع المسيحيين من رعايا الدولة العثمانية فماطله الباب العالي ثم خاشنه فقطع علاقته من حكومة الأستانة وهددها باحتلال إمارتي الأفلاق والبغدان «رومانيا» فتوترت السياسة وتحزبت إنكلترا لفرنسا وعضدتا الدولة العثمانية فأعلنت روسيا الحرب واجتاز عساكرها نهر البروت واحتلت الولايتين فعلاً فحشدت الدولة العثمانية جنودها وجمعت جمعاً كبيراً من البلاد العربية^(٥) وبعثت بهم إلى حدود روسيا واشترك معهم جنود الإنكليز والفرنسيين واحتدم القتال فنال الفريقان ما ينال المحارب ولكن روسيا خذلت وتركت حصونها ومعاقليها.

وفى سنة ١٣٣٤هـ وسنة ١٩٠٦م اختلفت الحكومة العثمانية والدولة الإنكليزية على تعيين حدود مصر وفلسطين ثم اتفقتا على أن يختار كل منهما لجنة تنوب عنها في فض الخلاف فاجتمع الأعضاء وخططوا الأرض وضبطوا الحدود وأصلحو ذات البين.

٨١ - نقود وموازن ومكايل فلسطين :

ما عرفنا حكومة كانت معرضاً تجارياً لبلع بضائع دول أوروبا مثل البلاد العثمانية فإنها كانت مقيدة بسلاسل الامتيازات الأجنبية مغلولة بأغلال المذاهب الدينية حتى لعبت بها الأهواء وطوحته المنازع وقذفت بها من عل إلى درك

(٥) كان أهل المدينة أو القرية يذهبون بعيداً وراء الجنود المجندة فيودعونهم بالبكاء والنحيب وحينما يعودون من غيبتهم يعملون لهم الافراح والولائم والمهرجانات

الاستعمار. ومن الدلائل الواضحة على فوضى الحكومة العثمانية واستعمار أوروبا الاقتصادي لها أنها كانت عاجزة عن نشر نقودها في مملكتها ضعيفة عن توحيدها وترويجها بسعرها القانوني فلذا أخذ يتداولها كل بلد كما يريد وتفاوتت الأسعار وتعددت النقود وتباينت الموازين واختلفت المكاويل وهذا جدول يدلنا على النقدين الليرة الافرنسية والريال المجيدى «التركي» في أسواق فلسطين.

المدينة	الليرة الافرنسية	الريال العثماني «المجيدى»	البشلك
القدس	١٠٩	٢٣	٣
نابلس	١١٨	٢٥	٣ ، ١٣
يافا	١٢٤	٢٦	٣
غزة	٢٢٢	٤٧	٦
لواء عكا	١٠٨	٢٣ ، ١٢	٣ ، ١٦
الناصرة	١٣٠	٢٧	٣

وزد على ذلك أنه كان في بعض القرى أسعار خصوصية للنقود غير داخلية في ما ذكرناه مما يدل على أن الحكومة في واد والناس في وادٍ آخر لا يأترون بأمرها ولا يسيرون سيرها حتى إن الليرة الأفرنسية راجت أكثر من الليرة العثمانية فكان إذا باع أحد دابته أو ساوم على سلعته بليرات انصرف الذهن إلى الليرات الافرنسية ومن أراد غيرها لزم عليه التعيين، وحسبنا شاهداً المتليك الأسود وما أحدثه من الشغب في القدس فإن بعض التجار امتنع عن قبضه فسرى ذلك إلى الجميع ورفضوا استعماله والتداول به فنقصت قيمته ٧٠ في المائة فأدركت الحكومة هذا الخطر الاقتصادي وخشيت تفشيهِ في البلاد الأخرى فتلافتهُ. وضرب اليهود لهم نقداً «تنكة ببارتين ونصف» فراجت بين أهالي القدس وشاعت بين الجميع.

أما المكاويل فليست بأحسن من النقود فإنها مختلفة الحجم متعددة النوع وهي: ثمنية، سدسيه، ربعيه، صاع، طبة، كيل، كيله، مد، مسحة فبعض

البلاد تستعمل بعض هذه الأنواع وبعضها لا يعرفها وقد اتخذت عبارات أخرى والبلاد التي تشترك في مكيال واحد تختلف في كبره وصغره فطبة نابلس ثلاثة عشر رطلاً وثلاث رطل، وطبة القدس ثمانية أرطال وصاع بنى صعب ثلاثة أرطال وصاع بنى زيد ستة ونصف، ثم لكل بلد اصطلاحات واعتبارات أخرى من حيث الكيل في بعضها يهز الصاع ويلبدها ويتفنون في سمله ووطنطته وبعضها يستعمل كيل المرسل^(٥) وكذلك الموازين فإنها متباينة جد التباين فالرطل المشهور في أكثر المدن ١٢ أوقية ولكنه في عكا وبلادها اقلان فقط وامتاز بعض البلدان بأرطال خصوصية لبعض أنواع المبيعات فرطل الدخان ١٦ أوقية والعسل ١٨ واللحم ١٦ أو ١٨ أو ٢١ وغير ذلك وجرة الزيت متفاوتة أيضاً فهي في نابلس غيرها في القدس وفي يافا غيرها في حيفا وعكا وللقري عبارات خاصة فجرة الزيت تتراوح بين سبعة أرطال إلى تسعة و ١٠ و ١١ و ١٦ و ١٨ وهلم جرا فالمسافر الذي يطوف فلسطين يفتقر إلى درس طويل واختبار كبير لمعرفة النقد وأسعاره وفهم الموزونات والمكيلات فكيف به إذا ساح في جميع الأقطار العثمانية.

٨٢ - بعض أسواق فلسطين :

كان للعرب منذ جاهليتهم أسواق ينتجعونها ويرتادونها فيستبضون منها ما يحتاجون ويعرضون ما كانوا مستغنين عنه وهناك كانوا يتطارحون الأشعار ويتناشدونها فإذا ما انقضى زمن الموسم انصرف بعضهم إلى البوادي والنازل واستأنف البعض الآخر السير حيث المواسم الأخرى وقد أخذ سكان فلسطين أسواقهم عن تلك المواسم الكبيرة وقصروها على عرض المبيع فقط «أسواق تجارية» فترى الأقوام يتوافدون إليها من الصباح زرافات زرافات إلى أن تغص بالجماهير الطالبة والعارضة فيجول الشاري ويتردد بين البائعين وينتقى منهم ما يعجبه ويروق له فيسومه ويشتره ثم ينصرفون قبيل العصر وأشهر هذه الأسواق: سوق اللد وتقام يوم الاثنين من كل أسبوع. أسواق الناصرة والرملة وبئر السبع وتقام يوم الأربعاء وسوق بنى صعب وتقام يوم السبت أما أسواق القدس وغزة ومجدل

(٥) بلا هز ولبد بل كما يسم الصاع.

عسقلان ويافا والخليل ونابلس فكلها تقام يوم الجمعة من كل أسبوع فلو اعتنت الحكومة بهذه الأسواق الطبيعية ووسعتها ونشطتها وحولتها إلى معارض تجارية وأدبية لاستفادت منها كثيرًا.

٨٣ - أقسام فلسطين الإدارية :

مر بفلسطين أطوار شتى كانت تنفرد بنفسها أو تقسمها مصر أو سورية ثم لا تلبث أن تنضوى تحت جناح أحدهما أو تنضم سورية ومصر إلى العراق وتصير جميعها كتلة واحدة وقد أشرنا إلى ذلك فيما تقدم أما في القرن التاسع عشر فقد انتاش فلسطين تقلبات إدارية كثيرة نلخصها كما يأتي :

كانت عكا حاضرة فلسطين الإدارية الوحيدة ثم قطعت صيدا قسمًا منها وبعد حين أخذت الشام نابلس وبلادها وظلت البقية تابعة لعكا ثم التحقت جميعها بالشام مركز الحاكم العام «باشا الدورة» أما النظار والمتسلمون «حكام البلاد» فكانوا وظيفيين من فلسطين يحكمون مقاطعاتهم ويجبون الضرائب ويجمعون الجنود ويطوف عليهم «باشا الدورة» فيأخذ منهم ما تعهدوا به. فلما اعتزم السلطان محمود على الإصلاح ألغى فرق الانكشارية^(٥) وأبادهما ومحا الطوائف الأخرى كالسلاحدارية والعلوفجية واستبدل بها فرقًا منظمة وغير العمامة بالطربوش الرومي وتزيبى بالزى الأوروبي وأمر باتخاذ زياً رسمياً وعسكرياً. ثم جاء من بعده من الملوك فأدركوا أنهم غرباء في البلاد العربية وتهجموا على فلسطين فنقوا بعض النظار «أمراء الإقطاع» إلى طرايزون وحولوا النظارات والمتسلميات إلى مديريات على رأسها وظيفيون ثم الغيت المديريات وتجرد المشايخ من الوظائف المحلية الإقطاعية واستولى الأتراك على البلاد فعلموا بتحرير النفوس وطوبوا الأرضين ونظموا إدارة الأمن العام «البوليس والجنדרمة» وأسسوا العدلية فكانت محاكم فلسطين تستأنف الحكم إلى عدلية الشام ثم تحولت إلى عدلية بيروت

(٥) لهم بقية في فلسطين عائلة أبي جعفر في الرملة ويوجد عائلات أخرى في القدس ونابلس وعكا وغيرها

وامتازت القدس فصارت متصرفية مستقلة تخابر الآستانة مباشرة فى الأمور الإدارية وفى ابتداء القرن العشرين تأسس فيها محكمة استئناف فانضم إليها لواء نابلس وظل لواء عكا ملحقا ببيروت.

ومن ثم حكم العثمانيون البلاد بلا واسطة فأرسلوا مأموريهم الأتراك وقبضوا دفعة الإدارة واتصلوا بالشعب ولكنهم تقربوا من أصحاب النفوذ وراعوا امتيازاتهم القديمة لاستمالتهم فتمادوا فى غطرتهم واستعانوا بقوة الحكومة واتخذوها آلة لتنفيذ مآربهم فتسابقوا إلى تقديم الطاعة وترويج أوامر الحكومة ابتغاء الحظوة عند المأمورين وكان يعد سعيداً من كسب ثقتهم وظفر بودهم لأنه يستفيد من صحبتهم بغض أبصارهم عن أعماله مهما كانت فيبطلش ويستبد بالضعاف والفقراء ويغتصب أملاكهم ويمتص دماءهم ويبتز أموالهم ويعلو علواً كبيراً.

٨٤- قيس ويمن وشيء عن الإقطاع :

هذا بحث جليل وددنا لو أن فى الكتاب متسعاً فنفيه حقه ونأتى على تاريخه بالتفصيل ولكن صدر السطور ضيق والموضوع محصور فى فلسطين فلذلك نجمل ما خرج عنها وندمجه فى أخبارها لئلا ينبتر البحث وتضيع الفائدة.

إن هذا الانقسام ظهر بين العرب قبل الإسلام وظل إلى يومنا هذا مصطبغاً بصبغات عديدة وأسماء مترادفة منها: العدنانية والقحطانية والحجازية واليمانية فى الجزيرة والقيسية واليمانية فى جميع الممالك الإسلامية خلا الأناضول وغربها. اليزيكية والجنبلاتية فى لبنان والفقارية والقاسمية فى مصر.

أما أسباب هذا الانقسام، فإن أهل اليمن كانوا يدعون أنهم أشرف وأفضل من سكان الحجاز والحجازيون ينكرون ذلك ويدلون بأفضليتهم عليهم فتمادوا فى المناظرة والمفاخرة حتى أدى ذلك إلى المشاحنة فوشجت النعرة العصبية وتحزب كل قبيل إلى أهله فاشتعلت الحرب الأهلية وتنبهت قرائح الشعراء ففتحوا باباً خاصاً لمديح قومهم وذم خصومهم فجاء الإسلام وهم أحزاب متطاحنة فأنساهم تلك الأحقاد وجب ما قبله وجمع كلمتهم وأشغلهم عما مضى فانطوت الحزازات

والأحقاد ولبوا دعوة الجهاد وطفقوا يفتحون البلدان ويقتسمون الغنائم إلى أن تمهدت الأمور وتبدلت الخلافة بملك فرجعوا إلى شنشتهم الأولى ونبضت العصبية القيسية واليمانية في مرج راهط فاستفزها بنو أمية وعملوا على إحيائها فصاهروا اليمانيين وتعصبوا لهم وكانوا يغزون بهم في البر ويغزون بقيس في البحر فشملخ اليمانيون ونقم القيسيون فاضطر معاوية أن ينصف بينهم ويغزو بهؤلاء سنة في البحر وبأولئك سنة فانتصف القيسية ولكنهم لم يشكروا بنى أمية وجافوهم ولم يوالوهم فأطال شعراؤهم ألسنتهم عليهم وفاخروا ببني هاشم وانبرى إليهم مناظرهم فكانوا يخرجون إلى أسواق البصرة والكوفة ويتفاخرون ويتهاجون فأشعلوا نار العصبية وأججوها في أواخر القرن الأول للهجرة فتغلغل في قصور الأمراء وتخللت دواوين الحكام الذين انحازوا إلى قومهم فأعلوا شأنهم وحطوا من شأن عدوهم فشجر آنذاك الخلاف ونتج نزاع مستمر أسفر عنه ضعف بنى أمية وانقراضها. وقد سرت هذه الروح في الدولة العباسية وما بعدها من الدول فاستعلى الأعاجم وتقدموا والعرب لاهون في قيسيتهم ويمانيتهم التي تمشت في نفوس بنيهم وورثها أحفادهم فكان إذا حدث أو دب في النفس ما يحركها تثور فيصطدم الحزبان ثم تنطفئ وقد زمت الجوانح على فساد.

فلما قدم السلطان سليم العثماني إلى البلاد العربية وفتح مصر-كانت النفوس قد سئمت والعزائم كلت وكاد الناس يتناسون التحزبات-فرغب في مشاهدة حلبة سباق عربية وأمر بتشكيل فرقتين «صابيتين» وترأسهما قاسم وذو الفقار أبناء أحد المماليك وشرعا يلعبان بهزل كما نشاهد سباق الخيل في عصرنا هذا فانتعشت النفوس وجاشت الهمم واختلط المزج بالجد ونشبت بينهم ملحمة كبرى نفضت جميع ما تراكم على هذه النعرة العصبية ورجع الناس إلى شيمتهم وتحزبوا إلى اللون الأحمر شعار القيسية واللون الأبيض شعار اليمانية ونهض رؤساء القبائل القيسية واليمانية فنشطوا وأحيوا أحزابهم حتى أصبحوا-أنى وجدوا وحيث اجتمعوا-لو تعارضت مصالحهم عمدوا إلى القتال وعادوا للعراك وقد ورد في بعض الفتاوى أن شهادة القيسى على اليمنى غير جائزة وشهادة اليمنى على القيسى

غير مقبولة مما يدل على أن العداء السياسى مستأصل فى نفوسهم. وآخر محارباتهم لم يكن عهدها عنا ببعيد.

كانت فلسطين منقسمة إلى مقاطعات وفى كل مقاطعة أمراء ومشايخ يرأسون من ينتسب إليهم من سكان تلك البلاد فكانت العزة والسيطرة والسيادة فى جميع بلاد الساحل والسهل إلى البدو سكان الوبر فبلاد السبع وغزة كانت منقسمة بين العازمة والحناجرة والترابين والत्याها والجبارات. فالعازمة يمانيون ومشايخهم أجداد ابن سعيد وأمراء الترابين عائلة أبى ست وأمراء التياها الهزّيل إلا أن أنساب هذه القبائل غير صريحة فإنها مزيجة من عشائر مختلفة وقبائل متنوعة وفيهم القيسى واليمنى.

أما بلاد الخليل فأكثر سكانها قيسية وأمراؤهم دار عمرو. مركزهم فى دورة وعائلة العزى فى بيت جبرين وأما دار اللحم فإنهم يمنيون. وأمراء اليمنية فى مقاطعة القدس هم دار أبو غوش فى بنى مالك ومركزهم قرية العنب ودار على شيخه فى بنى حسن ومركزهم المالحه ودار عريقات فى الوادية ومركزهم أبو ديس والقرعان فى البيرة والزيادنة «دار الخطيب» فى بيت أكسا والدبونة فى دير دبوان والبيتونى فى بيتونية ودار عقل فى بنى حمار «حمير» ومركزهم نعلين أما أمراء القيسية فدار سمحان من بنى حارث ومركزهم رأس كوكو والعويسات فى بنى عمير ووادى الصرار ومركزهم رأس كوكر والعويسات فى بنى عمير ووادى الصرار ومركزهم البرج والبراغثة فى بنى زيد وبنى مرة وبنى سالم ومركزهم دير غسانه ودار الطويل فى البيرة. ثم كان فى المقاطعات الأخرى أمراء ينضمون إلى هذه الأحزاب سياة ففى ساحل يافا عرب الجرامنة ومقابلهم أبو كشك وفى بنى صعب الجيوسى ومركزهم كور ويقابله البرقاوى فى الشعراويات ومركزه شوفة أما قاسم وريان فكانا يقتسمان بلاد جماعين وجورة عمرة ومركز الأول بيت وزن ومركز الثانى مجدل يابا وفى مشاريق البيتاوى دار الحاج محمد ومركزهم بيت فوريك ويقابلهم بنو شمس فى بيتا أماغور الفارعة فكانت تقسمه عرب المسعودى والفاعور وكان أمير نصف بلاد جنين «مشاريق الجرار» جرّار وهو قيسى ومركزه صانور ومناظره الأمير الحارثى فى بلاد حارثة وقبره فى جنين فلما انقرضت ذريته خلفه دار طوقان ونازعوا جرار السيادة وبعد أن جاء إبراهيم باشا استعلى

دار عبد الهادي «قيسية» وشطروا البلاد فانضم اليهم حزب كبير. وهم وجرار من فصيلة واحدة. وكان أمراء غور بيسان عرب الغزاوية والصقر وفي ساحل حيفا دار ماضي وبجانبيهم أهالي صبارين ودار الشبلى فى طيرة حيفا أما فى بلاد عكا فكانوا عرب الحواسى «الهنادى» ومركزهم غاية شفا عمرو ولم يكن لغيرهم هناك عصبية قوية مجتمعة ولا عائلات كبيرة بل كلما عظم شأن رجل انساق إليه حزب وسيطر على ما جاوره.

هكذا كانت تقسم البلاد وهؤلاء هم زعماء الأحزاب فكان إذا شجر خلاف داخل فى منطقة واحدة انضم أبناء الحزب إلى بعضهم بعضاً وقاوموا الحزب الآخر ومن أحس فى نفسه الضعف استمد من الحزب المجاور له واستنصر بنى قومه على عدوه وقد تفاقم الخطب فى القرن التاسع عشر وتنازع الحزبان فما كان أحدهم يجرؤ على المرور ببلاد الآخر معلناً شعار قومه. فكان إذا خطب اليمانية عروساً قيسية لا يذهبون إلى جلبها إلا «بفاردة» جمع كبير مسلح ولا يجوز لهم أن يرفعوا أعلاماً بيضاء أو يلبسوا العروس (هدماً) بيضاء «شعار اليمينيين» حتى إنهم لو أخذوا عروساً يمنية من بلاد يمانية فلا يسمح لهم أن تحتاز البلاد القيسية وهى لابسة البياض وإن امتنع أصحاب العرس عن ذلك يعلن الحرب ويستطير الشر وكذلك القيسية فإنهم كانوا مجبورين على اتباع هذا العرف ولا ينكرون على البلاد سيادتها وعاداتها فإن من يرفع شعاره فى بلاد جاز له أن يتصرف بها.

وآخر حرب نشبت بين قيس ويمن الحرب التى وقعت فى قرية خريثة. وقد أخذت هذه العادة فى الخفاء والانمحاء فلا يمضى عليها فترة من الدهر إلا وتنسى ولا يدرى الرجل أهو قيسى أم يمانى.

٨٥ - الحرية فى فلسطين :

تكونت الدولة العثمانية بقوة السلاح وبنيت على الحروب وأغفلت كل شىء فتقدمهم من كان متأخراً عنهم وعلاهم من كان دونهم، فحاول السلطان محمود الإصلاح فلم يتوفق تماماً ولكنه أزاح عن أعين المفكرين نقاباً وجاء من بعده

السلطان عبد المجيد فنشر خط كلخانة سنة ١٢٥٥ هـ وسنة ١٨٣٩ م ونظم القوانين والمحاكم والإدارة الملكية وغيره ذلك مما تتطلبه الحضارة ويلتزم حالة الأمة إلا أن إرادة السلطان كانت فوق كل قانون فجاء مدحت باشا بطل الحرية وأبو الدستور ورئيس أحرار العثمانيين وتعهد للسلطان عبد الحميد قبل أن يجلس على العرش أن يمهد له السبل ليكون سلطاناً بشرط أن يمنح الدستور للأمة ويتمتع البلاد العثمانية بالحرية فوعده بتنفيذ ذلك ولما بويغ عبد الحميد بالسلطنة أعلن الحرية ونشر القانون الأساسى وأمر بانتخاب نواب عن جميع البلاد فذهب عن القدس العلامة الكبير يوسف ضيا باشا الخالدى وفتح المجلس سنة ١٢٩٤ هـ ولكن لم يطب لعبد الحميد هذا العمل وشعر أنه مقيد ففضه وأغلقه سنة ١٢٩٥ هـ وشرذ الأحرار وطردهم ونفاهم وبطش بالمتنورين وساس البلاد بالاستبداد والإرهاب فأكبر ذلك الشبيبة العثمانية الراقية وأبوا أن يخضعوا لسلطة رجل غشوم فعملوا سراً وعلناً وفازوا بأمنيتهم فأعلنوا الحرية مرة ثانية فى عهد هذا السلطان وضبطوا الأمور حذرين من خداع المستبدين واستمالوا الجيش العسكرى واحتلوا المراكز المهمة فأذاعوا الحرية فى طول البلاد وعرضها وكتمت فى القدس حتى جهر بها الحاج راغب أفندى الخالدى والمرحوم حسين أفندى سليم الحسينى وكان شعار الناس قاطبة حرية عدالة مساواة فكثرت الفساد وعم التعدى وضعفت الإدارة الملكية وسادت الفوضى وَصَوِّلَتْ هَيْبَةُ الْحُكُومَةِ وَطَمَحَ النَّاسُ إِلَى احْتِقَارِ الْحُكَّامِ وَجَهِلُوا مَعْنَى الْحَرِيَّةِ فَظَنُّوْهَا الْاِسْتِرَاكِيَّةَ أَوْ الْفَوْضَوِيَّةَ فَكَانَ الرَّجُلُ يَنْهَبُ مَالَ غَيْرِهِ وَيَسْتَبِدُّ بِالضَّعِيفِ وَإِذَا عَنَفْتَهُ أَوْ زَجَرْتَهُ قَالَ حَرِيَّةَ مَسَاوَاةٍ.

ثم أمر بانتخاب نواب من البلاد فذهب عن لواء القدس المرحوم روحى بك الخالدى^(٥) وسعيد أفندى الحسينى وحافظ بك السعيد (يافا) وعن لواء نابلس الشيخ أحمد أفندى الخماش وعن لواء عكا الشيخ أسعد أفندى شقير وفتح المجلس وبعد حين باغتهم السلطان عبد الحميد وقتك بالأحرار وأعلن ثورة ضدهم

(٥) كان من علماء الأمة العربية وفضلائها تقلد فى مناصب عالية، وله مؤلفات جليلة بعضها طبع والبعض الآخر جاهز للطبع.

باسم الدين وحاول القضاء على الروح الجديدة فدامه محمود شوكت باشا الفاروقى واحتل الاستانة فاجتمع النواب وقرروا خلع السلطان سنة ١٣٢٥ هـ وسنة ١٩٠٨م وأمنوا شر الطاغية الكبرى وجعلوا مكانه محمد رشاد الخامس وهناك تكبر الاتحاديون وتولوا إدارة البلاد فقال بعضهم باستتراك العناصر الأخرى أو إبادتهم ولعبت الأيدى الأجنبية فهبّ رجال العرب وانضم إليهم معتدلو الأتراك فأسسوا حزب الائتلاف وزاحموا الاتحاديين وحاولوا أن يكثروهم فى المجلس فطافوا البلاد وخطبوا فلم ينجحوا وذهب عن القدس ثانية روى بك الخالدى وعثمان أفندى النشاشيبي وأحمد عارف الحسينى (غزة) وعن نابلس حيدر بك طوقان وعن عكا الشيخ الشقيرى فلم تطل مدتهم وحل المجلس وأعيد الانتخاب ثالثة فحاز الأكثرية عن القدس راغب بك النشاشيبي وسعيد أفندى أفندى الحسينى وفيضى أفندى العلمى وعن نابلس توفيق أفندى حماد وأمين بك عبد الهادى وعن عكا عبد الفتاح أفندى السعدى. فتنه العرب وأدركوا أنهم مغلوبون على أمرهم والأتراك مسيطرون عليهم فلم يطمئنوا ولم يرضوا عن هذا الجور فهب أهالى سورية مطالبين بالإصلاح على قاعدة اللامركزية أى استقلال داخلى إلى جميع بلاد العرب وجهر بعض النواب والوجهاء بأمنيتهم ونادى طلاب مدارس الآستانة بهذه الدعوة وعقدوا الاجتماعات وأسسوا النوادى والجرائد والمجلات ليدافعوا عن قضيتهم ثم عقدوا مؤتمراً عاماً فى باريس تداولوا فيه أبحاثاً هامة وقرروا قرارات خطيرة وبثوا دعائهم فى سائر الأقطار والأمصار فكان داعيتهم فى القدس أبو حسين النشاشيبي فأشبع روح الشباب بتعاليمه الوطنية حتى عالنوا الحكومة بأمانيتهم وجاهروا ونقموا سياسة الأتراك ووجهوا نظرهم نحو الجزيرة وعلقوا آمالهم بمنقذ العرب السلطان حسين الهاشمى فاستوحشت منهم الحكومة العثمانية وترضتهم وهادنتهم واعترمت على أن تحدث تغييراً فى قوانين وشكل إدارة البلاد العربية وقد نال بعض رجال العرب مناصب عالية وأمرت الحكومة أن تكون اللغة العربية رسمية فى البلاد التى يكون أكثرها عرباً. وبينما هم يستخلصون حقوقهم تدريجياً فاجأتهم الحرب العامة فأخمدت الجذوة العربية المتقدة فى الصدور والأنوف الحمية.

٨٦ - ثورة حوران والكرك :

أشرفت الحرية في البلاد العثمانية فشملت السكان نشوة طيش وتاقت نفوس الاتحاديين إلى تجديد دولتهم في سنة واحدة ليضارعوا دول أوروبا العظمى وكادوا يدركون غايتهم لو سلموا من الدسائس الأجنبية وحكموا العقل قليلا ولكنهم تهوروا وكلفوا البلاد فوق طاقتها فطاليوا البدو بتقييد نفوسهم وإجبارهم على التجنيد وأكروهم على دفع الضرائب تماماً فاستاء لذلك دروز حوران وشمخوا وتعالوا ونبذوا الأوامر وعصوا الأحكام فانقض عليهم سامى باشا الفاروقى كالصاعقة أدهم وأخضعهم ونفى زعيمهم وطرده قادتهم وشيوخهم فاذعنوا مسلمين وسلموا طائعين. وبلغه أن أهالى الكرك قد امتنعوا عن تعداد النفوس وفتكوا بالمأمورين بتحريض عائلة المجالى فزحف إليهم واجتاز شرقى الأردن وأدخلهم فى الطاعة وكتب نفوسهم وعد أغنامهم ونفى زعيمهم توفيق بك المجالى وجعل أرضهم بلاداً عثمانية فعلا وقسا عليهم ونكل بمن تعدى على المأمورين واستهان بأوامر الحكومة الرسمية ثم عاد راجعاً. وقد حدث فى هذه الفترة أن اكتسحت النمسا بلاد البوسنة والهرسك وانقضت إيطاليا على طرابلس الغرب فاعترضها السنوسى وانضم إليه زمرة من أبطال الاتحاديين فأتعبوها وأشجوها.

واجتمعت دول البلقان وحاربوا الدولة العثمانية فهزموها واغتصبوا بلادها المأهولة بالأتراك والعناصر الأخرى وهوت الدولة التركية من شامخ مجدداً.

الفصل الخامس عشر

٨٧ - الحرب العظمى فى فلسطين :

هبت عاصفة على العالم فهزمت الشرق والغرب وخطفت العقول والنهى وسلبت الألباب والحجى فأصبح المفكرون خاضعين للعاطفة الحيوانية قَرَمِينَ لسفك الدماء فأعلنت دول أوروبا الكبرى الحرب العظمى والتزمت الدولة التركية الحياد إلا أنها نظمت دوائر الرديف وحولتها إلى شعب عسكر ووزعت على جميع القرى مغلفات كبيرة مغلقة وأمرت المخاتير ألا يفوضوا إلا متى آذنتهم وفى ٢٨ تموز سنة ١٩١٤م استطار الشر فى الغرب وأعلنت النمسا الحرب على الصرب ودخلت ألمانيا لوكسمبورج وأنذرت البلجيكيك فى ٢ آب سنة ١٩١٤م وفى ٤ منه أنذرت إنكلترا ألمانيا ثم أعلنت عليها الحرب وفى ٦ منه أعلنت النمسا الحرب على روسيا وفى ١٠ منه أعلنت فرنسا الحرب على ألمانيا وفى ١٢ منه أعلنت إنكلترا الحرب على النمسا وفى ١٣ منه أعلنته فرنسا على النمسا وفى ٢٠ منه احتل الألمان بروكسل عاصمة البلجيكيك وفى ٦ أيلول سنة ١٩١٤م اجتازوا المارن.

وهناك أمرت الحكومة العثمانية بالنفير العام «سفر برك» وجمعت كافة جنودها المعلمين وساقطتهم إلى البلاد ذوات المياه وسلمتهم سلاحاً وأخذت تُمرّنهم على الأصول العسكرية الألمانى وشكلت لجائاً لجمع التكاليف الحربية والمبايعات وأمرتها بمصادرة جميع ما يلزم الحكومة ويوجد عند الأهالى من لباس ومأكول وحيوان ركوب أو عربة نقل فأخفى الأهلون سلهم وقطعت عن البلاد الواردات الخارجية فتصاعدت الأسعار ودخل السكان فى أزمة لم يكونوا يتوقعونها من قبل فكنا نرى الحالة حالة حرب لكن الحكومة العثمانية كانت متحايدة حتى أتاها نبأ من السر ادورد غرى وزير خارجية إنكلترا أنه أخذ البارجة «السلطان عثمان»

التي تعمل لحسابهم فى مصانع ارمسترنغ الإنكليزية فأكدت له تركيا أنها تنوى المحافظة على الحياد التام وما غرضهم من تعبئة الجيش إلا ليكونوا مستعدين للمفاجآت والطوارئ^(٨)، فأجاب غرى أنهم مضطرون لإبقاء جميع البوارج فى مياهم وسيعوضون الأتراك ما لحقهم من الخسارة. وفى ١٠ منه دخل الطرادان الألمانيان غوين وبرسلو الدردنيل فقبلتهما الحكومة العثمانية وأعلنت فى اليوم التالى أنها ابتاعتهما. وفى ١٦ منه أبلغت دول الاتفاق الحكومة أنهن يحافظن على استقلالها وسلامة أملاكها من طمع كل عدو إذا بقيت معتصمة بالحياد مدة الحرب وفى ٩ أيلول و ١٨ شوال سنة ١٣٣٢هـ ألغت الدولة العثمانية الامتيازات الأجنبية فاستنكر هذا العمل جميع الدول حتى ألمانيا والنمسا وتحول الدردنيل والآستانة والبسفور بسرعة إلى منطقة ألمانية يسيطر عليها الألمان الذين خلقوا الأسلوب الفنى لجر الحكومة العثمانية إلى الحرب وأوعزوا إلى السفارات التركية فسقطت ثلاث منها فى ٢٧ تشرين الأول على ميناء أوديسا وأغرقت سفينة وعطلت باخرة أفرنسية فغضب السفراء وقطعوا علائقهم من الآستانة وطلبوا جوازات السفر حالاً ففاز بعض الاتحاديين بأمنيتهن لاسيما أن جيشهم المدرب قد بلغ مجموعه نصف مليون جندي مسلح وربع مليون فى معسكرات التدريب فأعلنوا الجهاد العام وضربوا الطبل وامتشقوا الحسام. وانقسمت ساحات الحرب فى البلاد إلى أربعة مواضع (١) الدردنيل (٢) القفقاس (٣) العراق (٤) الحجاز وفلسطين. وإنا نترك الأقسام الثلاثة لبعدها عن موضوعنا ونتكلم عن فلسطين والثورة العربية الفتية.

تعين أحمد جمال باشا ناظر حربية الأتراك قائداً عاماً إلى البلاد العربية وكان تحت إمرته الفيلق الرابع والجيش الثامن وهو مؤلف من ٤٠ ألف مقاتل فتأخر جمال باشا برهة وجاء البيكباشى ممتاز بك^(٩) «قائد ألف» فحشد من قبائل بدو

(٨) كان الصدر الأعظم العثماني مصرّاً على التزام الحياد ويؤكد كل يوم لسفراء الدول أنه لا يغير بامته أما وزير الحربية أنور باشا وحزبه فكان همهم حمل قومهم على الانضمام إلى ألمانيا.

(٩) ياور أنور باشا اقتداء بموسى بن نصير لما أرسل مولاة طارق بن زياد إلى الأندلس وفتحها.

السبع آلفين ما بين فرسان وركبان ومشاة واخترق الصحراء الجرداء الخالية من البشر لأن الإنكليز تراجعوا إلى ما وراء القنال ثم ورد أشرف بك^(١) ومعه لقيف من الأفغان والجركسي والمغاربة ومتهوسى الوطنية وكان مستشارة الألماني هلد نغورف وبيده أمر من أنور باشا بإعطائه ما يريد ثم التحق بممتاز وأوقعوا بطلان الإنكليز وناوشوهم مرات فلم يحلوا منهم بطائل.

وكانت الأوامر صادرة بتأسيس مداخل الرزاق «أنابر» وبناء المؤسسات العسكرية وحفر الآبار وجر المياه وتعمير الطرقات وتشكيل «أقوال» قوافل الجمال وغير ذلك نخص كلاً من هذه المواضيع بكلمة على حدة.

٨٨ - التموين «مداخل الرزاق» :

قبل أن تقدم الدولة العثمانية على الحرب أخبرت الأمة بإعلان النفير العام وكانت تتوقع العصيان فاطاعها الأهليون ولبوا نداءها فسرت وعينت قومسيونات «لجاناً» لجمع الذخيرة فصاروا يطوفون الحوانيت ويأخذون منها ما أرادوا ويجمعون الحيوانات والدواب والرزاق ويقدرون الأثمان ويعطون لأصحاب السلع سندات بقيمتها حتى كثرت لديهم الرزاق فأمرؤا بتأسيس مداخل لها فى كل محل وجعلوا المدخر العام فى بئر السبع فكان لا يخلو مركز عسكرى أو ملكى من أنبار ثم توسعوا فانشأوها فى الصحراء ونشروها من شمال البلاد إلى قرب قنال السويس.

٨٩ - وسائل النقل «النقلات» :

تكذست الرزاق فى مخازن الدولة فاحتاجت إلى ما ينقلها ويوصلها إلى الصحراء حيث الجبهة الحربية وأنى يتم لها ذلك ولا طرق عربات ولا خطط حديدية تشبك بها البلاد وتتصل بها الصحراء فاحتاطت لتدارك هذا النقص وجمعت ما يربو على ٤٠ ألف جمل غير عجلات النقل وطابور الحمير والبغال

(١) جركسى الأصل ورئيس عصابة فى البلقان ومن أبطال الثورة الأنورية والإنقلاب العثمانى وكان مدرس عصابته الجلد.

والحمالة^(٥) وقسمتها إلى شعب وطوابير وأقوال مرتبطة ببعضها البعض وربطتها بمفتش ورقيب ألماني فكانت تسير هذه القوافل من أقصى بلدان فلسطين إلى جوف الصحراء محملة بالأرزاق والآلات فلم تف بالحاجة واضطرت الحكومة إلى مقابلة المتعهدين لإتمام هذا النقص فقصرت همتها عن إيصال المنقولات في حينها إلى محتاجيها وقد نكبت بموت كثير من جمالها لإهمال الضباط وقلة اعتناء الأفراد بها فكنا نرى أشلاء الجيف ورممها مطروحة على جوانب الطرق متعاطفة على بعضها بعضاً. هنالك أمرت بمد الطرق الحديدية وتمهيد سكك العربات وحصرت مهمة الجمال في توزيع الأرزاق على الجنود داخل الصحراء وورد عليها «أوتوموبيلات» ألمانية ونمساوية ولكن بعد فوات الوقت.

٩٠ - تعبيد الطرق «العمليات» :

عجزت الحكومة بواسطة الجمال أن توصل الأرزاق والمعدات الحربية إلى الجند في وقت الحاجة إليها فأمرت بإنشاء الطرق وجمعت ضعفاء الجنود والعجزة الذين لم يتمكنوا ولم يتدربوا على حمل السلاح «سلاحسز» وأطلقت سجناء القدس وشكلت منهم طوابير «فرق عمال» وجهزتهم بما يلزم من الأدوات والآلات وأمرت عليهم الضباط المتقاعدين وجعلت بعضهم لتعبيد طرق العربات وبعضهم لد السكك الحديدية «والده قويل» وإنشاء المؤسسات فمدوا طريق القطار من العفولة إلى بيرين جنوبى الحفير يقطعها الراكب في ثمانية أيام. وأوصلوا طرق العربات بكل مركز عسكري أو نقطة حربية وداومت عملها حتى سئم الجنود وفروا فأجبرت الحكومة أهل القرى على تقديم عمال إليها وكانت تراقبهم بضباطها فنظمت جميع ذلك وهى على وشك الوداع.

٩١ - المؤسسات «الإنشاءات» :

لما كانت ساحة فلسطين الحربية منحصرة فى الصحراء الخالية من الموارد الطبيعية كالغذاء والمياه والبناء عزمت الحكومة العثمانية على إيجاد هذه الأشياء

(٥) أشخاص يحملون الأرزاق والأشياء من القدس إلى الخليل والسبغ.

فحفرت الآبار وجرت المياه في القساطل «الأنابيب» إلى مسافات بعيدة وبنت أحواضاً لسقى الحيوانات وصنابير «حنفيات» للشرب وبنوا المستشفيات ومستودعات الأرزاق ومحطات للسكك الحديدية وللبريد والبرق^(٥) ومحلات للضباط. واستغنوا عن كل هذا في المدن فتبسطت واستولت على جميع المؤسسات الأجنبية وامتلكتها واستعملتها لما يلزمها فأخذت نوتردام والمسكوبية والدومنيكان ومدارس الفرير والمطران والصلاحية. وأسسوا دار الصناعة والإصلاح «معامل» فكان إذا ما تخرّب شيء يعمر حالاً أو يعطى عوضه وقد اكتسب الأتراك من الألمان جرأة فعبثوا بأوروبا واقتضوا هيبته واحتقروا عهودها وداسوا معامداتها وعاملوا دولها معاملة النظير للنظير.

٩٢ - البعثة الألمانية العسكرية :

تسلل بعض ضباط الألمان وتجنّد من كان في سورية وانخرطوا في الجيش العثماني فرأبنا أمرهم وانتظرنا العقبى وسرعان ما رأيناهم قد انضموا إلى قائد الحدود فون كريس Kress von Kresstein فأعطى كلاً منهم العمل الذي يصلح له وفتح الخواجه «فاست» مطاعم ومنازل خصوصية لهم يأوون إليها. فلما اتصل الألمان بالأتراك أرسلوا حملات نمساوية وألمانية مؤلفة من طوابير «قطع عسكرية» وفيهم الطيارون والمدفعيون والمشاة وسائقو «الأتوموبيلات» فاستقبلهم القائد العام «فون كريس» وحاشيته بحفاوة وخطب فيهم على محطة بئر السبع فقال :

أسمها الأبطال ! أنتم أبناء من احتلوا باريس وشهدوا موقعة سيدان أنتم بأنفسكم قد اخترقتم قلاع البلجيك ودككتم حصونها وتغلغلتم في أقاليم فرنسا ومزقتم جيش روسيا أنتم الذين جرعتكم جميع أعدائكم الهوان وها أنا قد أتيت بكم لأنفذ بعزمكم الألماني في شريان إنكلترا عدوة الإنسانية ولتنزعوا من يدها القنال وتشفروا البشرية المتألمة من ظلم واستعمال إنكلترا .. إلخ.

(٥) كثرت في هذه الحرب أسلاك البرق والتلفون والتلغراف اللاسلكي.

ثم ساروا وقد أعد لهم مخيماً فاخراً فكانوا ينامون على سرر ويأكلون طيب الطعام وأعذب الشراب وكانوا أنى ذمبوا يصحبهم الرخاء وأنى ساروا يوفر إليهم خير المأكّل فطمعوا واستطالوا على الأتراك واحتقروهم فحدثت نفرة بين الفريقين كادت تقضى إلى سوء العقبي فأسس الأتراك جمعية فى بئر السبع غايتها مقاومة النفوذ الألماني فكبحوا جماحهم وخففوا من غلوائهم وظلت الفرق الألمانية والنمساوية تصحب الجيش التركى حتى الانهزام الأخير.

٩٣ - الجراد :

لم يكف الناس ما حل بهم من البلايا حتى فاض عليهم طوفان من الجراد فأكل الزرع والأثمار ورعى المشب وقشر الأشجار ثم غرس فى الأرض وباض وفرخ فاستعد السكان لدفعه وقاوموه ولكن حاولوا عبثاً فانتشر ثانية زاحفاً على الأرض وطائراً فى الفضاء لا يأتى على شيء إلا ذهب به ففزعّت الحكومة وعينت جنوداً ومأمورين ملكيين لتلافي ضرره وكلفوا أهل البلاد بإتلافه فعجزوا عن رد غائلته وفى الحقيقة أن من كان يراه سابحاً على الأرض يتوهم أنها مادت به أو أن هنالك بحراً رجراجاً فتضعضت الحالة الاقتصادية وساءت الحركة التجارية فزاد الغلاء واشتد الفقر وتحطت الأرض وقاسى الفقير الويل والعذاب.

٩٤ - الحركة الاقتصادية :

أعلن النفير العام فانقطعت الواردات الخارجية وغلت أيدى أهالى فلسطين ودخلوا فى الجندية فأهملت الأرض وقلت الحاصلات لاسيما أن الحكومة أخذت تجبى ضرائبها عيئاً فتأخذ من الغلال حصتها وتشتري ثلاثة أضعافها وزاد على ذلك ظلم المأمورين وتقديرهم الكمية بأكثر مما هى ولم تقف أيضاً عند هذا الحد بل صادرت جميع الحاصلات وعينت لكل فرد من الأهالى مؤونته وبذاره فقط واحتكرت البقية فسّم الزارع ومل الصانع وفرغ حانوت التاجر فعمت الظامة وجلت المصيبة وارتفعت الأسعار أربعة أضعافها وتعددت حوانيت بيع الأثاث المستعمل Second hand فصار كل محتاج يعرض ما لديه ليبيعه بثمن بخس يشتري به قوتاً لعائلته الجائعة وعظمت الرزايا بهبوط أسعار الورق النقدي

فإن الليرة العثمانية نزلت إلى ١٨ قرشاً ومع دناة سعرها ورخصه فإنها كانت في جبهة الأسد «وبها تقضى الحاجات».

٩٥ - الصحة العمومية :

قلما تحدث حرب إلا ويصحبها الوباء والعلّة فيقل الغذاء ويفسد الجو والصعيد فتنتشر الميكروبات وتكون الأجسام قد ضعفت عن مقاومتها فتتفشى الأمراض وتفتك الأدوية كما شاهدناه أثناء الحرب. فقد احتاطت الحكومة لمنع وقوع هذا العارض وأسست طوابير تنظيفات «كناسة» وأكثر من الأطباء والصيدالة وأنطت بهم مراقبة الأمور الصحية فهجمت الحميات والأمراض السارية وانتشرت الدسنتاريا والكوليرا والتيفوس والتيفوئيد فحصدت النفوس ونهبت الأعمار وكنا لا نرى غير وجوه شاحبة وأجسام ضعيفة منهوكة القوى.

٩٦ - الأخلاق العمومية :

في خلال هذا الحرب رأينا من فساد أخلاق بعض الشرقيين ما زهدنا في الحياة فإنهم نحروا الفضيلة وأقاموا الرذيلة وتبدّلوا مفتخرين بالعيوب والمساوى فسخط الفضلاء ظانين أن هذا المرض سرى بين بنى قومهم فلم يتعدهم ولم يتجاوز سواهم. فلما أتت الجنود الألمانية والنمساوية وجدناهم أحط منا وأجرؤ على ارتكاب الموبقات فحولنا ومقتنا أعمالهم وأخلاقهم المنحطة وسلوكهم الحيوانى وتوهمنا أن المرض التركى تمشى فى مفاصلهم وتسرب إلى آدابهم فلما قدمت الجيوش الإنكليزية المزينة من عناصر الأرض وجدناها أدنى وأحط فلا عيب تتوقاه ولا حرام تأباه فعلمنا أن الحرب مفسدة الأخلاق وأى حرب أعظم من هذا لاسيما أن سكان المدن ومن جاوروا معسكرات الجنود كانوا أكثر فساداً من سكان القرى البعيدة عنهم.

٩٧ - الديوان العرفى :

أعلنت الحكومة العثمانية الحرب وأمرت بتطبيق الأحكام العرفية فى جميع أقطار مملكتها فكان الديوان مؤلفاً من مجلسين: هيئة تحقيقية «اتهام» ومحكمة

عرفية فاتخذوا مركزه في القدس بيت القسيس سايكس قبالة الكنيسة العربية. فكان جحيم المحاكم وبلية البشر. أعضاؤه ضباط عسكريون تربوا على سفح الدماء فهان عليهم القتل وسهل لديهم احتقار البشرية وآلامها. في حكمه القضاء المبرم والموت العاجل فإذا سيق المتهم إلى الهيئة التحقيقية استنطقه الضرب بالسوط والكي بالنار والتعذيب الشديد فيعترف بالجرم المنسوب إليه وإن لم يكن فاعلاً لأن الموت العاجل أخف من العذاب المتطاوّل فيكتبون إقراره رسمياً ويعتبرونه شرعياً ويحولونه بأوراقه إلى المحكمة العرفية فإن خالف قوله الأول نزلوا عليه بالسياط وإن قبله تحكم عليه بأقصى درجات العقاب وتحول قرار الحكم إلى الحاكم المطلق جمال باشا السفاح^(١) الذي يفعل ما يشاء ويختار ما يريد فيبرمه بلا تردد وكم من ذنوب ارتكبوها وخطايا اقترفوها ابتغاء مرضاة السياسة فإنهم اغتبنوا هذه الفرصة وأخذوا يطبقون سياسة العنف والقسر فأبعدوا الفرق العربية والجنود السورية عن بلادهم ونقلوها إلى غاليسيا والدردنيل والعراق واستبدلوهما بأتراك وألمان ونمساويين وتمردوا وجاروا فأمر جمال بمحاكمة أعضاء مؤتمر باريس ومن اشتبه بهم من فتيان العرب الناهضين وشبابهم المتنورين فنفي البعض وساق البعض إلى عالية وحاكموهم وحكموا على كثير منهم بالإعدام فتشفع فيهم جلالة الملك حسين وطلب العفو عنهم فردت شفاعته ونفذ فيهم الحكم فاحتقدوا وثأر لهم قائلاً:

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دماً

٩٨ - الثورة العربية :

كتم جلالة الملك حسين غضبه وغيظه واستدعى الفرقة المتطوعة^(٢) التي قدمها لجمال باشا بحجة أن يستبدلها بغيرها ودعا إليه ابنه فيصلاً وقطع علاقته مع الأتراك وأصغى إلى مفاوضة الحلفاء الذين قطعوا له عهداً ومواثيق باستقلال

(١) في سنة ١٩١٧م ضيقت سلطته وصار جرم الإعدام لا ينفذ ما لم يصدق عليه الخليفة.

(٢) كانوا يلبسون البسة بيضاء وكفافي حمراً وهم أربعة آلاف شخص صادموا الجيش الإنكليزي وكانوا ينشدون أهانيجهم العربية ولا يتقيدون بنظام في الحروب.

جميع البلاد العربية فأعلن الثورة وعضده قساورة الحجاز وعرب الحويطات فما كاد يبلغ هذا الخبر مسامع العرب حتى انسحبوا من صفوف الأتراك والتحقوا بهم ولم يبق منهم إلا من سدت في وجهه الطرق فانتقلت الثغور وتعطلت الإدارة والتحق قسم كبير من الضباط والأفراد بجيش الأمير فيصل وقتلوا وظلوا يتكاثرون إلى أن ضخم الجيش وسرت الشعلة إلى كل الجهات فاعترف أكبر قائد في فلسطين بقوله إن أهالي البلاد العربية أشد عداوة لنا من الإنكليز.

٩٩ - الحملات الحربية :

كان يجب أن نقدم هذا البحث على غيره لما له من الأهمية ولكننا فضلنا أن نمهده بمعداته الأولية ليتنبه القارئ أن النصر لا يكون بكثرة الجنود فقط بل بما يلزم لها من الذخائر والوسائط النقلية والتغذية والاعتناء الصحي والفن العسكري

أعلن الأتراك النفي العام وهم بين عاملين التزام الحياء أو دخول الحرب فنزال بهم أنور باشا وحزبه حتى حملهم على اقتحامها فعصدوا الألمان آملين أن يكون لهم النصر فيسترجعوا أمبراطوريتهم العظمى فاستسلموا لهم وولهم الأعمال وإدارة الأمور فسيظروا عليهم حتى إن جمال باشا بعظمته كان يخشى فون كريس ولم يستطع أن يرد له طلباً فلما اجتمع القواد للمذاكرة أصر على مهاجمة القنال بقوة كبيرة لاعتقاده أنه يدخل مصر بسهولة بناء على استكشافاته أن قوة الإنكليز كانت ضعيفة فخالقه سعد الله بك رئيس أركان حرب جمال باشا وكان رأيه أن يرسل بضعة طوابير لشاغلة الإنكليز ومساجلتهم فقط لأنه يرى أن اختراق الصحراء بجيش كبير لا يرجى منه نفع فاستشاط فون كريس غضبا وأرغم جمال باشا على اتباع رأيه ونفذ سعد الله وقوله وفصله من القيادة العامة ثم زحف بقوة مؤننة من ثلاثين ألف جندي مسلح وكان وراءهم فرقة أزمر اامتازة فوصلوا القنال وكشفوه وبعد معركة قليلة فشل العثمانيون وعادوا أدراجهم ولكن «فون كريس» بقي مخدماً في «الابن» يتردد على جميع مراكز الصحراء ويخبر على الإنكليز

ويشأغلهم بأربعة طوابير فقط وقد استدرج الإنكليز مرة وأوقع بهم فى قطية وأسرو منهم أميرالاي وضباطاً وجنوداً ولكنه لم يعق سيرهم فتقدموا بطريقهم الحديدية ومياهم النيلية إلى أن بلغوا العريش واحتلوها وأخرجوا الأتراك من الصحراء وانقضوا على غزة فكادوا يمتلكونها ثم خسروا الموقعة واستطال العراك فلم يظفروا بحاميتهما وثبتت أمامهم فالتفوا حول جناح الأتراك الأيسر «السبع» وعطفوا عليه فانسحب إلى الورا وتراجعت القوات إلى الشلالة ثم وادى الصرار وهناك انشطرت إلى شقين أحدهما ارتد لحماية القدس والآخر ساح فى سهول طولكرم فتعقب الإنكليز الشق الأول وأوقعوا به فى بيت عور والنبي صمويل وحصروا القدس ودخلوها فى ٩ كانون أول سنة ١٩١٧م وظلوا يدحرون فلول الجيش إلى أن رسخ على خط متعرج فخذق الإنكليز أمامهم من السلط إلى سنجل ودير غسانه ومجدل يابا وحرم على بن عليم وطال بالمقاتلين المقام وهم فى سجال حتى اخترق فرسان الإنكليز خط طولكرم واكتسحوا الجيس التركى وأسروا أكثره وقابلهم الجيش العربى فى ذرعا فاشترك معهم وهجموا على سورية يطاردون الأتراك فأخرجوهم من البلاد العربية وتولى الإدارة فى سورية جلالة الملك فيصل وفى الساحل فرنسا وفى فلسطين إنكلترا.

انحسر الأتراك عن بلادنا ولم يتركوا لنا شيئاً من المدنية. حكمونا ٤٠٠ سنة فأين ثكناتهم العسكرية؟ وأين طرقهم العمرانية؟ أين مدارسهم ومعاهدهم العملية؟ أين آثارهم الفنية وإصلاحاتهم المدنية؟ لا شئ من هذا.

سلم الأتراك للحلفاء مطالبهم ف عقدوا المؤتمرات وحكموا عليهم فى مؤتمر سيفروسان ريمو وفرساي بنزع جميع أملاكهم فى أوروبا وإعطائها لليونان وتكون الأستانة والمضايق تحت مراقبة الحلفاء ومنطقة أزمير لليونان وأصاليا لإيطاليا وكليكييا لفرنسا وسلخت عنها جميع جزر الأرخبيل وسائر البلاد العربية والكردية والارمنية وأجبرت تركيا على التنازل عن جميع حقوقها فى كل بلادها المحتلة من إنكلترا وفرنسا وإيطاليا وقبلوا ذلك إلا أن البطل التركى مصطفى كمال باشا

أبى أن يقر الذل فى أمته وانسحب إلى الأناضول والتف حوله خيرة قومه وأصبح جيشه على قوة مدهشة وساعدته السياسة على ذلك فاخرج إيطاليا من أضرابها وفرنسا من كليكييا وحارب اليونان وقذف بهم فى اليم واحتل الآستانة وحصن عدويتها وقبل الحلفاء مندوبيه فى مؤتمر لوزان بعد أن رفضوا وألغى المعاهدات الأولى.

١٠٠ - الهجرة :

ما قرب الجيش الإنكليزى من بلاد مستحكمة إلا وظن الأتراك أن أهلها يضمنون لهم سوءاً فيفرغونها من السكان ويأمرونهم بالمهاجرة إلى بلاد قاصية فقد هاجروا غرة ويافا وأكثر القرى التى كانت تقع على خط النار أو بين الخططين خشية اتصال الجواسيس أو نقل الأخبار فلما أتى الإنكليز وجدناهم يعقبون عين تلك السياسة ونفس هذه الإدارة فإنهم ما دخلوا قرية إلا أخرجوا أهلها منها واعتقلوا كثيرين فضاع أثاث الأهالى وفقدت سلعهم وكم بناء هدم فى سبيل الحرب.

١٠١ - لمحة اجتماعية :

لم نحلم بما كان مخبئاً لنا فى لوح الغيب فقد جاءت الحرب وجاء معها الشقاء ففقد من البلاد الكبريت والكاز والسكر والقهوة والأرز وغير ذلك من الواردات الخارجية فتيرم الناس من ذلك ثم ألفوه واستعاضوا عنه بغيره ولكن قلت الضيافات والزيارات وعذر بعضهم بعضاً وقصر اللسان عن اللوم فبرزت المخدرات إلى العمل وتسابقن فى جلب المعاش وإحراز القوات [إلا أن الفلاح صاحب الحاصلات ظل حاله مستوراً] وقد كنا نرى النعل مرقعة واللباس مرفوفاً والطربوش مقلوباً حتى إن المسافر يخلع نعله توفيراً.. ولكن اجتماع الجنود والأهالى بعضهم البعض أكسبهم فائدة الاقتباس وشاهدوا الألمان واحتكوا بهم فنقلوا عنهم كثيراً وساروا خطوة واسعة إلى الأمام فالتقوى الساذج الذى

عاشر المدنى قيس عادته وما حسن لديه وأبناء المدن الصغيرة سرت لهم
العدوى لما عاشروا أبناء بيروت ودمشق وحلب واجتذبوا منهم الحسن ودبت
فيهم ريح الحركة من الألمان وكذلك الإنكليز ثم أبصروا مساوئ غيرهم فعملوا
أنهم بشر ليسوا بخير منهم فلم يفضلوهم حتى أنفسهم وطمحووا إلى مساواتهم.

الفصل السادس عشر

الاحتلال البريطاني

١٠٢ - الإدارة العسكرية :

فى وأخر سنة ١٩١٧م اكتسح الجيش البريطانى جنوبى فلسطين واخترق منطقة طولكرم فى ١٩ أيلول سنة ١٩١٨م فقضى على الجيش التركى وجلت الحكومة العثمانية عن البلاد وقامت على أثرها حكومة إنكليزية عسكرية دعيت «إدارة بلاد العدو المحتلة» وتعين الجنرال كلايتن Clayton مديراً عاماً لها ثم خلفه الجنرال مونى Money فالجنرال وطسن Watson فالجنرال بولز Bols وقد تغيرت هذه الإدارة فى ابتداء تموز سنة ١٩٢٠م بإدارة مكية على رأسها السرهبريت صمويل مندوباً سامياً لجلالة الملك جورج وعهد إليه تنفيذ وعد بلفور بجعل فلسطين وطناً قومياً لليهود كما قرر مؤتمر سان ريمو فى ٢٠ نيسان من سنة ١٩٢٠م فقدم المندوب السامى وتلا أمر «فرمان» جلالة الملك فى الطور يوم الأربعاء فى ٧ تموز وهذا نصه :

إنى مأمور من فخامة جلالة الملك جورج الخامس أن أبلغكم الرسالة الآتية :

إلى أهالى فلسطين

إن الدول المتحالفة التى نالت الفوز الباهر فى هذه الحرب قد أودعت بلادى أمر الوصاية على فلسطين لكى تسهر على صوالحها وتكفل لبلادكم العمران السلمى الذى طالما كنتم تنشدونه. إنى أذكر بافتخار العمل المجيد الذى قامت به جنودى تحت قيادة الفيلد مارشال اللورد اللنبى بتحرير بلادكم من النير التركى وسأتهلل حقيقة إذا وفقت أنا وشعبى أيضاً إلى أن نكون وسيلة لكم لتنالوا السعادة بوجود إدارة حازمة وصادقة. إنى أرغب أن أؤكد لكم أن الدولة ذات

الوصاية ستنفذ ما عليها من الواجبات بدون محاباة مطلقاً كما وإن فى عزم حكومتى أن تحترم حقوق العناصر والمذاهب على اختلافها فى المدة التى يلزم انتقاضها إلى أن يصادق مجلس عصبة الأمم نهائياً على أمر الوصاية وفى المستقبل عندما تكون قد صارت الوصاية أمراً واقعاً.

لا يخفى كم أن الدول المتحالفة والمشاركة قد قررت أن تتخذ التدابير لتضمن تأسيس وطن قومى لليهود فى فلسطين بالتدريج وهذه التدابير لن تؤثر قطعياً على حقوق الأهالى الدينية أو المدنية ولن تنقص من الرقى المنوئ لعموم طبقات الشعب الفلسطينى. إنى واثق أن المندوب السامى الذى انتدبته لإنفاذ هذه المبادئ سيفعل ذلك بعزم ثابت ونية صادقة وسيسعى لاستعمال كل الوسائل التى تؤول إلى خير واتحاد طبقات الشعب على اختلاف مذاهبه. إنى أدرك جيداً خطورة الائتمان المحدقة بحكومة البلاد التى يقدسها المسيحى والمسلم واليهودى على السواء وساحافظ بكل اهتمام وعاطفة حارة فى المستقبل على رقى وعمران البلاد التى ينظر العالم إلى تاريخها باهتمام عظيم.

ثم تلاه مرة ثانية على جبل الكرمل فى حيفا وشرع بتطبيق قرار الحلفاء فجعل لغات البلاد الرسمية ثلاثاً العربية والإنكليزية والعبرية واعترف بوجود القومسيون الصهيونى ووظائفه وحاول أن يقنع العرب بأن الصهيونية نافعة ومفيدة فاحقق فى سعيه وخسرت سياسته وهنا نقول كلمة عن تاريخ الصهيونية.

١٠٣ - الصهيونية :

تنتسب الصهيونية إلى صهيون أحد التلال القائمة عليه بيت المقدس والذى كان علماً للمدينة ثم أصبح مرادفاً إلى فلسطين.

فالصهيونية حركة يهودية غرضها الأجل الرجوع إلى فلسطين لجمع شتات شعبهم المبدور بين جميع الأجناس والطوائف وفى كل بقاع الأرض وهى منظوية على مبادئ اقتصادية وسياسية ودينية لا محل هنا لاستيفائها.

إن أكبر محرك لإحياء هذه الروح فى نفس اليهود هو توالى اضطهادات الأوروبيين لهم ونفورهم منهم لأنهم يميلون إلى الربا الفاحش ، ولأنهم مستهلكون غير محدثين ولرغبتهم فى احتكار التجارة ولتعصبهم الدينى وهذه نبذة من صلاتهم اليومية :

«لم يخلقنا الله مثل بقية الشعوب ولم يجعل مقامنا مثل مقام الأمم الأخرى».

وإن رجال الغرب مهما تظاهروا بالتسامح المدنى مع اليهود فإنهم غير راضين عنهم اجتماعيًا فقد استوحش منهم الروس وأفحشوا فيهم سنة ١٨٨١م فقام نفر منهم ونادى يجمع اليهود فى بقعة واحدة فاستحسن هذه الفكرة كثير منهم ولكنهم اختلفوا فى تعيين المحل الذى يتخذونه وطناً لهم فاقتراح البارون هرش أن يكون فى جمهورية الأرجنتين وذهب زكوبيل باستيطان شرقى أفريقيا أو أوغندا وحيد بعضهم الرجوع إلى العراق ومنهم من فضل طرابلس الغرب أو شبه جزيرة سينا أو نيكاراغوا فى أمريكا الوسطى وظلوا مختلفى الرأى حتى سنة ١٨٩٧م إذ نجم من فينا هرزل مؤسس الصهيونية المعروفة الآن وجمع عددًا من كبار مفكرى اليهود وعقدوا مؤتمرًا فى بازل «سويسره» واجتمعوا على اتخاذ فلسطين مهجرًا ووطنًا فذهب هرزل إلى الاستانة وبارش مفاوضة الباب العالي فلم ينجح إلا بأخذ رخصة بتأسيس مدرسة نيتزر الزراعية وشرع بإنشاء بعض مستعمرات «قرى» يهودية وكان كلما اعترضه شيء من العقبات والمشاكل اقتحمها. وقد انضم إليه نفر كثير من اليهود بعد حادثة الضابط اليهودى دريفوس فنشط وثابر على جمع الأموال وبيث الدعوة «البروبوغاندا» وأسسوا الشركات المالية ونشروا الروح الصهيونية بين اليهود فاستعد فريق منهم لقبولها وفى أثناء الحرب العظمى نجح الزعيم الصهيونى وايزمن واقنع وزارة لويد جورج بجعل فلسطين وطنًا قوميا لليهود فنطق بتصريحه المشهور وهو:

«تنظر حكومة جلالة الملك البريطانية بعين الرضى إلى إنشاء وطن قومى فى فلسطين وتبذل الجهد فى سبيل ذلك على ألا يجرى ما يضر بحقوق غير اليهود فى فلسطين الدينية والمدنية او ما يضر بما لليهود من الحقوق والمقام السياسى فى ما سواها من الممالك».

وإننا نذكرون هنا الأعمال الكبيرة التي تمت على عهد المندوب السامى وهى :
تعيين مجلس استشارى مؤقت مؤلف من العرب واليهود وفتح أبواب فلسطين
لمهاجرى اليهود وتأسيس مجلس إسلامى أعلى يدير الأوقاف والمحاكم الشرعية
الدينية مؤلف من رئيس وأربعة أعضاء.

وأنكر العرب السياسة الصهيونية فأسسوا الجمعيات الإسلامية المسيحية فى
جميع البلاد واحتجوا عليها وتظاهروا وطلبوا إلى الحكومة تعديل خطتها ثم
أرسلوا وفوداً إلى لندن والحجاز وأنقره ولوزان ولندن «ثانية» وقد وجدوا من
نوردات الإنكليز وأشرفهم مناصرة وعطفاً.

وقد بذل المندوب السامى وسعه للتوفيق بين العرب واليهود فلم يفلح وهو
المشهور باللطف وحصافة العقل. وحدثت فتنتان بين المتنازعين الأولى فى القدس
والأخرى فى يافا قتل فيهما عدد ليس بقليل فهدأتها الحكومة بالقوة.

فهذا تاريخ فلسطين وجل ما وقع فيها من الحوادث قد طويناها بعد التنقيح
بين دفتى هذا السفر الصغير والله ولى التوفيق.

جدول

أسماء خلفاء وملوك الدول الإسلامية العظمى

الخلفاء الراشدون			خلفاء بني العباس		
م	م	اسم الخليفة	م	هـ	أبو العباس السفاح
١١هـ	٦٣٢م	أبو بكر الصديق	٧٥٠م	١٣٢هـ	المنصور
١٣هـ	٦٣٤م	عمر بن الخطاب	٧٥٤م	١٣٦هـ	المهدي
٢٣هـ	٦٤٤م	عثمان بن عفان	٧٧٥م	١٥٨هـ	الهادي
٣٥هـ	٦٥٥م	علي بن أبي طالب	٧٨٥م	١٦٩هـ	هارون الرشيد
سنة	أشهر	ابنه الحسن	٧٨٦م	١٧٠هـ	الأمين
خلفاء الدولة الأموية			٨٠٩م	١٩٣هـ	المأمون
٤١هـ	٦٦١م	معاوية بن أبي سفيان	٨١٣م	١٩٨هـ	العقصر
٦٠هـ	٦٨١م	ابنه يزيد الأول	٨٤٢م	٢٢٨هـ	الواثق
٦٠هـ	يَوْمًا	معاوية الثاني	٨٤٧م	٢٣٢هـ	المعتز
٦٤هـ	٦٨٤م	مروان بن الحكم	٨٦١م	٢٤٧هـ	المنتصر
٦٥هـ	٦٨٤م	عبد الملك بن مروان			
٨٦هـ	٧٠٥م	الوليد بن عبد الملك			
٩٩هـ	٧١٤م	سليمان بن عبد الملك			
٩٩هـ	٧١٧م	عمر بن عبد العزيز			
١٠١هـ	٧٢٠م	يزيد الثاني بن عبد الملك			

الناصر	م ١١٧٩	٥٥٧٥	المتسعين	م ٨٦٢	٥٢٤٨
الظاهر	م ١٢٢٥	٥٦٢٢	العقز	م ٨٦٦	٥٢٥٢
المستنصر	م ١٢٢٦	٥٦٢٣	المهتدى	م ٨٦٨	٥٢٥٥
المستعصم	م ١٢٤٣	٥٦٤١	المعتمد	م ٨٦٩	٥٢٥٦
الخلفاء الفاطميون			المعتضد	م ٨٩٢	٥٢٧٩
عبيد الله المهدي	م ٩٠٩	٥٢٩٧	المكتفي	م ٩٠٢	٥٢٨٩
القائم بأمر الله	م ٩٣٣	٥٣٢٢	المقتدر	م ٩٠٨	٥٢٩٥
المنصور	م ٩٤٥	٥٣٣٤	القاصر	م ٩٣٢	٥٣٢٠
المعز لدين الله	م ٩٥٢	٥٣٤١	الراضي	م ٩٣٤	٥٣٢٢
العزیز	م ٩٧٥	٥٣٦٥	المتقى	م ٩٤٠	٥٣٢٩
الحاكم بأمر الله	م ٩٩٦	٥٣٨٦	المستكفي	م ٩٤٤	٥٣٣٣
الظاهر	م ١٠٢٠	٥٤١١	الطبيع	م ٩٤٥	٥٣٣٤
المستنصر	م ١٠٣٥	٥٤٢٧	الطائع	م ٩٧٣	٥٣٦٣
المنتعلی	م ١٠٩٤	٥٤٨٧	القادر	م ٩٩١	٥٣٨١
الآمر	م ١١٠١	٥٤٩٥	القائم	م ١٠٣١	٥٤٢٢
الحافظ	م ١١٣٠	٥٥٢٤	المقتدى	م ١٠٧٤	٥٤٦٧
الظافر	م ١١٤٩	٥٥٤٤	المستظهر	م ١٠٩٤	٥٤٨٧
الفائز	م ١١٥٤	٥٥٤٩	المسترشد	م ١١١٨	٥٥١٢
العاضد	م ١١٦٠	٥٥٥٥	الراشد	م ١١٣٤	٥٥٢٩
ملوك الدولة الأيوبية			المتقي	م ١١٣٥	٥٥٣٠
صلاح الدين	م ١١٧١	٥٥٦٧	المستنجد	م ١١٦٠	٥٥٥٥
العزیز	م ١١٩٣	٥٥٨٩	المستضيء	م ١١٧٠	٥٥٦٦

٥٩٥هـ	١١٩٨م	المنصور	١٠٥٨هـ	١٦٤٨م	محمد الرابع
٥٩٦هـ	١٢٠٠م	العادل	١٠٩٩هـ	١٦٨٧م	سليمان الثاني
٦١٥هـ	١٢١٨م	الكامل	١١٠٢هـ	١٦٩١م	أحمد الثاني
٦٣٥هـ	١٢٣٨م	ابنه العادل	١١٠٦هـ	١٦٩٥م	مصطفى الثاني
٦٣٧هـ	١٢٤٠م	الصالح أيوب	١١١٥هـ	١٧٠٣م	أحمد الثالث
٦٤٧هـ	١٢٤٩م	المعظم توران	١١٤٣هـ	١٧٣٠م	محمود الأول
٦٤٨هـ	١٢٥٠م	شجرة الدر	١١٦٨هـ	١٧٤٥م	عثمان الثالث
٦٤٨هـ	١٢٥٠م	الأشراف	١١٧١هـ	١٧٥٧م	مصطفى الثالث
ملوك آل عثمان بعد فتح فلسطين					
٩١٨هـ	١٥١٢م	سليم الأول	١٢٠٣هـ	١٧٨٩م	سليم الثالث
٩٢٦هـ	١٥٢٠م	سليمان الأول	١٢٢٢هـ	١٨٠٧م	مصطفى الرابع
٩٧٤هـ	١٥٦٦م	سليم الثاني	١٢٢٣هـ	١٨٠٨م	محمود الثاني
٩٨٢هـ	١٥٧٤م	مراد الثالث	١٢٥٥هـ	١٨٣٩م	عبد المجيد بن محمود
١٠٠٣هـ	١٥٩٥م	محمد الثالث	١٢٧٧هـ	١٨٦١م	أخوه عبد العزيز
١٠١٢هـ	١٦٠٣م	أحمد الأول	١٢٩٣هـ	١٨٧٦م	مراد بن عبد المجيد
١٠٢٦هـ	١٦١٧م	مصطفى الأول	١٢٩٣هـ	١٨٧٦م	عبد الحميد الثاني
١٠٢٧هـ	١٦١٨م	عثمان الثاني	١٣٢٥هـ	١٩٠٨م	محمد رشاد الخامس
١٠٣١هـ	١٦٢٢م	مصطفى الأول ثانية	١٣٣٦هـ	١٩١٧م	حيدر الدين
١٠٣٢هـ	١٦٢٣م	مراد الرابع	١٣٤١هـ	١٩٢٢م	عبد المجيد
١٠٤٩هـ	١٦٤٠م	إبراهيم الأول			

الكشاف العام

١ - الأعلام

(١)

أحمد بن طولون ١٣٣ ، ١٣٤	إبرام ٩
أحمد بن عارف ٢١٣	إبراهيم «عليه السلام» ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ،
أحمد بن كيقلغ ١٣٤ ، ١٣٥	٧ ، ٨ ، ٣٤ ، ٤٥
أحمد بن اليغموري ١٨٣	إبراهيم الخليجي ١٣٤
إخشيد ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦	إبراهيم بن محمد «الإمام» ١٢٨
آدم «عليه السلام» ٣ ، ٧٣	إبراهيم «باشا» بن محمد علي ٣٦ ،
أدوم ٤٢	٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢١١ ، ٢١٢
إدموند دي روتشيلد ٤٢	إبراهيم بن الوليد ١٢١ ، ١٢٢
ادورد غري ٢١٧	ايبمالك ٧ ، ١٠
أدوميا ٧١	الأيوردي ١٥٤
أدونى صادق ٣٩	اتسز ١٤٨ ، ١٤٩
أرجوان ١٤٤ ، ١٤٥	ابن الأثير ٩٥ ، ١٤٧ ، ١٦٣ ، ١٦٤
أرستوبولس ٤٣ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٨٨	آحاز ٥٩
أرسطو ٦٦	أحمد «الإمام» ١٨٢
أرسلان ٩٧	أحمد «باشا» الجزار ١٩٣ ، ١٩٤ ،
أرطغرل بن سليمان ١٨٨ ، ١٨٩	١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ،
الأرقم المخزومي ٨٩	٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢
ارمسترنغ ٢١٨	أحمد «الشيخ» الخماس ٢١٣
	أحمد جمال باشا ٢١٨

أرميا ٦٢	أبو الأسود الدؤلى ١٠٦
أرنا «أرناط» رينو ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢	آسيا ١٣٨
أرواد ٤٠	الأشرف «الملك» ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٧
أسامة بن زيد ٩١ ، ٩٣	أشرف بك ٢١٩
إسحق «عليه السلام» ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١	الأشعري «أبو موسى» ١٠٥ ، ١٠٦
إسحاق بن مسلم ١٢٢	أشعيا ٦٢
أسد الدين شيركوه ١٥٧ ، ١٥٨ ، ٢٠٢	أبو الأعور ٩٧ ، ١٠١
أسدود ٤١	أفتكين التركى ١٤٣
أسرحزون ٥٧	أفتمبيوس ١٧٦
أسعد ٢١٣	أفرايم ٤٩
أسعد أفندى ٠٠٠	الأفضل ١١٦ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦
الإسكندر الأكبر ٣٦ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ١٩٥ ، ٢٠٢	الأفضل بن صلاح الدين ١٦٠ ، ١٦٩ ، ١٧٠
إسكندر أرتوبولس ٧٢	أفلاطون ٦٦
إسكندر عزيز ٣	أقسز ١٤٨ ، ١٤٩
إسماعيل «عليه السلام» ٤ ، ٥ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ٤٥ ، ٦٠	الأكليروس ٨٢
إسماعيل بك ١٩٢	ألب بن أرسلان ١٤٨
إسماعيل شاه ١٨٩	ابن اللحناء ١٢٦
إسماعيل «الملك الصالح» ١٥٩ ، ١٧١ ، ١٧٢	ابن اللوى ٤١
	النبى ٣٦ ، ٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠
	أماجور ١٣١ ، ٢١١
	أمورى ١٥٦

أوريا الحثي ٣٨ ، ٦١
 أوغسطس «أوغسطس» ٣٦ ، ٧٢ / ٧٣
 أونياس ٦٧ ، ٦٨
 إياس الطائي ١١٠
 إيبك «عز الدين» ١٧٧ ، ١٨٠
 ايثيعل ٥٦
 إيزابل ٣٩ ، ٥٦ ، ٦١
 إيشبوش ١٩
 إيلياس ٦١
 غيليا كابيتولينا ٨١
 أبو أيوب ٩٧
 أيوب «المالكي» ٩٧

مين عبد الهادي ٢١٤
 نتيباس ٧١ ، ٧٣
 نجليكاني ١٩
 نسطاس الكرمل ٥٧
 نطونيا ٧٣ ، ٧٨
 نطونيوس ٧١ ، ٧٣
 نوجور «أبو القاسم» ١٣٥ ، ١٣٦
 نور باشا ٢١٩ ، ٢٢٥
 نوشتكين ١٤٦ ، ١٤٧
 هود ٤٢
 وريانوس ١٥١
 ورخان ١٨٩ ، ١٩٠

(ب)

بربروسا ١٦٤
 برقوق ١٨٣ ، ١٨٤
 البرنس منشيكوف ٢٠٥
 البرويو غاندا ٢٣١
 بزرجمهر ١٣٧
 بشير الشهابي ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢
 ٢٠٣
 بشير بن كعب الحبيري ٩٦
 بطرا ٤٣
 بطرس الأكبر ٢٠٥

باراق اليهودي ٤٩
 بارباروس «خير الدين» ١٩٠
 باكباك ١٣٣
 باركوكب ٨٢
 باليان ١٦٢
 بايزيد ١٨٤
 بختيار «عز الدولة» البويهي ١٤٢ ، ١٤٣
 بدر الجمالي ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٣
 بدر الخرشن ١٣٥

ابن بهرام القرمطى ١٣٤

بورثر ٦٥

بورى ١٤٩ ، ١٥٥

بولس ٨٨

بومبى ٣٦ ، ٦٣ ، ٧١ ، ٧٢ ، ١٩٥

بونابرت ٣٦ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ،

١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ،

٢٠٢ ، ٢٠٤

بيبرس ١١ ، ١٦٨ ، ١٧٧ ، ١٨١ ، ١٨٢

بيبرس الجاشنكيرى ١٨٢ ، ١٨٣

بيلاطس النبطى ٧٥ ، ٧٧

بطرس «النايك» ١٥١ ، ١٥٢

بطليموس ٦٦ ، ٦٧

ابن بطوطة ١٧٥

بكتاش بن تنش ١٥٥

أبو بكر «الصدىق» ٢٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ،

٩٦ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ١١٠ ، ١١٢ ،

١١٦ ، ١٢٥

أبو بكر بن المستعم ١٨٠ ، ١٨١

بلدوين ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧

بلفور ١٣ ، ١٦ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٦٣

بلقيس ٥٣

بنيامين ٧ ، ٤٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ١١٢

(ت)

ابن تهمامة ١٢٦

توران شاه ١٥٩ ، ١٧٧

توفيق أفندى ٢١٤

توفيق المجالى ٢١٥

تيطيس ٣٦ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٨

تيمور لنگ ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٦٩

تيودور ميرتزل ١٣ ، ٢٥

تاستس ٧٩

تبع ١٣٤

تنش «تاج الدولة» ١٤٨ ، ١٤٩

تراجان ٤٣

ترومان ١٦ ، ١٧

تغلتفلصر ٥٩ ، ٦٠ ، ٨٨

تسين «أبو منصور» ١٣٥

تنكير «سيف الدين» ١٧٥

(ث)

الثوري ١٧

ثابت بن نعيم ١٢٢

ثرموبيلي ٦٣

(ج)

جلبات «طالوت» ٥٢، ٦٠

جازر «أبو شوشة» ٣٦، ٣٧، ٥٣

جمال باشا ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦

جاك دارك ٤٩

جميلة ٤٤

جالوت ١٧٠، ١٨١

جنكيز خان ١٧١، ١٨٤، ١٨٨

جان بردى الغزالي ١٩٠

١٨٩، ١٩٦

جبعون ٣٨

جهاركس ١٩٦

جبيون ٨٨، ٩٤

الجواد «الملك» ١٧١

جئيسماني ٧٥

جورج «الملك» ٢٢٩، ٢٣٠

جدعون ٤٣، ٤٧، ٤٨، ٥٣

جورج آدم سميت ٤٢

جدليا ٥٧

جورج زيدان ٨٨، ١٩٧

جريون ١٠

جوردريك ١٦٦

جركس ١٧٠، ١٩٦

جوفر ١٩٧

جعفر بن حنظلة ١٣٨

جومبوس ٢٩

جعفر الطيار ٩١

جوهر ١٣٦، ١٤١، ١٤٣

جعفر بن فلاح الكتامي ١٤١، ١٤٢

جيش بن الصمصامة ١٤٥

أبو جعفر «المنصور» ١١٩

جفري بطرس غالي ١٢

(ح)

الحارث بن عبد الرحمن ١٢٣

الحارث ٤٣، ٦٩، ٨٨

الحسن بن عمار ١٤٤ ، ١٤٥
حسن مجدل يابا ١٦٢
الحسيني «أحمد بن عارف» ٢١٣
الحسيني «سعيد» ١٨٩
الحسيني «سليم» ٢١٣ ، ٢١٤
«الملك» حسين ٢٢٤
حسين بن حمدان ١٣٤
الحسين بن علي ١٠٥ ، ١١٦ ، ١٨٢
حفصة ١٠٦
حفنى ناصف ١٠٦ ، ١٠٧
الحقير ٣٣ ، ١١٠
الحكم بن ضبعان ١٢٢
حماد «توفيق أفندي» ٢١٤
حمورابي ٤٦ ، ٨٩
«القدسية» حنه ١٦٣
حيدر بك ٢١٤
حيرام ٣٩

حارثة «الملك» القساني ١٠٨
حاصور ٦
حافظ بك السعيد ٢١٣
الحاكم بأمر الله ١١٩ ، ١٤٤ ، ١٤٥
١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥١
الحبشي ١٧
الحجاج بن يوسف ١٠٦ ، ١١٦ ، ١١٧
١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٦
حذيفة بن اليماني ١٠٦
أبو حرب المبرقع ١٣٠
الحزم ٧٨
حسان بن الجراح الطائي ١٤٢ ، ١٤٦
حسان بن مالك بن بحدل ١١٧
حسان بن المفرج ١٤٥
حسن إبراهيم حسن ١١٣
حسن باشا ١٩٢
الحسن بن عبيد الله بن طنج ١٤١
الحسن بن علي بن أبي طالب ١٠٥ ،
١٤٧ ، ١١٥

(خ)

خالد بن يزيد ١١٧
الخالدي «راغب» ٢١٣
الخالدي «روحي بك» ٢١٣

خالد بن سعيد بن العاصي ٩٣
خالد بن الوليد ٦٥ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦
٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٢ ، ١٠٩ ، ١١٠

الخالدي «سعيد أفندي» ٢١٣

الخالدي «ضياء باشا» ٢١٣

الخانكي ١٦٣

خديجة ٨٩

خسرو ٢٠٢

ابن خلدون ١٤٧

خليل طوطح ٢٩

خمارويه ١٣٣ ، ١٣٤

الخماش «الشيخ أحمد» ٢١٣

خونكار ٢٠٥

خير الدين ١٨٩

(د)

درهم بن الجعد ١٠٧

درويش ١٩٢

دريغوس ١٢ ، ٢٣١

دقاق ١٤٩

الدماص بن عبد العزيز الكنانى ١٢٢

ابن دواس ١٤٦

الدوره باشا ٢٠٨ ، ٢٠٩

ديبر ٦

ديمثريوس ٤٣

داجون ٤١

داريوس ٦٤ ، ٦٥

الدامون ١٦٤

داود «عليه السلام» ٣٩ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣

٥٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦١

داود «الناصر» ١٧١

الدبس «المطران» ٩٥ ، ٢٠٠ ، ٢٠١

دبورة ٤٩

ديبس بن صدقة ١٥٥

(ذ)

ذو الفقار ٢١٠

(ر)

رجاء بن أيوب الحضارى ١٣٠

رحبغام ٥٥ ، ٥٨

رشدى باشا ٢٠٣

رضوان «بيعة» ١٠٨

ابن رائق ١٣٥

الراضى ١٣٥ ، ١٨٢

راغب ٢١٣

رامين ٥٩

روحى بك ٢١٣	رعمسيس ٣٨ ، ٤٠
ريان ١٤٣ ، ٢١١	رنكويل ٢٣١
ريبال ٤٤	رنو «أرناط» ١٥٩
ريكاردوس «أنظر قلب الأسد» ريتشارد	روبين ١٣٣ ، ١٤٣ ، ١٥٩ ، ١٦٨
٣٦ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ،	روتر ١٨
١٦٨ ، ١٦٩	روتشيلد ١٣
	روح بن زنباع ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢١ ،
	١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦

(ز)

زنوبيا ٤٩	الزبير ١٠٤
زياد بن أبيه ١٠٦	ابن الزبير ١١٨
زيد بن حارثة ٩٠ ، ١٠٩	زركسيس ٦٤
زيدان «جورج» ٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٧	زغبة ١٤٧
زيراء ١٧٥ ، ١٨١	أم زمل ١٠٩
	زنكى ١٥٩

(س)

سعد الدولة ١٥٥	سابق الخوارزمي ١٢٨
سعد الله بك ٢٢٤ ، ٢٢٦	سارة ٥ ، ٨ ، ٣٨ ، ٤٥
ابن سعود ١٤٦	سالون ١٦٤
ابن سعيد ٢١١	سامى باشا الفاروقى ٢١٥
سعيد أفندى ٢١٣	ست الملك ١٤٦
سعيد بن روح بن زنباع ١٢١	ستى القانى ٣٨
سعيد بن عبد الملك ١٢١	سرجون ٨٧

سليمان «السلطان» ١١٩، ١٩٠، ١٩١،

١٩٨، ٢٠٠

سليمان بن عبد الملك ١١٦، ١١٨،

١٢٠، ١٢٣، ١٢٧

سليمان بن كثير ١٣٨، ١٣٩

سليمان بن هشام ١٢٠، ١٢٢

سمعان ١٧٩

سميث «جورج آدم» ٤٢

سنان بن عليان ١٤٦

سنحاريب ٥٩، ٦٢

سنقر ١٦٩

السنوسي ٢١٥

سييرا ٤٩

سيف الدولة ١٣٥

سيمون فسيقا ٨٠

(ش)

شرتوك ١٠

شرحبيل ٩٤، ٩٥، ٩٧، ١٠٠

شرف الدولة ١٤٥، ١٥٥

ابن شعبان ١٨٣

ابن الشعلان ١٢٤

شعيب ٤٧

سعيد بن المسيب ١١٩، ١٢٠

السفاح «أبو العباس» ١٢٨، ١٣٧،

١٣٨

سفروس ٨٢

أبو سفيان بن حرب ٩٥، ١١٥

سقراط ٦٦

السلجوقي ٧٢، ١٤٨

أبو سلمة الخلال ١٣٩

سليط بن العباس ١٣٨

سليم «السلطان» ٣٦، ٨٧، ١٣٤،

١٣٥، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣،

١٥٣، ١٥٤، ١٥٧، ١٥٨،

١٥٩، ١٦٠، ١٧٧، ١٨٢،

١٨٣، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١،

٢١٠، ٢١١

سليمان «عليه السلام» ٣٩، ٤٢، ٥٢،

٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٨، ٢٠٤

شارلمان ١٢٩

شاور ١٥٧، ١٥٨

شاول ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٩، ٥١، ٥٢،

٥٤، ٥٥، ٥٥، ٩٤، ٩٥

شبيب ٥٠

شجرة الدر ١٧٧

شمس الدولة ١٥٨
شمشون ٤١ ، ٤٨
شوشة «أبو» ٣٦ ، ٣٧
شيركوه ١٥٧ ، ٢٠٢
شيشق ٥٥

شقيب «الشيخ أسعد» ٢١٣
الشقيرى «الشيخ» ٢١٤
شكيم ٥٦
شلمناصر ٥٧
شمر بن ذى جوش ١١٦

(ص)

١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ،
١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ،
١٦٧ ، ٢٠٢
صلاح الدين خليل ١٨٢ ، ١٨٣
صموئيل «عليه السلام» ١٩١ ، ٢٢٦
صموئيل ٢٠ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٤١ ،
٤٨ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٦٠ ، ٦١ ،
٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢

صالح «عليه السلام» ١٨٤ ، ١٨٥
صالح بن ظاهر ٥٠ ، ٢٠٠
صالح بن مرداس ١٤٦ ، ١٤٧
صانور ١٩١
صحوتميس ٣٦ ، ٣٨ ، ٦٦
صدقيا ٥٩ ، ٦٠
صفرونيوس ٩٩
صلاح الدين الأيوبي ٣٦ ، ٦٥ ، ١١٩ ،
١٤٩ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨

(ض)

ضيغان بن روح بن زنباع ١٢١
ضياء باشا ٢١٣

الضحاك بن قيس ١١٧
ضرار ١٥٧
ضرغام ١٥٧

(ط)

الطبرى ٩٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٤
طتميس ٣٦
طفتكين ١٤٩ ، ١٥٥

الطائع ١٤٣
طارق بن زياد ١٢٧
طالوت ٤١ ، ٥٢

طوقان «حيدر بك» ٢١٤

طومان باي ١٨٩

طيباريوس ٧٣

(ظ)

ظاهر العمر ١٩١، ١٩٢، ٢٠٢

الظاهر الفاطمي ١١٩

(ع)

عبد الرحمن بن عوف ١٧٢

عبد الرحمن الغافقي ١٢٧

عبد الرحمن الناصر ١٤٢

عبد العزيز ١١٧، ١١٨

عبد الفتاح السعدي ٢١٤

عبد الله باشا ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣

عبد الله بن الزبير ٥٥، ١١٢، ١١٣،

١١٦

عبد الله بن سبأ ١٠٤، ١٠٥

عبد الله بن علي ١٢٢، ١٢٩، ١٣٨،

١٣٩

عبد الله بن عمرو بن العاص ١٠٨

عبد الله بن محمد ١١٩

عبد الله بن محمد بن الحنفية ١٢٧

عبد الله بن يزيد ١١٧

طفج بن جف ١٣٤

طغرل بك ١٤٨

طلحة ١٠٤

طليحة الأسدي ١٠٩

الظاهر «بيبرس» ١٦٩

الظاهر لدين الله ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨

عائشة ٤٩، ١٠٤

المـادل ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣،

١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢

الغازار ٧٩، ٨٠

العاقد ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠

عامر بن عبد الله ١١١

عاموس ٦٢

عبادة ٤٤

العباس بن الحسن ١٣٤

أبو العباس الشيعي ١٤١

العباس بن عبد المطلب ١٢٩

العباس بن الوليد ١٢٠، ١٢١

عبد الحميد «السلطان» ٧٦، ١١٩،

٢١٣، ٢١٤، ٢١٥

عبد الرحمن عزام ١٨

عبد الله بن يزيد بن روح ٧٢

عبد المطلب ٨٩

عبد الملك بن مروان ٥٥ ، ١٠١ ، ١٠٧ ،

١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٥ ، ١٢٦

عبد الهادي «أمين بك» ٢١٢

عبيد الله بن زياد ١١٧

أبو عبيدة ٣٦ ، ١٧٥

عثمان ١٠١ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١١٣

عثمان بن أرطغرل ١٨٩

عثمان أفندي ٢١٤

عثمان الغازي ١٨٨ ، ١٨٩

عثمان الكرخي ١٩١

عروة بن مهلهل ٩٨

عز الدين أبيك ١٧٧

أبو العزم ٤١

العزیز الفاطمي ١٤٣ ، ١٤٤

العزیز «الملك» ١٦٩ ، ١٧٠

عشتاروت ٤٠ ، ٥٦

عفر ٤٨

عكرمة ١٠٩ ، ١١٠ ، ١٦٥

علاء الدين ١٨٩

عقمة بن حكيم ٢٠٠

علقمة بن محرز ٩٧

العلوي ١٢٧

علي بن أبي طالب ٤٩ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ،

١١٣

علي بك الكبير ١٩١ ، ١٩٢

علي بك المصري ٢٢٩

علي بن جعفر ١٤٥

علي بن ظاهر العمر ١٩٤

علي بن عريف ١٦٤

علي بن سليم ١٦٤ ، ١٦٨ ، ٢٢٦

علي «فيضي أفندي» ٢٣٠

علياء ٩٤

عمر بن الخطاب ٧١ ، ٨١ ، ٨٧ ، ٩٠ ،

٩٤ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٢

١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ،

١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٦ ،

١١٨ ، ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٥٤

عمر الناصح البرغوثي ٢٩

عمر بن عبد العزيز ١٢٠

عمر بن عمرو ١٩١

عمر بن سعيد ١١٧

عمر بن العاص ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ٩٩ ،

١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١١٠

عمري ٩٠

١٠٤ ، ٨٨ ، ٨٢ ، ٧٥ ، ٧٤

١٥٥ ، ١٥٤ ، ١٥١

عيسى ابن الشيخ سليل الشيباني ١٣١

عيسى بن معقل ١٣٧

عيسى بن نسطورس ١٤٤

عيشون بن إسحاق ٨ ، ٤٢

أبى العون ١٦٧ ، ١٦٨

عون بن النعمان ٩٧

أبو العويش ١٨٥

عياض بن غنم ١١٠

عيسى «عليه السلام» ٣ ، ٧ ، ٩ ، ١٠ ،

١١ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٥٢ ، ٧٠ ، ٧٣

(غ)

غودفرى ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٦٣ ،

١٩٥

أبو غوش ٢١١

غياث بن السلجوقى ١٨٩

(ف)

الفزارى ١٠٨

فسياسيانوس ٥٧ ، ٧٨

فهد بن إبراهيم ١٤٥

أبو الفوارس الإخشيدى ١٣٦

فون ساندرس ٣٦

فون كريس ٢٢١ ، ٢٢٥

فيصل ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧

فيليب أوغسطس ١٦٤

فيليبس ٦٤ ، ٦٨ ، ٨٨

غاي ١٦١

غرانيكوس ٦٤

غزالة ٥٠

فاست ٢٢١

فاطمة الزهراء ١٤١

أبو الفتوح ١٤٥

فخر الدين ١٩١

فرج بن برقوق ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥

فرحات باشا ١٩٠ ، ١٩١

فرحشاه ١٥٩ ، ١٦٠

فرعون ٣٨ ، ٥٣

فريدريك ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٨٩ ، ١٩٠

(ق)

قاسم بك ١٩٥ ، ٢١٠

قاسم ٢١١

القاسم العباسي ١٤٧	قطر الندي ١٣٤
أبو القاسم المغربي ١٤٥	قطز ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢
قانسوه الغوري ١٨٩	القعقاع بن عمرو ٩٥
القامر ١٣٥ ، ١٤١ ، ١٥٨	قلاوون ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤
قايتباي ١٨٤	قلب الأسد ٣٦ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ،
قباث بن اشيم ٩٥	١٦٧
قسطنطين ٨٢	قيصر ٧١ ، ١٢٥ ، ١٣٤

(ك)

كافور ١٣٥ ، ١٣٦	كليوبتره ٧٣
الكمال «الملك» ١٧٠ ، ١٧١	كمال بك ١١٩
كتيغا ١٨١	كمبوس مرتيوس ٨٠
كدر لعومر ٤٢	كمبيز ٦٤
كريم بن ظاهر العمر ١٩٢	كورش ٦٣ ، ٦٤
كسرى ٣٦ ، ١٢٥ ، ١٣٤	كورنثوس ٨٨
كعبل ٥٦	ابن كوكب ٨٢ ، ١٦٣ ، ١٧٠
كلاطين ١٨٢ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠	كونثوس ٨٨
كليب ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢	

(ل)

اللخمى التنوخى ١٤٤	لويد جورج ٢٦ ، ٦٣ ، ٢٣١
لودندورف ١٩٧	لويس ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٩٣
لوط ٣ ، ٨ ، ٩ ، ٤٢	ليمان فون ٣٦
لؤلؤ ١٣٤ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٧٢	

(م)

ماريو حنا ١٧٦ ، ١٧٧	محمد بن علي العباسي ١٢٧
الأمون ١٠٧ ، ١١٩ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٣	محمد بن قلاوون ١١٩
ماهان ١٨٨	محمد المتوكل ١٩٠
مقاتياس ٦٨	محمد بن يزداد ١٣٥ ، ٢٠٨
المتنبي ١٣٦ ، ١٤٦	السلطان محمود ٢١٢
المتوكل ١٣١	محمود شوكت الفاروقي ٢١٤
مجدل الصادق ١٦٢	الأمير محمود الفاعور ١٨٢
المجاهد ١٧١	محيي الدين بن الجوزي ١٨١
مجد الدين النابلسي ١٧٥	مدحت باشا ٢١٣ ، ٢١٤
محمد بن يحيى ٣ ، ٤ ، ٩ ، ٣٥ ، ٥٢ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ١٢٥ ، ١٣٦ ، ١٢٩	مروان بن الحكم ١٠٤ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ١٢٢
محمد بن إسماعيل ١٤٦	مروان بن محمد ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٨
محمد بك أبو الذهب ١٩١ ، ١٩٢	١٣٧ ، ١٣٨
محمد رشاد الخامس ٢١٤ ، ٢١٥	مريم ٧٣ ، ٧٤ ، ٩٩ ، ١٠٩ ، ١٠١
محمد بن سليمان ١٣٤	١١١
محمد بن طفيح ١٣٥	مزاحم ١٣٥
محمد بن عبد الملك ١٢١	مسادا ٨٠ ، ٨١
محمد علي باشا ٢٠٢	المستضي ١٥٨
	المستعصم ١٨٠
	المستكفي ١٨٢
	المستنصر العباسي ١٨٢

المستنصر الفاطمي ١٤٧	المعظم «الملك» ١٧٠
مسروق بن فلان ٩٧	أبو الغراء ١٣١
ابن مسعود ١٠٦	المفرج بن دغفل ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥
المسعودي ١٢٤	المقتدر ١١٩
أبو مسلم الخراساني ١٣٨، ١٣٧، ١٢٨	أم المقتدر ١١٩
مسلم بن قتيبة ١٣٨	المقوقس ١١٢
المسيح «عليه السلام» ٤، ٧، ٩، ١٠، ١١، ٤٠، ٤٢، ٥٢، ٥٧، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٨٢، ٨٣، ٨٨	مكاييوس ٦٧
١٠٤، ١٥١، ١٥٤، ١٥٥	مكالستر ٣٦، ٤٢
مسيلمة ١٠٩	المكتفى ١٣٤
مصطفى كمال ٢٢٦	ابن ملحج ١٠٥
مصعب بن عذير ١١٧	ملكشاه ١٣٤، ١٤٨، ١٤٩
مظفر الدين كوكبوري ١٦٢	ملكي صادق ٣٩
معاذ بن جبل ١٠٠	ممتاز بك ٢١٨
معاوية بن أبي سفيان ٩٧، ٩٩، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٤، ١٠٥، ١١٣	منجوتكين ١٤٥
١١٥، ١١٦، ١٢٤، ١٢٥، ٢١٠	المنصور «أبو جعفر» ١١٩، ١٢٩
معاوية بن يزيد ١١٦	١٨٢، ١٣٨
المعتصم ١٠٧، ١٣٠، ١٣١، ١٣٤	منطاش ١٨٢
المعتضد ١٣٣، ١٣٤	منلاوس ٦٨
المعتمد ١٣٢	المهدي العباسي ١١٩
المعز بن باديس ١٤٧، ١٤٨	المهدي الفاطمي ١٤١
المعز لدين الله ١٣٦	ابن مهيد ١٤٦
	مودين ٦٨
	موزيس ٢٥

مولوك ٤٠	موسى «عليه السلام» ٦، ١٠، ٦٢، ١٦٨
مؤنس بن يحيى المرداسى ١٤٧	أبو موسى الأشعرى ١٠٥، ١٠٦
مونى ٢٢٩، ٢٣٠	موسى بن نصير ١٢٤، ١٢٦
مؤيد الدين العلقمى ١٨٠	موسى بن يوسف ١٧٧
ميسون بنت بحدل ١١٦	الموفق ١٣٣، ١٨٢
ميمون القصرى ١٧٠	

(ن)

الناشيبى «عثمان» ٢١٤	نائل بن قيس ١١٧
الناشيبى «ناصر» ١٨٣	نابالا ١٩١
نصر بن سيار ٧٨، ١٢٨	نابليون الثالث ٦٥، ٢٠٤
نصر بن صالح ١٤٧	الناصر بن الأشرف ١٧٧، ١٨١
أبو نصر بن طغج ١٣٥	الناصر العباسى ١٦٩، ١٨١، ١٨٢
نصر بن عاصم ١٠٦	نبوخذ نصر ٣٦، ٤٢، ٥٩، ٦٠، ٦٢، ٦٣
نوح ٣	نجم الدين بن جماعة ١٨٥
نوح بن أسد ١٣٣	نرام سين بن سرجون ٨٧
نور الدين زنكى ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩	الناشيبى «أبو حسين» ٢١٤
١٦٠، ١٦٣، ١٦٩	الناشيبى «راغب بك» ٢١٤
نيرون ٧٨	

(هـ)

ابن مبيرة ١١٢	هاجر ٥، ٨، ٤٥
هتلر ١٦، ٢٠	هارون الرشيد ١٢٩، ١٣٠
هدريان ٨١	هاشم ٨١، ٩١
هرقل ٨٣، ١١١، ١١٢	هاشم بن عمر ١٢٣

أبو الهيثام ١٣٠	مركانوس ٤٣ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٨٨
ميرتزل ١٣ ، ٢٥	ملا نغورف ٢١٩
هيرودس ٤٢ ، ٤٣ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ٧٩	هند ١٢٤
ميروديا ٤٣	هنيبال ٦٥
هيلانه ٨٢	هولاكو ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٩٦ ، ١٨٥
	هونين ١٧٤

(و)

الوليد بن عقبة ٩٤	وايتكين الحلبي ١٥٥
الوليد بن معاوية بن مروان ١٢٢ ، ١٢٨	وايزمن ٢٣١
الوليد بن يزيد «الثاني» ١٢٠	أبو الورد ١٢٢
وهيب بن عبد الرحمن الأزدي ١٢٠	وطنس ٢٢٩ ، ٢٣٠
	الوليد بن عبد الملك ١١٦ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٣

(ي)

يزيد بن سلام ١١٩	اليازوري ١٤٧
يزيد بن سليمان ١٢١	ياسون ٦٨
يزيد بن معاوية ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٥	ياقوت الحموي ٩٧
١٨١ ، ١٨٢ ، ١٩٢ ، ١٩٣	يبوسيون ٣٨ ، ٣٩ ، ٥٥
١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩	يربعام ٥٥ ، ٥٦
٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣	يرزعليل ٦٥
يزيد بن المهلب ١٢٠ ، ١٣١	يزيد بن أبي سفيان ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦
يزيد بن الوليد ١٢٠ ، ١٢١	٩٧ ، ١٠٠

يوسف بن إبراهيم بن بغا ١٣٤
يوسف الشهابي ١٩٤ ، ١٩١
يوسف الصديق ٥
يوسف ضيا ٢١٣
يوسف النجار ٧٣ ، ٧٤
يوسيفوس ٤٧ ، ٦٥ ، ٧٥ ، ٧٩
يوليوس ٣٦ ، ٦٥ ، ٧١
يونانان ٤١
يونس «عليه السلام» ١٧٥

يشوع ٦ ، ١٠ ، ٣٨ ، ٤٧ ، ٦٨
يعقوب بن كلس ١٤٤ ، ١٤٥
يقتان ٩
يكتكين ١٤٤
يكيشهر ١٨٩
يهودا ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٨ ، ٦٧
ييمونا الأسخريوطي ٧٥
ييهوشافاط ٤٢
يوحنا الجسخلي ٧٩ ، ٨٠

٦ - الأماكن الجغرافية

(١)

أحد ١٠٨
أرخيبيل ٤٠ ، ٢٢٦
الاردن ٦ ، ٧ ، ٩ ، ١١ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٤٧ ، ٦١ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٥٥ ، ١٦٨ ، ١٧٢ ، ١٧٧ ، ٢١٥
أرسوف ١٥٥ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٨١

إبراهيم «وادي» ٤٥
الأبلة ١١٠
أجنادين ٩٧
الإحساء ١٤٣
أذرع ١٣٤
أزرعات ١٤٣
أربد ١١٦
أريل (أربيلا) ٦٥
الأرجتين ٢٣١ ، ٢٣٢

أرفا ١٦٠

أرمينية ٢٢٦

أرثون «نهر» ٤٢

أرونة ٣٩

أريحا ٣٩، ٤٢، ٤٧، ٦٩، ٧٨، ٩٨

١٠٠

أزمير ٢٢٦

اسبانيا ٤٠، ٨٤، ١٩٥

الآستانة ١٥٢، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩

١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣

٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٩، ٢١٤

٢١٨، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨

٢٣١، ٢٣٢

استراليا ٣٦

إسكندرونة ٦٤، ٨٤

إسكندرية ٦٥، ٦٦، ٨٤، ٨٥، ١٥٧

إسوس ٦٤

آسيا ٣٥، ٣٦، ٤٠، ٦٤، ٨٣، ٨٤

١٥١، ١٨٧، ١٩٥

آسيا الصغرى ٣٨، ٦٣

أشقلون ٤٨

أضاليا ٢٢٦، ٢٢٧

الأطرون (قلعة) ١٦٥

الأعوج «نهر» ١٦٧

إفريقية ٣٥، ٣٦، ٤٠، ٤٣، ٦٣، ١٠٤

١٠٩، ١٢٦، ١٢٩، ١٤١

١٤٣، ١٤٧، ١٥٧، ٢٣٠

الأفلاق ٢٠٥

الأقحوانة ١٤٧، ١٥٥، ١٦٠، ١٦١

الألب «جبال» ٢٠٠، ٢٠١

المانيسا ١٣، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ١٥٢

١٦٤، ١٧١، ٢١٧

اماعين «بئر» ١٨٥

أمريكا ١٢، ١٣، ١٥، ١٦، ١٧، ٢٤

٢٦، ٣٦، ٤٣، ٢٣١

الأناضول ٤٠، ٦٥، ١٤٨، ١٥١، ١٥٣

١٨٠، ١٨٤، ١٨٧، ١٨٨

١٨٩، ٢٠٩، ٢٢٧

الأنبار ١١١، ٢١٩

انجلترا ٣٣، ٣٥، ٤٠، ٨٦، ١٥١

١٦٤، ١٦٦، ١٩٥، ٢٠٥

٢١٧، ٢١٩، ٢٢١، ٢٢٣

٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧

٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١

الأندلس ٤١، ٩٥، ١٢٤، ١٢٧، ١٢٩

١٤٢، ١٧٥

١٦٨ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٨٧
 ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١
 ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥
 ٢٠٦ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٢٢
 ٢٢٦ ، ٢٢٧
 أوستريا ١٩٠
 أوغندا ١٣ ، ٢٣١
 إيران ١٠٤ ، ١٨٨ ، ١٨٩
 إيرلندا ٧٧
 إيطاليا ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٧٨
 ١٥٣ ، ١٩٥ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢٧
 إيالة ٤٣ ، ٩١ ، ٩٤ ، ١٦٠ ، ١٩٢
 إيليسا ٣٥ ، ٦١ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٠

انطاكية ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١٠٠ ، ١٤٤
 ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٦٠ ، ١٦٤

انطربوس ١٧٣

أنقرة ١٢٩ ، ٢٣٢

أواسط جزيرة العرب ٣٧

أوديسا ٢١٨

أور ٨٥

أورشليم ٧ ، ١١ ، ٤٢ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٢
 ٦٥

أوروبا ١٢ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٤ ، ٢٧
 ٢٩ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٦٣ ، ٨٣
 ٨٤ ، ١٠٣ ، ١٢٧ ، ١٤٩ ، ١٥١
 ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٦٤

(ب)

بابل ٤٦ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٦
 ٨٣ ، ٨٧
 البادية ١٣٤ ، ١٦٥
 بادية التية ٦٠
 بادية الشام ٣٧
 بادية العرب ٣٧
 باريس ٢٠١ ، ٢٢١ ، ٢٢٤
 بازل ٢٣١
 بانياس ١٦٩ ، ١٧٤

باب الأردن ١٢١

باب أريحا ٩٨

باب جمح ١١٧

باب الخليل ٧٣ ، ٧٨ ، ١٩٠ ، ٢٠٤

باب السامرة ١٥٣ ، ١٦٢

باب السيدة مريم ١٩٠

باب الصفا ١١٧

باب العمود ٥٤ ، ١٦٢ ، ١٦٣

باب القرايس ١١٦

البحر الأبيض المتوسط ٣٣، ٣٤، ٣٧،

٤٢، ٦٣، ٨٣، ١٨٨

البحر الأحمر ١١٢، ١٦٠

البحر الأسود ١٢٩، ١٩٠

البحر الميت ٤٢، ٨٠

بحر عيذاب ١٦

بخارى ١٣٣

بدر ١٠٨، ١١١

البرازيل ٢٤

البرج ١٨٥، ٢١١

برج أنطونيا ٧٨، ٧٩، ٨٠

برج الجاموس ١٨٤

برج داود ١٧١

برج مجدل يابا «مجدل الصادق» ١٦٧

برك سليمان ٥٤، ٢٠٤

بركة التمساح ١١٢

بركة السلطان ١٧٦، ١٩٠

برمينة ٧٢

البروث «نهر» ٢٠٥

بروسيا ١٨٩

بروصة ٢٠٣

بروكسل ٢١٧

بريطانيا ١٣، ١٤، ١٩، ٢٦، ٢٧،

٨٢، ٨٣

البريك ١٧٠

البرية ١٢٠

بستان الجشيمانى ٧٥

البسفور ٢١٨

بشارة ١٩١، ١٩٢

البصرة ١٠٦، ١٠٨، ١٣٨، ٢١٠

بصرى ٤٣، ٨٨، ١٣٤، ١٥٥، ١٦٩،

١٧٥

بعل ٤٠

بعلبك ٨٤، ٨٥، ١٦٩

بغداد ٧٢، ١٠٣، ١٣٠، ١٣١، ١٤٨،

١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣،

١٨٤، ١٨٥

البغدان ٢٠٥

بلييس ١١٢، ١٥٨

يلجيك ٢١٧

بلغاريا ٢٧

البلقاء ٩١، ٩٣، ٩٤، ١٠١، ١٠٦،

١٢٢، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠،

١٨٩، ١٩٠، ٢١٥

البلقان ١٨٨، ١٩٠، ٢١٧

بيت لحم ٥٢، ٥٤، ٦١، ٧٢، ٧٤.

٨٢، ١٠٧، ١٥٣، ١٦٢، ١٧٤.

١٧٥

بيت المقدس ٢٩، ٣٥، ٩٨، ٩٩.

١٠٠، ١٠٧، ١١٥، ١٤٧.

١٥٣، ١٥٤، ١٦٤، ١٦٦.

١٦٩، ١٧٠، ١٧١

بيت نوبة ١٦٥

بيت وزن ٢٠٣، ٢١١

بيتان ٢٨

بيتوتية ٢١١

البيربينة (جبال) ١٢٧

البيرة ١٥٣، ١٧٤، ٢١١

بيروت ٣٩، ١٠٠، ١٥٣، ١٧٣.

١٩٤، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢٢٨

بيزنطة ٨٢

بيسان ٤١، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ١١٠.

١١١، ١١٦، ١٢٢، ١٥٥.

١٦٠، ١٧٠، ١٨١

بينة ١٦٢

بلى ٩١، ١٢٤

بنيش ٢٨

بهراء ١٢٤

بواتيه ١٢٧

بواديسيا ٤٩

البوسنة ١٩٣، ١٩٤، ٢١٥

بوغازكوى ٣٨

بولندا ٢٧، ٢٨، ٢٩

بولونيا ٢٨، ٧٧

بيت اكشا ١٩١، ٢١١

بيت آيل ٧، ٨، ٣٨، ٥٥

بيت جالا ١٧٤

بيت جبرين ٩٧، ١٦٢، ٢١١

بيت دجن ٤١

بيت عور ٦٨، ٢٢٦

بيت فورك ٢١١

(ت)

التتر «جبل» ١٨٧

تدمر ٤٩، ٨٨، ٩٥، ١١٠

تركستان ٣٨، ١٣٤، ١٤٨، ١٨٤، ١٨٧

تبالة ١٢٦

تبوك ٤٢، ٩١، ٩٤، ١٠٩

التبير «نهر» ٧٦

تركيا ١٣، ٨٣، ١٩٠، ٢٠٦، ٢١٨،	تل كلخ ١٢٤
٢٢٧، ٢٢١	تل كيسان ١٦٤
تشيكوفاكيا ٢٧، ٢٨	التمر «عين» ١١٠
تقوع ٦٢	تيماء ٩٣، ١٦٠
تل العجول ١٧٠، ١٧٥، ١٨١	تينين ١٧٥
تل القوال ٥١	التية ٣٨
تل القاضي ٣٣	(ث)
الثنى «نهر» ١١٠	ثنية العقاب ٩٥
(ج)	(ج)
الجابية ٩٨، ١١٧	جسر بنات يعقوب ١٥٩
جامع الأزهر ١٤١	جلبوع ٤١
جامع الأموى ١٦٦، ١٨٢، ١٨٤	جماعين ٢١١
جامع ابن طولون ١٣٣	الجمال ٤٩، ١٠٤
جامعة الدول العربية ١٨، ٣١	الجمعية اليهودية الاستعمارية ٢٥
جامعة القاهرة ٢٩	جنين ٤١، ٩٦، ١٥٩، ١٦٠، ١٧٠،
جاوا ١١٩	١٨١، ١٨٢، ١٩١، ١٩٢،
الجبارات ٤٣	٢٠١، ٢١١
جيلة ٩٤، ١٠٨	جورة عمرة ٢١٠
جرزيم «جبل» ٥٧	الجوزاء «ساحل» ١٦٠
جرش ٤٣، ٨٤	الجيب ١٩١
الجزيرة ٥، ٣٧، ٨٩، ١٢٢، ١٢٩	(ح)
حارة الجرامنة ١٦٧	حارة بنى زيد ١٦٧ .

حلب ١٠٠، ١١٠، ١٤٦، ١٤٧،

١٤٨، ١٤٩، ١٦٣، ١٦٩،

١٨٤، ١٨٩، ٢٢٨

حماء ٣٤، ١٥٩، ١٨١، ١٨٢

حمص ٣٤، ٩٤، ٩٧، ١٠٠، ١٢١،

١٢٢، ١٣٠، ١٤٣، ١٥٩،

١٧١، ٢٠٣

الحميمة ١٢٧، ١٢٨، ١٣١

حوران ٤٣، ٨٨، ٩٤، ١٢٢، ١٥٦،

٢٠٣، ٢١٥

الحويطات ٤٣، ٢٢٥

الحيرة ١١٠

حيفا ٧٢، ١١٥، ١٦٢، ١٦٤، ١٦٧،

١٧٥، ٢٠٣، ٢٠٧، ٢١٢،

٢٣٠، ٢٣١

(خ)

خليج العقبة ٨٨

الخليـل ٣٨، ٤٥، ٤٨، ٥٢، ٦٢،

٦٨، ٧٤، ١٦٢، ١٦٥، ١٦٨،

١٧٠، ١٧١، ١٨١، ١٨٣،

١٨٤، ١٨٥، ٢٠٥، ٢٠٨، ٢١١

الخندق ١٠٨

خوارزم ١٧١، ١٧٢

حارة السعدية ١٦٧

حارة بنى مرة ١٦٧

حبرون ٦، ٤٥

الحجاز ٨٩، ٢٠٩، ٢١٨، ٢٣٢

الحجر ٤٣، ٦٩، ٨٨

الحجر الأسود ٣١، ٣٣، ١٠٠، ١٠٤،

١١٧، ١٢٢، ١٣٥، ١٣٦،

١٥٧، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٩١

حران ١٢٨

حصن عيسى بن معقل ١٣٧

حطين ٩٦، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٤،

١٦٥، ١٦٦، ١٦٧

الحفير ٣٣، ١١٠

خان خليل ١٨٢

خان زيت ١٦٧

خان يونس ٢٠٢

خراسان ١٢٣، ١٢٨، ١٣٧، ١٤٨،

١٤٩

خربثة ٢١٢

الخروبة ١٦٤

(د)

١٤٤ ، ١٤٣ ، ١٤٢ ، ١٣٥	دار الحاج ٢١١
١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٥	دار الخطيب ١٨٥ ، ٢١١
١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٠	دار سمحان ٢١١
١٦١ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧	دار الشبلى ٢١١
١٦٩ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣	دار طوقان ٢١١
١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧	دار الطويل ٢١١
١٨١ ، ١٨٢ ، ١٩٠ ، ١٩١	دار عبد الهادي ٢١٢
١٩٢ ، ٢٠٣ ، ٢٢٨	دار عريقات ٢١١
دمياط ١٥٨	دار عقل ٢١١
دوره «كفر» ١٧٠	دار على شيخه ٢١١
دوطة ٥٣	دار اللحام ٢١١
دومة الجندل ١٠٩ ، ١١٠	دار ماضى ٢١٢
دير أيوب ١٥٦	دان ٣٣
دير دهبوان ٢١١	دجلة ٣٥ ، ٦٠ ، ٦٥ ، ١٤٢
دير غسانه ٢١١ ، ٢٢٦	درک ٢٠٥
دير مارسايا ٨٢	الدرنيل ٢١٨ ، ٢٢٣
دير ماريو حنا ١٧٦	دمشق ٤٣ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٧١ ، ٨٨ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١١٠ ، ١١١
دير نظام ١٨٤	١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٠
أبو ديس ٢١١	١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٨
	١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٤

(ذ)

ذی قار ٨٩	ذات الردعة ٩٧
	ذات السلاسل ١١٢

(ر)

١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠	رأس الناقورة ٣٣
١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨	رأس كوكو ٢١١
١٧٠ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٨٤	رام الله ١٦٧ ، ٦٨ ، ٤٨
١٩٦ ، ١٩٧	الرامة ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٦
الرها ١٦٠	رفع ٣٣ ، ٣٤
رودس ٤٠ ، ١٧٦	رقادة ١٤١
روس — يا ١٩١ ، ١٩٥ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥	الرقعة ١٧١
٢٠٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٢	الرملة ٣٧ ، ٤٨ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٠
روما ٨٣ ، ٢٠٣ ، ٢٠٧	١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٣١
رومانيا ٨٣ ، ٢٠٥	١٣٣ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤
رومية ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٨	١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٣

(ز)

زفة البيارق ١٦٧	الزاب ١٢٢ ، ١٣٨
زمران ٩	زرعين ٥٦
الزيتون «جبل» ٧٨	الزرقاء ٤٢ ، ١١٦
زيلاندا ٣٦	زفس ٦٨

(س)

سرمن راى ١٣٠	سان ريمون ٢٢٩ ، ٢٣٠
سرية شفا عمرو ١٩٢	سبسطية ٥٦ ، ٧٣ ، ٨٤ ، ٩٧ ، ١٦٠
سقاط ٢٠٤	١٦٢
سكوبس ٦٥ ، ٧٨	سبع «بثر» ٣٣ ، ٥٥ ، ٦١ ، ٢٠٧
سلار ١٨٢	سبيريا ١٨٣ ، ١٨٤

١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ،	السلط ٢٢٦
١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ،	سلوان ١١٦ ، ١٦٤
١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ،	سمرقند ١٨٤
١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ،	سنبلط ٥٧
١٩٦ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٨ ،	سنجار ١٧١
٢٠٩ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٢١ ،	سنجل ٢٢٦
٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧	سواری ١٠٩
سوق اقليموس ١٧٦	السودان ٣٥ ، ١٥٨
سوق خان زيت ١٧٦	سور عكا ١٩٢ ، ١٩٣
سوق الفخر ١٦٧	سورية ٣١ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ،
سوق القطنين ١٦٧	٣٩ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٩ ، ٦٤ ،
السويس ٢١٩	٦٦ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٨٣ ، ٨٨ ، ٩١ ،
سويسرا ٢٣١ ، ٢٣٢	٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،
سیدان ٢٢١	١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٥ ،
سیفروسان ریمون ٢٢٦	١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ،
سیمون «قرية» ١٦٤	١٢٩ ، ١٣٦ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ،
سیناء ٢٣١ ، ٢٣٢	١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ،
(ش)	١٥٧ ، ١٦٣ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ،
١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٧٧ ، ١٨٢ ،	الشام ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٨ ، ٨٩ ، ٩٨ ،
١٨٣ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ١٩٢ ،	١٠٤ ، ١٠٦ ، ١١٦ ، ١٢١ ،
١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ،	١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ،
٢٠٨ ، ٢٠٩	١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣١ ، ١٣٤ ،
الشرق ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٣٦ ، ٤٣ ، ٤٨ ،	١٣٥ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ،
٥٨ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧١ ،	١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ،

ثقيلة ٤٣	٧٣ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٩١ ، ١٢٩ ،
الثوبك ١٤٣ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ، ١٦٣ ،	١٥٢ ، ١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٧٣ ،
١٦٩ ، ١٧٤ ، ١٨١	١٧٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٤ ، ٢١٧
	شفا عمرو ١٩١ ، ٢١٢
	الثقيف ١٦٢ ، ١٧٠

شوفة ٢١١ (ص)

صفين ٩٠ ، ١٠٤ ، ١١٣ ، ١٢٥ ، ١٢٦	الصائفة ١٣٠
صقلية ١٦٥	صانور «قلعة» ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢١١
صلخد ٤٣	صبارين ٢١٢
صهيون ٣ ، ٩ ، ١٠ ، ١٣ ، ٣٨ ، ٣٩ ،	الصبرة ١١٧
٤٠ ، ٤١ ، ٥٢ ، ٦٤ ، ٦٨ ،	الصحراء ٣٣
١٤٩ ، ١٥٣ ، ١٦٣ ، ٢٣٠ ، ٢٣١	الصخرة «أنظر قبة الصخرة»
صور ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧	صرخد ١٦٩
صيداء ٣٩ ، ١٠٠ ، ١٤٣ ، ١٥٣ ، ١٧٣ ،	صرعا ٤٨
١٩٢ ، ٢٠٨	الصعيد ١٥٧ ، ٢٠٢
أبوصير ١٢٢	صفد ١٣٣ ، ١٥٦ ، ١٨١ ، ٢٠٠ ، ٢٠١
الصين ١٢٩ ، ١٨٧	صفورية ١٦٠ ، ١٦٢

(ض)

(ط)

طبريا ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٨ ، ٩٦ ، ٩٧ ،	الطائف ١٢٥
١٠٠ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ١٢٢ ،	طابور «جبل» ٢٠١
١٣٤ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٥٥ ،	طبرستان ١٥٧
١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢	

الطور ٦٢، ٢٠٠
طورس ٣٤
طول كرم ٥٨، ٢٢٦
طيبة «بنى سالم» ٤٨
طيرة ٢١٢

طرابلس ٣٩، ١٠٠، ١٥٣، ١٦٠،
١٨٢، ٢١٥، ٢٣١
طرايزون ٢٠٨
طلورة ٥٦، ١١٦
الطواحين «معركة» ١٣٣، ١٤٣

(ظ)

الظاهرية «قرية» ٤٥

(ع)

عسقلان ٤١، ٤٨، ١٠٠، ١١٦، ١٢٥،
١٤٣، ١٤٥، ١٤٨، ١٥٣،
١٥٤، ١٥٨، ١٥٩،
١٦٠، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٧، ٢٠٨

عثليت ١٥٥، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥

عجلون ٦

عجة ٢٠٢

عطارة ٤٩

العراق ٣١، ٣٦، ٣٧، ٤٠، ٤٣، ٤٥،

العقبة ٩٤، ١١٥، ١١٦

٤٦، ٤٨، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠،

عقرون ٤١

٦٣، ٦٥، ٩١، ٩٥، ٩٦،

عكا ٣٣، ٣٨، ٤١، ٤٨، ١٠٥، ١١٦،

١٠١، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٩،

١٢٥، ١٤٥، ١٤٨، ١٥٣،

١١٠، ١١٦، ١٢٦، ١٣١،

١٥٥، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠،

١٥٧، ١٦٧، ١٧٢، ١٧٣،

١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦،

١٨١، ١٨٨، ١٨٩، ٢٠٨،

٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٦،

٢١٨، ٢٢٣، ٢٣١،

٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠،

العراقيين ٤٥، ١٢٢، ١٣٤،

٢١٢، ٢١٤، ٢١٥،

العرقوب ٤٨

عل ٢٠٥

عمان ٤٢، ٨٤، ٦٠، ١٢٠، ١٣٥،

عريش ١٣٥، ١٧٧، ١٩٥، ١٩٦،

٢٠٢، ٢٠٣

العويسات ٢١١

عين جدى ٨٠

عين شمس ١٤٢

عين كارم ١٥٣

عمواس ٩٧

عمون ٦٠

عنانا ٦٢

العوجاء ٢٢، ١٩١

(غ)

١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦

١٨٥ ، ١٩٢ ، ١٩٦ ، ٢٠٣

٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٤ ، ٢١٥

٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨

الغور ٤١ ، ٥٧ ، ١٧١ ، ١٨١ ، ١٨٩

غورييسان ١٠٠ ، ١١١ ، ١٢٤ ، ٢١٢

غالييسيا ٢١٣

الغرب ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٥٨ ، ٦٤

٦٥ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٨٣ ، ١٤٣

١٩٧ ، ٢١٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٢

غزة ٣٤ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٨ ، ٦٥ ، ٨٨

٩٧ ، ١٥٨ ، ١٦٢ ، ١٦٨ ، ١٦٩

(ف)

فرنسا ٢١ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٣ ، ٤٩ ، ٦٦

٨٤ ، ١٥٢ ، ١٦٤ ، ١٧٢ ، ١٧٣

١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧

٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥

٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٧ ، ٢١٨

٢٢٠ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨

فارس ٦٣ ، ٦٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨

٢٠٠

فارسوفيا ٢٨

الفارعة ٥

الفجار ٨٩

فحل ٩٣ ، ٩٦

الفرات ٧ ، ٩ ، ٤٥ ، ٥٣ ، ١٣٣

فرساي ٢٢٦

فرغانة ١٣٤

الفرما ١١٢

القسطاط ١١٢

أبى فطرس ١٢٢

فطم ٦٤

القلت ٦٤

فلسطين ٣ ، ٥ ، ٧ ، ٩ ، ١٠ ، ١١

١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨

١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨
 ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢
 ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٧
 ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١
 ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥
 ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩
 ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣
 ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧
 ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١
 ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٨
 ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢
 ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦
 ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠
 ٢٣١ ، ٢٣٢

فندق مرقص ٨٠

فنيقية ٦٤

فوش ١٩٧

فيينا ١٨٨ ، ٢٣١

١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤
 ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٤
 ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٢
 ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٤
 ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٦
 ٦٧ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦
 ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢
 ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩
 ٩٠ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨
 ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٧ ، ١١٢
 ١١٥ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩
 ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣
 ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧
 ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٣
 ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧
 ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٩
 ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٥
 ١٥٦ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣
 ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠
 ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤

(ق)

القدس ٢٩ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٨
 ٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧
 ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٧١
 ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠
 ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٨ ، ٩٧ ، ٩٨
 ١٠٠ ، ١٠٧ ، ١٢٠ ، ١٢٩
 ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٥ ، ١٤٧

قازان ١٨٢

القاهرة ١١٦

قبرس ٤٠

قبة الصخرة ٥٥ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٣

١٦٣ ، ١٧١ ، ١٧٥ ، ١٨١ ، ١٩٠

قفقاسية ٢٠٤، ٢١٨
 قلعة صانور ١٩١
 قنشرين ١١٠، ١٢٣، ١٣٤
 قوص ١٨٢
 قوفية ١٨٩
 قوله ٢٠٢
 قونية ٢٠٣
 القيامة «كنيسة» ٨٢، ٨٣، ٩٩،
 ١٢٩، ١٤٥، ١٤٧، ١٥٥، ١٧٦
 القيروان ١٤٧
 قيسارية ٧٢، ٧٦، ٨٣، ٨٤، ٩٧،
 ١٠٠، ١٢٥، ١٥٥، ١٦٣
 ١٦٦، ١٦٩، ١٧٢، ١٧٣، ١٨١
 قيصرية ٧٢، ٧٣، ٧٦

١٤٨، ١٤٩، ١٥٢، ١٥٥
 ١٥٩، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤
 ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٩
 ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣
 ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧
 ١٧٨، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤
 ١٨٥، ١٩٠، ١٩١، ١٩١
 ١٩٢، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩
 ٢٠١، ٢١١، ٢١٤، ٢١٥
 ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧
 ٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢

قرطجة ٤٠

القرم «حرب» ٢٠٤، ٢٠٥

قزوين ١٧١

قسطنطينية ٣٥، ٨٣، ١٠١، ١٢٥، ١٤١
 ١٥١، ١٨٦، ١٨٨، ٢٠٠، ٢٠١

(ك)

الكعبة ٥٤، ٥٥، ٨٩، ١١٧، ١١٨، ١٢٦

كليزيا ١٠١، ٢٢٦، ٢٢٧

كنيسة البيرة ١٧٤

كنيسة الدباغة ١٢٩

كنيسة الصلاحية ١٧٤

كنيسة العذراء ١٢٩

كنيسة اليهود ١٨٤

الكداد ١٢٨

الكدان ٨٧، ١٠٦

الكرنك ١٢٤، ١٥٥، ١٥٨، ١٥٩

١٦٠، ١٦١، ١٦٣، ١٦٦

١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤

١٧٥، ١٧٦، ١٨١

الكرمل ٢٣٠

الكرنك ٣٨، ٢١٥

كريت ٤٠، ٦٢

الكويت ٥٧

الكوفة ٥٧ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٢٦ ،
١٢٨ ، ٢١٠

(ل)

لندن ١٨ ، ٢٣٢

اللاذقية ١١١

لوبيلا ١٦١

لبنان ٢٤ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٥٤ ، ١٩١ ، ٢٠٩

لوزان ٢٢٧ ، ٢٣٢

اللجون ٩٦ ، ١٣٥ ، ١٦٠ ، ١٩٧

لقتا ١٥٣

لوكسمبورج ٢١٧

لفيدوت ٤٩

الليبس ١١٠

اللد ٦٨ ، ٧٧ ، ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٩٧ ،

٢٠٧

ليديا ٦٣

(م)

مجلس عصبة الأمم ١٤ ، ٢٠ ، ٢٢ ،

ما بين النهرين ٥

٢٣٠ ، ٢٣

مادبا ٤٣

مجلس العموم البريطاني ٢٦

ماراثون ٦٣

مدرسة الشافعية ١٦٣

مارسابا ٨٢

مدرسة الصلاحية ١٦٣

المارن ٢١٧

مدرسة روضة المعارف ٧٣

المالحة ٢١١

مديان ٩ ، ٨٧

مالطة ١٧٦ ، ١٧٧

مدين ٤٧ ، ٨٧

ماملا «بركة» ٥٩ ، ١٦٢

المدينة ١٥٩ ، ١٦١

المبكي «حائط» ٥٤

المدية ٦٨

مجدل ٢٠٧ ، ٢١١ ، ٢٢٦

المرج ٤١

مجدو ٩٦

مرج دابق ١٨٩

المجر ٢٧ ، ٢٩ ، ١٩٠

٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ،
 ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦
 معان ٨٧ ، ٩١
 المعركة ٩٤
 معرة النعمان ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥
 معليا ١٦٢
 مغارة سليمان ٥٤
 المغرب ٦٣ ، ٩٥ ، ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٨١ ،
 ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٩ ،
 ١٩١ ، ١٩٤
 مقان ٨٧
 مقنا ٩١
 المقطم «جبل» ١٤٦
 المكتبة المركزية ٢٩
 مكديونا ٦٥ ، ١٨٩ ، ١٩٠
 مكفيلة ١٨٩
 مكية ٨٩ ، ٩١ ، ٩٤ ، ١٠٦ ، ١٣٣ ،
 ١٣٧ ، ١٤٥ ، ١٥٩ ، ١٦١ ،
 ١٩١ ، ١٩٢
 المهد ٨٢
 مواسم فلسطين «أنظر فلسطين»
 المؤتمر الفلسطيني ٦٧
 مؤتة ٩١ ، ١٠٠ ، ١٤٥

مرج راهط ١١٧ ، ١٢٣ ، ٢١٠
 مرج ابن عامر ٤١ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٨ ، ٩٦
 مرج عكا ١٦
 مرسليليا ٤٠
 مرعشا ١١٠
 مرمر ٦٤
 مريمته ٧٢
 المسجد الأقصى ٥٤ ، ١١٩ ، ١٢٠ ،
 ١٤٨ ، ١٥٤ ، ٢١٦٣ ، ١٧١ ،
 ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨١
 المسكوبية ٧٨ ، ١٦٢
 المشرق ٤٧ ، ٥٧
 مشهد الحسين ١٨٢
 مصر ٥ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٩ ، ٣١ ، ٣٦ ،
 ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٦ ، ٥٣ ، ٥٥ ،
 ٥٦ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ،
 ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٨٣ ، ٨٨ ،
 ٩١ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠١ ، ١٠٣ ،
 ١٠٤ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٧ ،
 ١١٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ،
 ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ،
 ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٨ ،
 ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ،
 ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٠١ ، ٢٠٢

الموصل ١٥٧

مياقارقين ١٧٠

ميونيخ ٢٨

مودين ٦٨

موريا ٤٥

موسى «وادی» ٤٣، ٤٦، ٥٢

(ن)

نبطية ٧٨

النقب ٢١١

النمسا ٢٧، ١٥٢، ١٨٨، ١٩٥، ٢١٥،

٢١٨، ٢١٧

نورمبرج ٢٧

نيكاراغوا ٢٣١

النيل ٣٥، ٦٠، ١١٢، ١١٣، ١٤٢،

١٨٠

نيويورك ٢٣، ٣٥

نابلس ٣٨، ٤٣، ٥٦، ٥٧، ٩١، ٩٧،

١٠٧، ١٤٩، ١٥٩، ١٦٠،

١٦٢، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٠،

١٧١، ١٨٤، ١٩٠، ١٩١،

١٩٢، ٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٦،

٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٤،

٢١٥، ٢٢٧، ٢٣٢

الناصره ٥٧، ٧٤، ٩٦، ١٦٢، ١٧٠،

١٧٤، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٦،

٢٠٨، ٢٠٧

الناقورة ٣٣

(هـ)

منغاريا ١٥٢

هولندا ٢٧، ٢٨

هيئة صهيونية ٢٥

مجرة ١٢٢

الهرسك ٢١٥

الهند ١٢٤، ١٢٩، ١٨٤

(و)

الوادية ٢١١

واسط ١٢٦

الولجة ١١٠

وادی الشعير ٢٠٣

وادی الصرار ١٦٧، ٢١١

وادی القرى ٤٣

وادی النيل ٣٥، ٢٠٢

(ى)

يازور ١٤٧، ١٥٥	٢٠٣، ٥٢
يافا ٢٥، ٣٤، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١	اليرموك ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧
٤٢، ٧٢، ٩٧، ١٠٠، ١٢٥	١٠٢، ١١٠، ١١١
١٣٣، ١٤٢، ١٤٧، ١٥٣	اليمن ٥٣، ٨٩، ١٢٦، ١٣٤، ١٥٧
١٥٥، ١٦٢، ١٦٥، ١٦٧	١٥٨، ١٧٧، ٢٠٩، ٢١٠
١٦٨، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢	يوغسلافيا ٢٧
١٧٣، ١٧٥، ١٨١، ١٨٢	اليونان ٢٣، ٢٤، ٣٢، ٤٠، ٦١، ٦٣
١٩٢، ١٩٣، ١٩٦، ١٩٧	٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٧١
١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١	٧٣، ٨٤، ٨٥، ٢٢٦، ٢٢٧
٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٦	٢٢٨
٢٠٧، ٢٠٨، ٢١١، ٢١٣، ٢١٤	

٣ - البطون والطوائف

(١)

الإباضية ١٠٥	الأخشيديّة ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٤١
الأتراك ٨٤، ٩٦، ١٣١، ١٤٨، ١٨٧	١٤٢
١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١	آدوميون ٤٢، ٤٣، ٥١، ٧١
١٩٦، ١٩٧، ٢٠١، ٢٠٨	الأرثوذكس ٢٠٤
٢١٤، ٢١٥، ٢١٨، ٢٢١	أرمن ٢٢
٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥	أرنوط ١٩٦
٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩	ارنؤودية ٢٠٢
٢٣٠، ٢٣١	أرياني ٣٦، ٤٠
الأحياش ٨٩	الآيوسيون ٨٣

الآزد ١٢٤

الأسباط ٣٣، ٤٨، ٥٢، ٥٤

إسرائيل ٤، ٥، ٦، ٧، ٢٩، ٣٩،

٤١، ٤٢، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨،

٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥،

٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦١

الإسرائيليون ٤٢، ٤٥، ٤٦، ٤٧

الإسكندريانيون ٢٤

الإسماعيلية ١٠٥

الإشراف ٩٤، ١٥٧، ١٨١

آشور ١١، ٥٦، ٥٩، ٦٣، ٦٤، ٨٣

الأشوريين ٦٥

اصطبله ٥٤

الأغريق ١٢٥

الافرنج «الفرنجة» ٨٥، ٩٦، ١٥٢،

١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦،

١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠،

١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤،

١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨،

١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢،

١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦،

١٧٧، ١٨١، ١٨٣

الأفغان ١٠٤، ٢١٩

الأقباط «القبطة» ١٠١، ١٠٨

الأكاسيرة ١١

الأكراد ١٨٤، ١٩٦

أكيد «اهل» ٩١، ١٠٩

اللاتين ٦٦، ٨٤، ١٢٩، ٢٠٤

«بنو» القين ١٢٩

الألمان ٩، ١٥، ٢٦، ١٦٤، ١٨٨،

١٨٩، ١٩٠، ٢١٧، ٢١٨،

٢٢٩، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣،

٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧

الأمريكيون ١٥، ٢١

بنو أمية ١٠٤، ١٠٥، ١١٥، ١١٦،

١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢٢،

١٢٣، ١٢٤، ١٢٧، ١٢٨،

١٢٩، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩،

١٤٢، ١٨٠، ١٨١، ٢١٠

أنباط ٤٢، ٤٣

الأنصار ٩٠، ١٠٩

الأنكشارية ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ٢٠٨

أورالكانيين ٤٥

الأوروبيين ١٧، ١٩، ٢٠٨، ٢٣١،

٢٣٢

الأييرلنديون ٢٤

الايطاليون ٢٣، ٢٤، ٢٨، ٧١

الأيوبيين ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١،

١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٨٠، ١٨١

(ب)

البابليون ٦٢ ، ٦٣ ، ٨١	بكر ١٢٤
بدو ١٦٨ ، ٢١١ ، ٢١٥	البكطاشية ١٨٩
البرابرة ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٨	البلاونة ١٢٤
البراغثة ٢١١	بلغاريين ٢٦
البربر ١٢٦ ، ١٨١	بلى ١٢٤
البرقاوى ٢١١	بهراء ٩٣
برتستانقى ١٩	بولز ٩٣
بريطــــــــــــــــانين ١٣ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨	البولنديين ١٧ ، ٢٢ ، ٢٣
٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢	البيتاوى ٢١١
البطالسة ٦٦ ، ٦٧ ، ٨٥	البيتونى ٢١١

(ت)

تبع ١٣٤	تقلب ١٧٣
التستر ٨٤ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣	بنو تميم ١٠٩
١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٨٨	تنوخ ٩٣ ، ١٢٤
١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١	
الترايين ٤٣ ، ٢١١	

(ث)

ثقيف ١٢٥	التيها ٤٣ ، ١٢٤ ، ٢١١
----------	-----------------------

(ج)

الجبارات ٢١١	الجرامفة ١٨٤ ، ٢١١
جديس ٨٩	الجركس ٢١٩
جرار ٢١١	جماعين ٢١١

بنو جمع ١١٧	جور عمرة ٢١١
الجنبلاطية ٢٠٩	
(ح)	
بنو حارث ١٦٧ ، ١٦٨ ، ٢١١	بنو حمار «حمير» ٢١١
بنى حارثة ١٩١ ، ٢١١	الحناجرة ٢١١
الحثيون ١٤ ، ٣٨	الحواسى ٢١٢
الحجازيون ١١٦ ، ٢٠٩	الحويطات ٢٢٥
بنو حسن ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٩٣ ، ٢١١	(خ)
خاقان ٦٨	بنو خفاجة ١٤٧
خدام ١١٧	الخوارج ١٠٥ ، ١٠٧
خزعل ١٤٦	خورازمية ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٩ ، ١٨٠
خشقدم ١٨٤ ، ١٨٥	(د)
الداروم ٦٥ ، ١٦٨	الدروز ٢١٥
الدارية ١٨٤	الدمشقيين ١٧٧
الدباونة ٢١١	الدواحدة ٥٢
الدرزية ١٠٥	دورة ٢١١
(ذ)	
(ر)	
الرجعية ١٧	١٢٥ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٣
الروم ١١ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧	١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٨٠ ، ١٨١
٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٨	٢٠٠ ، ٢٠١

٨٣ ، ٨٤ ، ٩٦ ، ١٠١ ، ١٠٢ ،	الرومان ١٢ ، ١٧ ، ٢٤ ، ٣٤ ، ٤٢ ،
١٠٣ ، ١١٠ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩	٤٩ ، ٦١ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ،
الروس ٢٣١	٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ،

(ز)

بنو زيد ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٨٤ ، ١٩٣ ،	الزراطيني ١٨٢
٢٠٧ ،	زنانة ١٤٨
٢١١	الزنوج ١٣٣
الزيدية ١٠٥	الزياذنة ١٩١ ، ١٩٢ ، ٢١١

(س)

السلاحدارية ٢٠٨	بنو سالم ٤٨ ، ١٦٧ ، ١٩٣ ، ٢١١
سلجوق ١٤٨	سامريين ٥٧ ، ٥٩
السلط ٤٢	سامي ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٥
السلوقيون ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧١	السامرة «السمراء» ١١٧ ، ١٢١
بنو سليم ٩٣ ، ١٤٧	أبو ست ٢١١
السمرة ٥٧ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٧	السردية ١٢٤
السنة ١٤٨	السريان ١٠٦
بنو سهم ١١١	بنو سعد ١٦٧
	السكاسك ١٢٤

(ش)

بنو شمس ٢١١	الشراارات ١٢٤
الشيعة ١٠٥ ، ١٢٨ ، ١٤٨	الشراة ١٣٥
الشيوعية ١٧	الشعراوية ١٦٧ ، ٢١١
	الشمامرة ١١٦

(ص)

الصليبيون ٨٣ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٣ ،	بنو صالح ١٦٨
١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ،	
١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ،	بنو صخر ٤٣ ، ١٢٤
١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ،	الصرب ٢١٧
١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ،	
١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ،	بنو صعب ١٢٤ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ٢٠٧ ،
	٩١١
الصهيونية ٩ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٦ ، ١٧ ،	
١٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ،	الصقر (عرب) ٢٠٢ ، ٢١٢
الصيني ١٧	صليبة (قبيلة) ١٧٤

(ط)

بنوطني ١٠٩ ، ١٤٥ ، ١٧٣ ،	الطاهرية ١٤٢
	الطولونيين ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٤٢

(ظ)

(ع)

العثمانيون ٨٤ ، ١٠١ ، ١١٩ ، ١٧٦ ،	عباديد ٨٧
١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ٢٠٣ ،	
٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ،	بنو العباس ٧٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١١٩ ،
٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ،	١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ،
٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ،	١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٧ ،
٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ،	١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٤٨ ،
٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ،	١٥٢ ، ١٦٧ ، ٢١٠ ، ٢١١ ،
العجامة ١٧٥	العبرانيين ٣٩ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٨٤ ،
	١٠٠ ، ١١١ ، ١١٦ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ،

١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ،

١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٨١ ، ١٨٢ ،

١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ،

١٨٨ ، ٢٠٢ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ،

٢١٠ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٤ ،

٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ،

العزامة ٤٣ ، ١٢٤ ، ٢١١

العزى ٢١١

العطاونة ١٢٤

بنو عقبة ١٢٤

العلوفجية ٢٠٨

عماليق ٤٢ ، ٤٧ ، ٥١ ، ٨٩

عمونيون ٤٢ ، ٥١

بنو عمير ١٦٧ ، ٢١١

بنو عنبر ١٦٧ ، ٢١١ (غ)

غسان ٩٣ ، ٩٥ ، ١٢٤ ، ١٧٣ ،

١٧٤

أبو غوس ٢٠٣ ، ٢١١

(هـ)

١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ،

١٦٧ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ،

القاعور ٢١١

بنو عبد مناف ١٢٥

بنو أبي عبيدة ١٦٧ ، ١٦٨

العجم ١٠١ ، ١٢٤ ، ١٣١ ، ١٤٦ ،

١٨٩ ، ٢١٠

العدلية ١٩٣

العدنانية ٢٠٩

العدوان ٤٣

بنو عدى ١٠٧ ، ١٤٧

عرب ٩ ، ١١ ، ١٣ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ،

٢٠ ، ٢٢ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٧ ،

٣٩ ، ٤٢ ، ٤٧ ، ٥٤ ، ٧٧ ، ٨٣ ،

٨٤ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٥ ،

٩٦ ، ٩٧ ، ١٣١ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٢ ،

١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ،

١٥١ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٦٢ ،

١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ،

غزالة ٥٠

الغزاوية ٢١٢

غسانة ٨٨ ، ٩٤

الفاطميون ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ،

١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ،

الفحيلي ١٢٤

الفراغة ١١ ، ٣٨

الفرس ٥٧، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٨٣، ٨٩،

11. 61.3 61.1

فرسان ماریوحنا ۱۷۶

فرسان الهيكل ١٦٤ ، ١٧٦

الفرنسيين ٢١، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧،

Y.O. C. Y.O. C. Y.O. C. 199 C. 19A

آل الفضل ۱۸۳

الفقارية ٢٠٩

فلسطينيون ١٠ ، ١٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٣١ ،

٤٢٨ ٤٢٧ ٤٢٦ ٤٢٥ ٤٢٤ ٤٢٣

٤٠١ ٤٤٨ ٤٤٧ ٤٤٢ ٤٤١ ٤٤٠

61AA 61AV 61AO 61AY 60Y

6192 6191 6190 6189

190 & 193

فینقیون ۳۹ ، ۴۰ ، ۵۴ ، ۶۲ ، ۸۳

(ق)

قریش ۵۴، ۸۹، ۹۰، ۹۱، ۱۰۶،

110 6111 6109 6108 6107

قضاة ٩٣ ، ١٢٤

قیس ۱۱۷، ۱۲۳، ۱۲۴، ۲۱۰

القيسة ١١٧ ، ١٢٨ ، ١٤٤ ، ٢٠٩ ،

218, 213, 212, 210

قاسم ۲۱۱

القاسمية ٢٠٩

القبطى ١٩ ، ١١٢

القحطانية ٢٠٩

القراصة ١٣٤ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٦

القرعان ۲۱۱

(ك)

کنعان ۵، ۸، ۹، ۳۴، ۳۷، ۴۵،

02 616

کنعانینوں ۳۴، ۳۷، ۳۸، ۳۹، ۴۲،

Λ9 672 601 689 685

کوٹھین ۵۶

کوفین ۵۶

کاٹولیکی ۱۹، ۲۰۴، ۲۰۵

كتامة ١٤٤ ، ١٤٥

أبو كشك ۲۱۱

بنو کلاب ۱۴۶، ۱۴۷

کلب ۹۵، ۱۲۴

کلیپ ۱۲۵

(ل)

الخمسين ٨٨

لخم ٩١، ٩٣، ١١٧، ١٢٤، ١٣٠

(م)

١٦٠، ١٦١، ١٦٣، ١٦٤،

بنو مالك ١٠٠، ١٦٨، ١٩٣، ٢١١

١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨،

المانيفستو الآرى ٢٨

١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢،

متهوسى ٢١٩

١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦،

المجريين ٢٦، ٩٥، ٩٧، ١٩٨

١٧٧، ١٩١، ١٩٢، ١٩٧،

بنو مخزوم ١٠٩

١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١،

مديانيون ٤٧، ٤٨، ٥١

٢١٥، ٢٣٠، ٢٣١

المذبحون ١٢٣

بنو مشجعة ٩٥

بنو مرة ١٦٧، ١٩٣، ٢١١

المصريون ٢١، ٣٨، ٤٢، ٥٩، ٦٢،

بنو مروان ١٢٦

١٣٤، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٨،

المساعيد ١٦٨

١٧٢، ١٧٧، ١٨٩، ٢٠٣،

السيحيون ١٣، ١٦، ٣٥، ٧٣، ٨٢،

المصرية ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠،

٨٣، ٨٤، ١٢٩، ١٤٤، ١٥١،

المغاربة ١٩٦، ٢١٩،

١٥٣، ١٦٧، ١٧٣، ١٧٤،

المغول ٨٤، ١٠٥، ١٠٩، ١١٧، ١٧١،

١٩٧، ٢٠٥، ٢٣٠، ٢٣١،

١٧٢

المسعودى ٢١١

المكابيون ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٢،

المسلمون ٢٧، ٣٥، ٦٢، ٧٣، ٧٤،

الماليك البحرية ٩٦، ١٣٤، ١٧٩،

٧٥، ٨٢، ٨٣، ٨٨، ٩٠، ٩١،

١٨٠، ٢٠٢، ٢١٠،

٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧،

الماليك الجراكسة ١١٩، ١٧٧، ١٧٩،

١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣،

١٨٠، ١٨٣، ١٨٤، ٢٠٢، ٢١٠،

١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨،

مؤابيون ٤٢، ٥١،

١٠٩، ١١٠، ١١٦، ١١٨،

المؤرخون ٣١، ٩٧، ١٠١،

١١٩، ١٢٠، ١٤٢، ١٥١،

١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧،

(ن)

النكفورية ٧٨ ، ١٦٢	النابلسيين ٢٠١ ، ٢٠٢
	النزازية ٢٣ ، ١٢٨
النمسيويين ٢٦ ، ٦٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢١	النصارى ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ٧٤
٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤	١٢٩ ، ١٤٥ ، ١٦٢ ، ١٦٤
	١٧٣ ، ١٧٤

(هـ)

الهنادى ٢١٢	بنو هاشم ١٣٩ ، ٢١٠
الهولانديين ٢٣ ، ٢٤	هزيل ٢١١
الهكسوس ٨٨	بنو ملال ١٤٧

(و)

الوهابيون ٢٠٣ ، ٢٠٤	الوبر ٢١١ ، ٢١٢
	وثنية ٣٧ ، ٤١ ، ٥٧

(ى)

٤٨ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥	اليزيكية ٢٠٩
٥٦ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢	اليمانية ١٣٠ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١
٦٣ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤	٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤
٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١	اليهود ٣ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢
٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١٤٤	١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨
١٤٥ ، ١٨٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧	١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤
٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢	٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٣
اليوغوسلافيين ١٧	٣٤ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠
اليونانيين ٢٣ ، ٢٤	٤١ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧

٤ - الآيات القرآنية

ص ٦١	إبراهيم ٥
الصف ٧	الأعراف ١٠٢
العصر ٩٢	آل عمران ٤ ، ٩٢
المنكيات ٣	الأنبياء ٣ ، ١٣٨
الكهف ٩٢	الأنعام ١٥٨
المنافقون ١٠٢	الأنفال ٩٠ ، ٩٢
النحل ٩٠ ، ١٢٠	البقرة ٩٢
النساء ٧٣	التوبة ١٠٤
هود ٤٧	الشورى ٩٢
يوسف ٥	

٥ - الأحاديث النبوية

من دخل دار أبي سفيان ١١٥	استوصوا بالنساء خيراً ٩٢
--------------------------	--------------------------

٦ - الكتب الواردة في النص

تاريخ الطبرى ٩٩	الأنجيل ٦٦ ، ٧٤ ، ٨٤
التسورة ٨ ، ١١ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٣٩	انجيل ٤٠ ، ٦٦ ، ٨٤
٤٥ ، ٥٨ ، ٦٢	الأنس الجليل ٩٩
حياة اللغة العربية ١٠٧	تاريخ سيناء ١٧٤

٧ - الأشعار

أبا المسك أرجو ١٣٦	خليفة في ١٣٢
إذا أها الرشى ٦٨	دعوت بماء ١١٦
إذا صلت ١٣٦	ذكرتك والخطى ١٥٩
إذا لم يكن ٨٣	زبارجى ١٤٤
إذا ما غضبنا ٢٢٤	زعمت رجال ١٤٣
أذل الحياة ١٢٢	عرب ودرور ١٩١
أرى أمتى ١٥٤	عربستان يارب ١٩١
أرى خلل ٧٨، ١٢٨	غضبوا عليا ١٧٠
أظن الشام ١٣١	فاصبر فإن غدا ١٧٠
اليس من العجائب ١٣٢	فأن النار ١٢٨
إن البرية ١٢١	فأن تدع العراق ١٣١
إنى أعيدكم ١٢١	فأن تكن الدولات ١٥٩
تسومهم الروم ١٥٤	فأن لم يطفها ١٢٨
تنصر فالتنصر ١٤٤	فأن لم يكن ١٢٢
جينا بلاد جدى ١٩١	فأنظر إلى حظ ١٦٩
حتى طرقهم ١٣٧	فقال هو الماء ١١٦
حمته على الأعداء ١٣٧	فقلت من التعجب ١٢٨
حييون إلا أنهم ١٣٧	فلو لم تكن ١٣٦

فليتهم إن لم ١٥٤
فليس بمرحوم ١٣٦
فما لى والدنيا ١٣٦
فهيا بنى الإسلام ١٥٤
فيعقوب الوزير ١٤٤
كل أمرى راجع يوما ٧٩
لا تبقرن بأيديكم ١٢١
لا تلمحن ١٢١
مازلت بالحزم ١٣٧
متى تجمع ٧٧
ملاعب جنة ١٤٦
من الحلم ١٣٦
من مبلغ ٢٠٣
مولاي إن أبا بكر ١٦٩
نجونا من الموت ١٥٩
نعم على قدر ١٤٤
مم المحسنون ١٣٧
واخوانكم بالشام ١٥٤
والا فخاننتنى ١٣٦
وتجيبى باسمه ١٣٢
وتلك آثارنا ٣٧
وتلك حروب ١٥٤
وزير قد ٦٨
وشر سلاح ١٥٤
وقل بثلاثة ١٤٤
وكم من دماء ١٤٤
ولكن الفتى ١٤٦
وليت فلم تشتم ١٢٠
ومن رعى ١٣٧
ومن عرف ١٣٦
ومن مثل كافور ١٣٦
ومن هون الدنيا ١٥٩
وهم يحسنون ١٣٧
يا عز كفرانك ١٠٩
يا مصر ١٤٣
يقول ما ١٣٢

٢٨٦

مصادر الكتب

صلاح الدين - أحمد بيلى
 معجم البلدان - ياقوت الحموى
 رحلة ابن جبیر
 رحلة ابن بطوطة
 محاضرات الخضرى
 أشهر مشاهير الإسلام رفيق بك
 العظيم
 The works of Josephus.
 Biblical Geography and History -
 Kent.
 The House of the Seleueids -
 Bevan.
 Jerusalem Under the High Priests -
 Bevan.
 The Philistines - Macalister.
 A History of Civilization in
 Palestine - Macalister.
 The Rise and Fall of the Roman
 Empire - Gibbon.
 The Historical Geography of the
 Holy Land - G.A. Smith.
 Palestine under the Moslems -
 Guy Le Strange.Strange.
 The Eneyelopedia Britannica.
 The Orient in Bible Times - Grant.

التوراة
 التاريخ العام - مير
 التاريخ القديم - بورتر
 تاريخ سورية - المطران الدبس
 فلسطين وتجديد حياتها - حنا صلاح
 أبو الفدا
 ابن الأثير
 الأنس الجليل - الحنبلى
 مروج الذهب - المسعودى
 تاريخ الطبرى
 ابن خلكان
 الواقدي
 مقدمة ابن خلدون
 تاريخ التمدن الإسلامى - زيدان
 تاريخ مصر الحديث - زيدان
 تاريخ دول الإسلام - منقرىوس
 تاريخ الدول العثمانية - فريد وجدى
 مشهد العيان فى تاريخ سورية ولبنان
 - مشاققة
 عمرو بن العاص - حسن إبراهيم
 حسن

فهرس الكتاب

صفحة	صفحة
٥٥ مملكة إسرائيل	٣ التقديم
٥٧ السمرة	٣١ مقدمة
٥٨ مملكة يهوذا	القسم الأول ٣٢
٦٠ بعض أنبياء الله	٢٣ من بدء التاريخ الإسلامى
الفصل الثالث	إلى الفتح الإسلامى
٦٣ من نبوخذ نصر إلى بومبى	الفصل الأول
٦٤ فلسطين فى يد الفرس	٢٣ تاريخها قبل اليهود
٦٥ اليونان فى فلسطين	٢٣ حدودها
٦٦ السلوقيون والبطالسة	٣٤ مساحتها
٦٧ المكابيون	٣٤ أسماؤها
الفصل الرابع	٣٥ تأثير موقعها الجغرافى على تاريخها
٧١ الاحتلال الرومانى	٣٦ سكانها
٧١ هيرودس	الفصل الثانى
٧٣ السيد المسيح	٤٥ اليهود فى فلسطين
٧٥ جلاء اليهود ثانية	٤٥ دور البداوة
٨٠ قلّة مسادا	٤٨ عصر القضاة
٨١ هدرىان	٥٠ اليهود كاملة
	٥٤ انقسام المملكة وخرابها

صفحة	صفحة
١٢٣ محدثات بنى أمية وميزاتهم	٨٢ قسطنطين وتنصير فلسطين
١٢٤ بعض أبطال الدولة الأموية	٨٣ آثار الرومان واليونان
١٢٧ الدعوة العباسية	القسم الثانى
الفصل السابع	٨٧ الفتح الإسلامى حتى عصر
١٢٩ فلسطين عباسية	العثمانيين
الفصل الثامن	٨٧ العرب قبل الإسلام
١٣٣ الدولة الطولونية	٨٩ النهضة الإسلامية
١٣٤ الدولة الأخشيدية	٩١ النبى محمد صلى الله عليه وسلم
١٣٧ بعض أبطال الدولة العباسية	٩٣ انقاذ جيش اسامة
الفصل التاسع	٩٣ وقعة اليرموك
١٤١ الدولة الفاطمية	٩٧ وقعة أجنادين
١٤٤ الحاكم بأمر الله	٩٨ فتح بيت المقدس
١٤٨ الدولة السلجوقية	١٠١ إدارة البلاد وأسباب نجاح
الفصل العاشر	العرب
١٥١ الصليبيون	١٠٤ الفتح الإسلامى والخلفاء
١٥٣ فتح القدس	الراشدون
الفصل الحادى عشر	١٠٥ نبذة عن القرآن
١٥٧ حالة العالم الإسلامى	١٠٧ آثار الخلفاء
١٥٨ معركة حطين	١٠٧ أبطال النهضة الإسلامية
١٦٣ الحملة الصليبية الثالثة	الفصل السادس
١٦٧ صلاح الدين ومواسم فلسطين	١١٥ فلسطين أموية
	١١٨ بناء الحرم الشريف
	١١٩ الوقائع الأموية

صفحة	صفحة
١٩٣ أحمد باشا الجزائر	١٦٨ الدولة الأيوبية
الفصل الرابع عشر	١٧١ الخوارزمية
١٩٥ بونابرت في فلسطين	١٧٣ أضرار الحروب الصليبية
١٩٧ نابليون والقدس	١٧٦ فرسان مار يوحنا
١٩٧ منشور نابليون	١٧٦ فرسان الهيكل
٢٠١ ثورة جبل نابلس	الفصل الثاني عشر
٢٠٢ إبراهيم باشا	١٧٩ المماليك البحرية
٢٠٣ ثورة أمراء فلسطين	١٨٠ الملك المنظر قطز
٢٠٤ حرب القرم	١٨١ الملك الظاهر بيبرس
٢٠٥ نقود وموازن ومكايل فلسطين	١٨٢ انتقال الخلافة العباسية إلى مصر
٢٠٧ بعض أسواق فلسطين	١٨٢ محمد بن قلاوون
٢٠٨ أقسام فلسطين الإدارية	١٨٣ المماليك الجراكسة
٢٠٩ قس ويمن	١٨٣ أبو سعيد برقوق
٢١٢ الحرية في فلسطين	١٨٤ مجنى التتر
٢١٥ ثورة حوران	القسم الثالث
الفصل الخامس عشر	١٨٧ عهد الدولة العثمانية
٢١٧ الحرب العظمى	الفصل الثالث عشر
٢١٩ التموين	١٨٧ تمهيد
٢١٩ وسائل النقل	١٨٨ نشوء الدولة العثمانية
٢٢٠ المؤسسات	١٩٠ السلطان سليمان
٢٢١ البعثة الألمانية العسكرية	١٩١ الأمير على المصرى وظاهر العمر

صفحة	صفحة
٢٢٧ لمحة اجتماعية	٢٢٢ الجراد
الفصل السادس عشر	٢٢٢ الحركة الاقتصادية
٢٢٩ الاحتلال الانكليزي	٢٢٣ الصحة العمومية
٢٣٠ تاريخ الصهيونية	٢٢٣ الأخلاق العمومية
٢٣٣ جدول الملوك	٢٢٣ الديوان العرفي
٢٣٧ الكشف العام	٢٢٤ الثورة العربية
٢٨٧ مصادر الكتاب	٢٢٥ الحملات الحربية
٢٨٩ فهرس الكتاب	٢٢٧ الهجرة

٢٠٠٥/٢١٥٢١	رقم الإيداع
ISBN 977-02-6865-8	الترقيم الدولي

١/٢٠٠٥/٤٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)